ساعدت جامعة بغداد على نشر هذا الكتاب

الشّعر في حرب داحس والغبراء

عادل جاسم البياتي

مطبعة الآداب في النجف الاشرف

ساعدت جامعة بغداد على نشر هذا الكتاب

الشّعر في حرب داحس والغبراء

عادل جاسم البياتي

مطبعة الآداب في النجف الاشرف

فهرست

الإهداء

سيدي الوالد . .

سيدتي الوالدة . .

لعل فيه وفاء لما يثقل كاهلي من الحقوق .

ومنكما الرضا ، ومن الله الجزاء .

عادل



مقدمة البحث

أهميته . اختباره . مصادره :

ترجع رغبتي في الشعر الجاهلي ودراسته الى مراحل التصليم الاولى يوم كنا نُحفَّظُ القصيدة القديمة . ونحن نجهل قدراً كبيراً من مفرداتها واجوائها وأخبارها ، وليت الأمر بالنسبة الى وقف عند هذا الحد ، بل تعقدت المسألة في ضميري يوم وقعت على كتب عديدة تناولت الشعر الجاهلي بالنقد والتشكيك فوقف بعضها موقف المنكر له في حين تصدى أخرون مدافعين عنه وموثقين ، فلما اطلعت على هذه وتلك صرت من هذه الثروة الشعرية مكان سهيل من الثريا ، وكادت الستارة تنسحب على هذه الخاتمة لولا أن هداني الاختصاص في مرحلة الدراسة العالية الى شيء من الواقع والحقيقة ، فاستيقظ في نفسي بالاضافة إلى هذا الشعور الذاتي شعور قومي يؤكد لي ضرورة دراسة الشعر الجاهلي وكشف مكنوناته وجلو جواهره ، فطالما لقى الأمرّين من عنت المتعنتين وتعصب المتعصبين حتى كادت يد العفاء تمر عليه ويغدوا هشيما تذروه الرياح ، فعزمت على السير لالحق بقافلة العاملين في الشعر الجاهلي رافعاً صوتي مع مجموعة الاصوات المخلصة المنبعثة من جهات كثيرة في

الوطن العربي وفي أنحاء المعمورة .

واذن فأهمية هذه الدراسة انحصرت في طابعها القومي حيث أصبحت العناية بالشعر الجاهلي وتمحيص نصوصه وبعثها ونشرها واجباً وطنياً يقع على عاتق الباحثين العرب . وقد دلت تجارب عديدة أن مجال الفائدة العلمية من هذه الثروة واسع جداً عرفه المفسر واللغوي والأديب وصاحب التراجم والمعاجم والمؤرخ ، وأن الطابع الانساني للاسلام يبدو أكثر اشراقاً بعد أن تتضح لنا طبيعة الحياة التي كان القوم يعيشونها في مختلف نواحيها قبل البعث والرسالة .

ولقد استأثرت الحرب بقدر عظيم من الشعر الجاهلي كما مضت روايات « الايام » بكل أخبار هذا العصر ، ولا يعني ذلك انهم لم يقولوا شعراً في غرض سواها أو لم تكن لهم ساعة سلم أو صلح . وسوف نرى أن حرب داحس دامت أربعين عاماً ولم تتخللها إلا معارك معدودات فكانوا يتلقون سنة ويقعدون أربع سنوات يتهيأون للقاء جديد . لكن مكوثهم على أهبة الاستعداد طوال الاعوام في جو مشحون بالتوتر النفسي جعل طابع الحماسة والفخر غالباً على شعرهم . ومع ذلك فالرواة حدثونا عن قصائد طوال وقصار ومقطعات في المديح والهجاء والغزل والحكمة قيلت في مناسبات غير حربية . وازاء ظاهرة طغيان الحرب وموضوعاتها على الشعر الجاهلي لم أجد بدأ من خوض هذا البحث ، فاخترت جانباً منه هو حرب داحس والغبراء مستخلصاً منها بعض النتائج التي تهمنا خلال العصور التالية ، من الاسلام وإلى يومنا هذا ، فعلى الرغم من

طابع العصبية والثأر الذي اختفى بظهور الدين الجديد وعاد في أخريات عصر الراشدين وأول أيام بني امية ، نستطيع أن نتخذ من ضروب الشجاعة والبطولة مثالاً يحتذى في اقتحام غمرات الوغى ولقاء الموت وان ننزع عن نفوسنا ثوب التعصب الذي ذهب بريح الجاهلية ونتمسك بالدعوة القومية الحقيقية وما أقره الاسلام من مثل شريفة وغايات نبيلة .

ولقد وجدت أن جمع أشتات هذه الحرب من مظانها وضمها الى بعضها بعد أن ظلت أشلاء ممزقة في بطون الكتب ، عمل يستحق الجهد المبذول من أجله ، فرحت أنقب عن كل صغيرة وكبيرة لها مع هذه الحرب علاقة قريبة أو بعيدة ، فاستطعت أن أجعل منها مادة تصلح على قلتها أن تكون دراسة موسعة ، لانها في واقعها تنم عن ضخامة أحداث الحرب ومدى تغلغلها في أقوام المنطقة من أرض نجد وماجاورها من شبه الجزيرة حتى استطاعت أن تترك فيهم تقاليدها وآثارها ، فكانت أحد العوامل الكبيرة التي حددت طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية وقد رأيت أنها على الرغم من طابع العصبية والثأر الغالب عليها وعلى أكثر الحروب في ذلك العصر ، قد اتسمت بصفة سياسية أيضاً يتجلى وضوحها في صراع القبيلتين على السلطة والزعامة خلال تاريخهما الطويل مع تأثير مباشر من القيم الاجتماعية والعوامل الاقتصادية السائدة آنذاك ، فتجمعت هذه الدوافع لتشعل نار الحرب العظيمة .

واذا كانت الحرب نتجت لهم الموت والفقر والعداوة القاتلة ،

فانها نتجت أيضاً شعرا ، كان القوم يسجلون به الاحداث أولاً بأول مصبوباً في قوالب من أساليب الحماسة والفخر والرثاء والهجاء والغزل تتوزع خلالها موضوعاتهم المختلفة ، لكنه شعر لم يجمع في ديوان ولم يودع في كتاب فظل كقصة الحرب مفرقاً في الدواوين والاسفار ، ولا يخفى أن هذا التفرق في القصة والشعر أضاع أهميتهما في أعين الناس فلم أكن أعرف لهما هذا الشأن الكبير حتى جمعتهما في كتاب . واعترف أنني لم أكن أتوقع أن أعثر على هذا القدر من الاخبار والاشعار قياساً الى ما فعله المؤرخون من اختصار وتلخيص وحذف ، والآن وقد أصبحت المادة ملء العين فهي جديرة بالبحث والدرس .

وشعر هذه الحرب متعـــدد الجوانب . فهو مادة لغوية قيمة ، وتاريخ ثابت الحقيقة صادق الخبر ، وفن من أجمل الفنون يحوي صوراً رائعة للحرب والسلام وأغراضهما وموضوعاتهما المتعددة ، وقد انعقدت فصول دراسة كاملة لهذا الشعر ، وظهرت لنا من مناقشة النصوص ومعالجتها انه شعر متميز الشخصية ، حتى أنه اختص ببعض الصفات وانفرد بها ، فان وجدت في ثنايا غيره من الشعر الجاهلي فهي قليلة نادرة ليست بمثل الوضوح الذي اتسم به شعر هذه الحرب .

وبلغ من اهتمامنا بالشعر أن ذهبنا الى توثيق رواته ، وبالقصة فعالجناها بالمقارنة والنقد حتى استقام لنا خبرها ، وتكشفت لنا من خلال التوثيق والمقارنة والنقد أمور نعتبرها ضرورية في دراسة الشعر الجاهلي ، أهمها أن جزءاً قليلاً من هـذا الشعر مختلط النسبة وجزءاً

كبيراً منه ضائع ، وكذلك الحرب ضاع خبرها ولم يصل إلينا منها إلا مختصرات في كتب ليست بذات اختصاص ، والمصاب في الشعر أفدح حيث ضاعت القصائد الطوال وبقيت المقطعات القصار .

واذا كان لشيء في هذه الدراسة أهمية تذكر فما أظنه بالغاً أهمية شعرائها الذين يقرب عددهم من خمسين شاعراً ، هم قادة الأدب الجاهلي وفكر هذه الحرب المدبر في كل ظروفها ومناسباتها . يتقدمهم زهير والنابغة وعنترة وعروة والحطيئة وآخرون أزاح البحث عنهم تراب الزمن ، فأظهر دورهم وشعرهم فاذا هم لا يقلون عن سواهم دراية وحكمة وطول مراس في الشعر والحوب ، بل أن بعضهم كان يتبوأ قيادة قومه فأنصفناه واخرجناه من بين الحشود ووضعناه في مركزه المناسب ليكون دوره واضحاً ولنقر بذلك حقيقة تاريخية .

ونستطيع القول ان أعمدة بحثنا ثلاثة : القصة والشعر والشعراء ثم أخذت الموضوعات تتشعب عنها وخرجت الدراسة الى النور بخمسة فصول ، الأول والثاني منها اختصا بدراسة القبيلتين المتقاتلتين والحرب فهما يمثلان القسم الأول من البحث ، بينما اختص القسم الثاني بالشعر ويضم الفصل الثالث والرابع والخامس .

ففي الفصل الأول أخرجنا نسب القبيلتين ، وظهر أنهما تنتسبان الى اسرة واحدة ، وترقيان في دوحة الأنساب الى قيس عيلان ، وقد برز هذا جلياً في أشعارهم حيث كانوا يكثرون من ترديد اسم جدهم التقليدي بغيض بن ريث . . . وحددنا منازلهما من أرض نجد عامة

وغطفان خاصة فرأينا عامل الجوار يلعب دوره الرئيسي في مشاحناتهم فضلاً عن تأثير القبائل المتاخمة ، وتطرقنا الى طبيعة العلاقات بينهما قبل الحرب وبعدها فلمسنا في علاقاتهم طابع الود التقليدي والولاء المصطنع الذي ظهر زيفه عندما توترت الحالة وساءت فلم تعد تحتمل النفاق . ثم اخذنا بنظر الاعتبار مكانتهما ومنزلتهما بالنسبة لمجتمع شبه الجزيرة ، فرأينا القبيلتين تتمتعان باحترام الجميع وعززنا قولنا بالنصوص التاريخية الثابتة ، وقد جرنا هذا الموضوع الى التطرق والحديث عن أهم شخصياتهم فترجمنا لبعضهم وبخاصة اولئك الذين يرد ذكرهم في قصة الحرب وشعرها ، وبعد ذلك ختمنا الفصل بكلام موجز عن الايام والحروب التي خاضتها القبيلتان مع بعضهما ، أو مع غيرهما فوجدنا أن ذبيان عرفت بكثرة حروبها الداخلية فيما بينها ولم نجد لعبس أية حرب داخلية وعزونا ذلك الى تماسك عبس لتواجه خطر الحلف المؤلف ضدها . والى الاسرة الحاكمة آنذاك كانت قوية بالنسبة للاسر الاخرى في هذه القبيلة ، الامر الذي ساعد على استقرار الحكم ومن هنا كانت عبس احدى جمرات العرب لأنها صبرت لقبائل قيس وغيرها ولم تنطفىء جمرتها إلا عندما بارحت أرضها ودخلت في حلف مع بني عامر .

وقبل أن ندخل إلى قصة الحرب فى الفصل الثاني عددنا الاسباب والعوامل المؤدية اليها ، وجعلناها على شكل نقاط ضمت أسباباً مباشرة واسباباً غير مباشرة ، وقد بدأنا بالاسباب الاجتماعية والاقتصادية

لاهميتهما ، ولم نغفل العودة إلى تاريخ القبيلتين لاننا لمسنا من خلال مراجعة المصادر والمراجع أن نزاعهم كان كامناً في ماضيهم حيث كان الاجداد والآباء يتصارعون على سيادة قطفان . وقد دعتنا هذه الملاحظة الى التحدث عن المجتمع القبيلي حديثاً سريعاً موجزاً ، وعن العصبيات والصراع على المراعي وموارد المياه والثأر ، فعقدنا لها دراسة حرصنا على جعلها شاملة ومختصرة . ثم كان الانتقال إلى الاسباب المباشرة فبسطناها كما يذكرها الرواة على اختلافها ورددنا كل رواية إلى مصدرها ومضينا نناقش كل رواية وننقدها ونقارنها مع غيرها ومن ثم نثبتها ونؤيد صحتها في ضوء الدراسات العلمية الحديثة وما يتوافر في أيدينا من النصوص الصحيحة ، أو نرفضها عند قيام الدليل المادي الملموس على بطلانها . وهكذا انجلت لنا المسألة صريحة واضحة ، وهي أن حرب داحس والغبراء لم يكن سببها الوحيد سباق فرسين كما لم يكن هذا السبب بالقدر الذي كانت عليه الاسباب المذكورة . وبعد ذلك سردنا خبر الحرب منقحاً ومبنياً على الصحيح الثابت ، وقد جزءنا القصة تجزئة يقتضيها السياق وطبيعة البحث والدراسة ، فكانت البداية واتساع نطاق الحرب بدخول قبائل أخرى فيها ، ثم انتقال المعارك الى أرض جديدة غير أرض غطفان ، وذلك عندما خرجت عبس من ديارها تحت ضغط ذبيان والاحلاف ضاربة بقدمها في ارجاء واسعة من شبه الجزيرة العربية . والتفتنا الى أمر جوهري بالنسبة لوحدة اللغة وسيادة لهجة الحجاز ونجد فقررنا ان اجلاء الحرب لكثير من القبائل وانتقالها إلى

مناطق بعيدة من شبه الجزيرة كان أحد العوامل القوية في هذه الظاهرة وانتقلنا الى ذكر المعارك والوقائع . وختمنا الفصل بحديث الصلح وشروطه وسعى رجال بني مرة وآخرين لوضع نهاية حقيقية للحرب ، عندما احتسبوا الديات ودفعوا ما ترتب على عاتق كل قبيلة تعجز عن دفع ما ترتب عليها . وبانتهاء الفصل الثاني ينتهي القسم الأول من البحث وهو كما أسلفنا الدراسة المتصلة بالقبيلتين والحرب .

فاذا بلغ الامر مطلع الفصل الثالث نكون قد اتصلنا بحلقة الشعر والشعراء ، وهو جوهر الموضوع الذي من أجله أعدت هذه الدراسة . وطبيعي أننا قبل أن نتورط في أحكام فنية أو موضوعية للشعر يتحتم علينا أن نستوثق من صحته ، لاننا نعلم أن قسماً من الشعر الجاهلي أصابه الوضع والانتحال ، لذلك دأبنا على توثيق هذا الشعر فبدأنا بمصادرة فناقشناها ، ورواته فتناولناهم بالنقد والتجريح ولم نترك قضية الانتحال تنلت من أيدينا فعرضناها على واقعها منذ القديم الى أن تناولها المستشرقون والادباء العرب في عصرنا الحاضر . لكنه عرض سريع أفادنا في تطبيق ما يصلح من هذه القضية وأسبابها على شعر الحرب . ولكي تكتمل هذه الدراسة التوثيقية ، ختمنا الفصل بحديث عن اختلاط نسبة هذا الشعر الى أصحابه أو إلى أكثر من شاعر فظهر لنا أن غالبية صحيح النسبة ، وأشرنا الى المقطوعات والابيات المشتبه بنسبتها وعالجنا كل حالة على انفراد فازلنا منها الاشتباه أو على الاقل رجحنا النسبة الصحيحة بالعودة الى أوثق الروايات .

وبعد ذلك جعلنا نستخرج كل ظاهرة فنية ونفرد لها حديثاً خاصاً وقد حرصنا على اختيار أوضح الظواهر وأكثرها دوراناً في أشعارهم ، ولم نفصل الحديث في الظواهر العامة التي يشترك فيها شعر الحرب مع باقي الشعر الجاهلي ، وانتقلنا بعدئذ إلى دراسة الخصائص المميزة لشعر الحرب فدرسنا لغته واسلوبه وصناعته الفنية ، وكان لابد لنا من أن نشير إلى معاصرة الحرب لمدرسة الصنعة الفنية أو العكس فعرجنا عليها . ثم تحدثنا عن الاوزان والقوافي من جميع الوجوه .

وبعد أن أصبح الدرب ممهداً وزالت جميع الشكوك انطلقنا إلى الفصل الرابع متممين دراسة الشعر من ناحيته الموضوعية فعددنا الموضوعات الكبيرة التي تناولها هذا الشعر ، وتحدثنا بالتفصيل عن كل موضوع ثم نظرنا إلى أحداث الحرب ومواكبة الشعر لها ، وإلى الواقع التاريخي ومطابقة الشعر له ، وانتهى بنا موضوع المواكبة والمطابقة الى حقيقة علمية وتاريخية هي أن أكثر شعر هذه الحرب ضاع ولم يصل إلينا فعززنا ضياعه بالبراهين المادية شأنه في ذلك شأن الشعر الجاهلي .

أما الفصل الاخير ، الخامس ، فهو مختص بأشهر شعراء حرب داحس والغبراء وقد استهل الفصل بدراستهم جميعا موزعين على مجموعات بحسب موقفهم من الحرب ، ومشاركتهم فيها أو ابتعادهم عنها أو انتمائهم الى احدى القبيلتين أو القبائل المجاورة . ثم انتخبنا من بينهم شاعرا ضيعته الكتب فأفردنا لشعره دراسة خاصة ، وترجمنا له ، وانتقلنا

الى مسألة أساسية في البحث هي موقف النابغة الذبياني من حرب داحس ، فظهرت لنا أمور جديدة لم نكن نلتفت اليها من قبل ، وهي أن النابغة برغم سفارته لقومه في بلاطى الغساسنة والمناذرة بعيداً عن أرض الوطن لم يترك أمر الحرب يمر به بسلام بل كان كعهده ملازماً للقضية ومؤيداً لقبيلته ومندداً بعبس ، أما موقفه الاخير عندما لام قومه على ترك عبس تهجر منازلها وتلحق بعامر فهو موقف جديد اقتضته تطورات الاحداث في المنطقة عندما تألبت القبائل المجاورة على ذبيان وغدت الحاجة إلى عبس ملحة ، وكان هذا من النابغة تدبيرا وبعد نظر . .

ثم كان الختام ، فجعلناه دراسة للحرب والسلام في شعر عنترة وزهير بن أبي سلمى ، وهي دراسة فرضتها طبيعة البحث لانه في أساسه كان حرباً وسلاما .

وانتهت الرسالة بخاتمة أمدت القارىء بخلاصة النتائج الاساسية لهذا البحث ، وعسى أن نكون قد أغنينا أدبنا بمادة جديدة نافعة وأسدينا للشعر الجاهلي خدمة نرجوها .

ولا يسعني وأنا اختتم مقدمة هذه الدراسة الا أن اشكر استاذي المشرف على هذا البحث الدكتور محمد كامل أحمد جمعة على توجيهاته القيمة التي كانت الرسالة تفتقر اليها ، فضلاً عن الجهد والوقت الكبيرين اللذين بذلهما معي ، وقد اغرقني بفيض من صبره الجميل حتى اكتملت معالم البحث . واخص بالشكر استاذنا الجليل الدكتور

شوقي ضيف والدكتور محمد لطفي عبد البديع اللذين توليا مناقشة البحث ، زاد الله في علمهما وفضلهما .

وانتهز فرصة الشكر لأتقدم إلى استاذي الدكتور يوسف عبد القادر خليف بشكر مثله ، فهو واضع اللبنات الأولى لهذه الدراسة وقد أغناني بمادة طيبة يوم كانت الرسالة تحت اشرافه فللاساتذة الفاضلين عظيم احترامي وتبجيلي ، والله الموفق .

٥ جمادى الآخرة ١٣٨٩

١٨ اغسطس ـ آب ١٩٦٩ عادل جاسم محمد البياتي

الفصل الأول

عبس وذبيان

نسبهما . منازلهما . العلاقات بينهما . منزلتهما
في المجتمع الجاهلي . أهم رجالاتهما .
أهم حروبهما وأيامهما .

الفصل الأول

عبس وذبيان

نسبهما :

عبس وذبيان قبيلتان قيسيتان - يرجع نسبهما الى قيس ابن عيلان - واسم عيلان « الناس » ، ومن قيس هذا تشعبت بطون القيسية في شبه الجزيرة العربيه - فصارت تطلق على سائر العدنانية فيقال : قيس ويمن (١) .

ومن قيس انحدر كعب وعمرو وسعد ، فأنجب سعد غطفان فعرفت هـذه القبائل واشتهرت باسمه - فولد لغطفان ريث وعبد العزى (٢) فكان لريث من الولد « أهون ومازن وأشجع وبغيض » وقد أكثر شعراء القبيلتين من ترديد اسم بغيض في قصائدهم متوخين تذكير القوم برابطه الدم والقرابة لأن بغيضاً كان أباً لعبس وذبيان وأنمار .

---

(١) الشعر والشعراء ٢ / ٧٥٢ ابن حزم جمهرة أنساب العـرب ص ٢٥٣ وما بعـدها . والبكري معجم ما استعجم ص ١١٧٨ وعمر رضا كحالة معجم قبائل العرب ٢ / ٧٢٨ مادة قيس عيلان .

(٢) بدل اسمه رسول الله (ص) الى عبد الله فعرفوا بعد ذلك بعبد الله ابن غطفان . انظر ابن حزم جمهرة الانساب ص ٢٤٨

قال نابغة بني ذبيان (١) :

صبراً بغيضَ بنَ ريثٍ انها رَحِمٌ
حُبتم بهــا فأناختكم بجَعجَاعِ

وقال قيس بن زهير (٢) :

فيا ابنيْ بغيضٍ راجعا السَلمَ تَسلما
ولا تشمتا الأعــداءَ يفترقِ الشَملُ

وهو كثير :

ومن بني أنمار فاطمة بنت الخرشب الأنمارية التي ولدت الكملة من بني عبس ، وهم الربيع بن زياد العبسي وأخوته ، وقد كانت لهم مواقف مشهورة في هذه الحرب :

أما ولد عبس ، فمنهم قطيعة الذي أنجب رواحة أبا جذيمة أبا زهير رئيس عبس الذي استطاع أن يتزعم غطفان كلهــا ويفرض سلطانه على القبائل المجاورة ، وقــد خلفه في السيادة أولاده الذين قتــل بعضهم في هذه الحِرب - وهم قيس بن زهير العبسي ، شاعر الحرب وفارسها ، والحارث أخوه المقتول في يوم عراعر على يد بني كلب ، وشأس بن زهير ، ومالك ابن زهير الذي قتل في بداية حرب داحس ، وعوف بن زهير قتلته ذبيان أيضاً ، وغيرهم ممن آثرنا عدم ذكرهم لأنهم لم يرد

---

(١) الديوان ص : ٢١٦

(٢) المفضل بن سلمة - الفاخر ص : ٢٢٢ والميداني مجمع الامثال ٥٨/٢

لهم ذكر في هذه الحرب (١) :

وأما ولد ذبيان فهم الطرف الآخر في هذا النزاع ، وينحدرون من فزارة بن ذبيان القبيلة التي وقع النزاع حول السبق في أراضيها - وأنجب فزارة عديا الذي أنجب ثعلبة ، وكان منهم بنو بدر بن عمرو بن لوذان بن ثعلبة وهم : حذيفة ابن بدر الفزاري صاحب الرهان مع قيس بن زهير العبسي وحمل بن بدر الفزاري وكلاهما قتلا يوم « جفر الهباءة » - ومالك وعوف ابنا بدر اللذان قتلا في أمر هذه الحرب أيضاً والحارث وربيعة وزبان وزيد أبناء بدر الفزاري ، ومن ولد حذيفة بن بدر حصن الذى أخذ الرئاسة بعد مقتل أبيه ، أما حمل بن بدر فلم يعقب (٢) :

وكان لفزارة بن ذبيان أخ يدعى سعدا كان لقبيلته شأن عظيم في الحرب ، فقد ساهمت لتنصر اختها فزارة ضد عبس ثم لتشترك فيما بعد مع الداعين الى الصلح والسلم وتدفع ديات القتلى من مالها عندما عجزت عبس عن دفعها ، ومن أولاد سعد هذا عوف وابنه مرة ، ومنهم سنان بن حارثة وابنه هرم ابن سنان المرى : وبنو يربوع بن غيظ بن مرة بن سعد بن

(١) الاغاني ١٦ / ١٩ و ٢١ والمعبر ص ٣٩٨ والاشتقاق ص ١٦٩ .

(٢) ابن قتيبة . الشعر والشعراء ٢ / ٧٥١ وابن حزم جمهرة الانساب ص ٢٥٣ .

ذبيان ، رهط النابغة الشاعر وعمه ضمضم بن ضباب الذي قتله عنترة العبسي ، وابنه هرم بن ضمضم الذي قتله ورد بن حابس العبسي ابو عروة الشاعر المعروف بعروة الصعاليك ، والحصين بن ضمضم ، وهاشم بن حرملة أحد أسياد غطفان (٢) :

هذا وقد توخيت الايجاز في ذكر الأنساب لأنني حاولت الوقوف عند الأشخاص الذين شاركوا في الحرب مشاركة فعالة ، وكانت صلتهم بها صلة مباشرة .

منازلهما (٢) :

كان مجتمع شبه الجزيرة العربية وما يزال موضع بحث ودراسة من القدماء والمحدثين ، وقد اتسعت دراساتهم حتى شملت الجزيرة العربية نفسها من الناحية الجغرافية بكل فروعها ولم يهتم بهذه الدراسات العرب أنفسهم وحسب ، بل أن الأمر لقي اهتمام المستشرقين والأجانب فأخذوا يبحثون وينقبون محاولين أن يصلوا إلى شيء من الحقيقه يزيل عن وجه

---

(١) المصدران السابقان .

(٢) اعتمدنا في دراستنا لمنازل القبيلتين كتاب البكري - معجم ما استعجم والهمداني - صفة جزيرة العرب وياقوت - معجم البلدان والاصخري - الممالك والمسالك ، وعمر رضا كحالة - معجم قبائل العرب ،

التاريخ ركام القرون الماضية ، لاسيا أن العصر الجاهلي لم يبق منه ما يمكن الركون اليه سوى القليل من المصادر .

ولقد وصلت هذه المصادر الينا وهي لا تخلو من مواضع شبهة : ونحن نرى أن الباحثين يحاذرون أو على الاقل يتحاشون الوقوع في مهاويها ، لئلا تقودهم إلى خطأ ربما تنبني عليه أحكام ذات خطورة ، لا يلبث أن ينكشف لنا عدم جدواها ان عاجلا أو آجلا : وذلك حينما يزيح العاملون الغبار عن وجه التطور : ومتى استطعنا أن نستنطق التاريخ بما لدينا من المصادر والمظان ، ومافي بطون الرمال من الدفائن والآثار ، فاننا سنضع أقدامنا على أرض صلبه ، وعندئذ نستطيع أن نغذ السير لنصل إلى الحقيقة المنشودة .

لقد مضت أمم قديمة ، لكنها خلفت وراءها آثاراً أعطت فكرة عن حضاراتها وأماكن ازدهارها ، وما حضارة وادي النيل ووادي الرافدين بغائبتين عنا اليوم ، تشهد علي قيامهما هذه الآثار العظيمة الباقية : وكذلك الأمر مع حضارات العالم القديم المنتشرة في جهات مختلفة من المعمورة . ولقد درست جميعها دراسة علمية ثابتة حتى بات في مقدورنا أن نتصورها بشكل يقربها من واقعها ـ لكن الأمر مع عرب شبه الجزيرة مختلف جداً ، فقد اندثرت منازلهم التي لم تكن إلا بيوتاً من الشعر أو الطوب تقتضيها طبيعة حياتهم غير المستقرة : على أن

القصيدة الجاهلية ضمنت لهذه المنازل خلوداً باقياً مع الزمن ، وهو الأثر الوحيد للذي منه نترسم خطا الدراسه :

ان ما يعنينا في بحثنا هـذا من شبه الجزيرة هو قلبها ، أو بعباره أدق تلك الهضبة التي نطلق عليها اسم « نجد » وتسمى أيضاً العارض وهي سلسلة واحات تتوسطها جبال ، على أن أهم ما يعنينا من هذه الهضبة سلسلتان متوازيتان تدعيان سلسلتي جبال أجا وسلمى (١) تقعان في الشمال من هذه الهضبة - وعلى سفوح هذين الجبلين وفي وديانها والأرض المبسوطة حولهـا انتظمت جميع للقبائل التي ساهمت في حرب داحس التي نعكف على دراستها ، ولعل طبيعة البحث تدعونا الى أن نتطرق الى هذه القبائل ونثبت أماكنها لأنها كثيراً ما تذكر في هذه الحرب بل تكاد تكون جزءاً هاماً منها ومتمماً لها :

وجبلا « أجا وسلمى » الكائنان في الشمال من اقليم نجـد يتحـــدد موقعهما بالنسبة لشبه الجزيره في الشمال الغربي ، أما القبائل القاطنة في كنف هذين الجبلين فان موقعها يتحدد بالنسبة اليه - فقبيلة « طي » تسكن الجبلين نفسيهما ، ويجاورها بنو أسد فيما يلي « الكرخ » من نجد وهي قبيلة لها مع ذبيان شأن يذكر أما بنو تميم فتنحصر بلادهم من نجـــد في المنطقة المشتملة على « البصرة واليمامة » وانتشرت الى للعذيب من أرض « الكوفة »

(١) يدعيان الآن جبل شمر ، وانظر ياقوت معجم البلدان ١ / ٩٤ .

في العراق بينما استوطنت قبيلة بني ضبة الى جوار بني تميم في أرض « تهامة » شمالي نجد (١) . وقبيله بني عامر التي كان لها أكبر الأثر في حياة العبسيين ، هـــذه القبيلة الكبيرة ترجع في الجاهلية الى ربيعة ، وأرضهم في نجد الموالية « لتهامة » بالمدينة ثم ارتفعوا الى الشام ، وفي الاسلام تفرقوا في ممالكه خـــلال الفتوحات فلم يبق منهم في أرضهم بنجد احـد (٢) . نضيف الى هؤلاء جميعـــاً قبـــائل الرباب التي جـاورت بني تميم « بالدهناء » (٣) .

اننا بتثبيتنا لأماكن هذه القبائل في هـــذا الجزء من شبه الجزيرة ، نلتمس لقبيلتينا عبس وذبيان ايضاحاً يقربها من ذهن القارىء لكي يرى أثر هذا الجوار في توجيه هذه الحرب واذكاء نارها ، فاننا وجدنا لهـــذا الجوار آثاره السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفي العلاقات العامة بين القبائل .

وغطفان قبيلة كبيرة ذات شعوب متعـــددة . وأفخاذها ثلاثة : أشجع بن ريث بن غطفان وعبس وذبيان ابنـا ريث

---

(١) وفي الاسلام انتقلوا الى النعمانية في العراق وهناك قتلوا المتنبي الشاعر / انظر عمر رضا كحالة معجم قبائل العرب ٢ / ٧٤٠ .

(٢) كحالة - المصدر نفسه ٢ / ٧٤٠ .

(٣) سموا الرباب لأنهم غمسوا في الرب أيديهم في حلف مع بني ضبة ينظر ابن خلدون ، المقدمة ٢ / ١٣٥ .

ابن غطفان : ومنازل غطفان بنجد في وادي الرمة مما يلي جبل طى ، ومن مناطقهم « الهباءة » ، الأرض التي دارت عليها المعركة المعروفة باسمها وهي احدى معارك هذه الحرب .

أما قبيلة عبس فالقدماء حددوا مواقعها في المنطقة المحصورة بين « ابانين والنقرة وماوان والربذة (١) » وهذه المنطقة هي « القصيم » ونواحيه : أما ابانان (٢) ، فجبلان عظيمان أحدهما يدعى « أبان الأبيض » ، تسكنه عبس ، والآخر « أبان الأسود » لبني أسد ، وهما غربي « القصيم » :

أما « النقرة وماوان والربذة » فهي كما يذكر مياه قريبة من بعضها : تجري في الشمال من نجـــد وتبعد عن المدينة من جهة الشرق مسيرة ثلاثة أيام للابل (٣) : ويمر بين « ابانين » واد كبير معروف بنجـــد يدعى (٤) « الرمة » يرتبط بأسفل « القصيم » وهو رمل لبني عبس « فابان الأبيض » والجبال

---

(١) ابن السكيت ـ شرح ديوان عروة بن الورد ص ٣٩ والبكري معجم ما استعجم ص ١١٧٨ وياقوت معجم البلدان ٤ / ٧٨ .

(٢) ما يزالان يعرفان اليوم بالاسم نفسه .

(٣) المصادر السابقة وخالفهم ياقوت الحموي فى معجم البلدان ١ / ٦٢ حيث ذكر أن ابان الابيض لبني فزارة ثم لبني جريد منهم وابان الاسود لبني أسد والصحيح ما ذكره ابن السكيت والبكري .

(٤) ياقوت ١ / ٦٢ .

المعروفة « بقطن » تحد الجهة الغربية من منازل عبس ووادي «اثال» من الشمال ورمل «زرود» المتصل برمل عالج «الدهناء» من الشرق واقليم «السر» من الجنوب . واذا توخينا ايضاح موقعهـا بين القبائل المجاورة التي ذكرناها آنفاً لكي تكتمل أجزاء الصورة المطلوبة ، يكون موقعها ديار «القصيم» ونواحيه ويجاورها شمالا - أما غربا فبنو اسـد وشرقا بنو تميم وجنوبا بعض قبائل قيس عيلان وبنو عامر وغيرهم ، فهي اذن شرق المدينة المنورة ، وجنوب جبال طي (١) :

أما قبيلة ذبيان فانها كانت ترتفع بأراضيها نحو الشمال الغربي من شبه الجزيرة حتى بلاد الشام ، في واد يسمى الشربة وهو مع وادي الرمة يصلان بين مكة والايلة فيخترقان نجـدا وكانت غطفان تسكن المناطق الشمالية من هذا الوادي ، وتسكن ذبيان المناطق الشمالية الغربية منه (٢) :

وأما موقع القبيلتين من بعضهما ، فقد كانت ذبيان تقع في الجهة الغربية من منازل عبس ، فهما قبيلتان متجاورتان تتداخل أراضيهما . وقد نجم عن هذا الموقع الجغرافي أكبر عامل أثر

---

(١) البكري - معجم ما استعجم ص٥٠٣ ، وياقوت - معجم البلدان ٧ / ١٣٠ ، وابن السكيت - شرح ديوان عروة « البيت الاول من القصيدة الخامسة » .

(٢) المصادر السابقة .

في طبيعة الحرب الدائرة بينهما . وكان هذا العامل حاسما ، فقد لاحظنا أن عبسا كانت محاطة من جميع جبهاتها باحلاف ذبيان من طي وأسد وتميم وضبة والرباب ، والى غربها ذبيان نفسها ، والى الجنوب بنو عامر وكانت تعادي عبسا وتحسدها بسبب هيمنة زهير بن جذيمة العبسي على هوازن كلها وعامر منهم . وازاء هذا الضغط الموجه من ذبيان وتميم وأسد وطي ومن بني عامر في الجنوب ، لم تجد عبس إلا أن تترك أرضها واضعة أقدامها في صحراء شبه الجزيرة حيث يمكنها الكر والفر على طريقة العرب ، ولكي لا تأكلها ذبيان وجاراتها - وسوف نرى أن ذبيان بما تملكه من قوة في المال والجاه استطاعت أن تؤلب على هذه القبيلة كل قبائل نجد اينما نزلت وحيثما حلت فلم تجد لها مفراً من الحلف مع بني عامر بعد مصالحتها ومسالمتها وللسكن الى جوارها ، وبهذا انطفأت احدى جمرات العرب (١) .

• • •

(١) كانت العرب تسمي القبيلة التي لا تدخل في حلف مع غيرها جمرة فان تحالفت انطفأت جمرتها وقد انطفأت جمرة عبس عندما دخلت في حلف مع بني عامر . انظر العمدة ٢ / ١٨٨ .

العلاقات بينهما :

عرفنا قبل قليل أن نسب القبيلتين واحد ، فهما أبناء عم كان يربطهما العرف البدوي وتسود فيهما قوانين القبيلة ، وأن تاريخ القبيلتين يخبرنا أنهما كانتا تدينان بأحسن الولاء لقوانين القبيلة وعرفها البدوي ، فكانت كل قبيلة منهما تهب لنصرة أختها ، وما أكثر وقوفهما جنباً إلى جنب في صد غارة أورد غزوة (١) شنتها قبيلة مجاورة . على أن ذلك كله لا يتعدى دافع الدم الواحد ، لأن دراسة هذه الحرب أمدتنا بطبيعة العلاقات الداخلية ، وما كان يتأجج في نفوس القوم من أحقاد وحزازات وتنافس بسطناها في أسباب الحرب من الفصل القادم . وهذه الأحقاد لها جذورها العميقة في التاريخ ، غطتها قوانين الصحراء التي أوجبت أن تخضع لها القبيلتان - ، ثم استجدت ظروف مبعثها طبيعة التطور والنمو في المجتمعات أدت الى فرقة قوية وأزمة حادة وجدت متنفسها في سباق بين فرسين لتشتعل الحرب بين الشقيقتين الكبيرتين في أسرة الأشقاء بأرض غطفان .

---

(١) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ٢ / ٧٥٢ وفيه خبر الغارة التي سبت بها جشم عبساً فنصرتها ذبيان ، وقتل في هذه الغارة عبد الله بن الصمة أخو دريد بن الصمة .

والقبائل العربيـة في أراضيها وحدودها تشبه أن تكون جمهوريات متفرقة ينتظمها شبه الجزيرة : ومـع أن التاريخ يحدثنا عن حـدود غير ثابتة تقع ضمن نفوذ الامبراطورية الساسانية والتي عرف هذا الجزء منها بمملكة المناذرة ، وعن أخرى يصل اليها نفوذ الامبراطورية الرومانية حليفة البيزنطيين والتي عرفت باسم الغساسنة ، ويحدثنا التاريخ عن مملكة عربية أخرى تدعى كندة ، فان ذلك لا يغير من الواقع شيئاً ، وهو أن هذه القبائل على الرغم من تيارات السياسة الخارجية التي تقسم العالم منذ ذلك الزمان ، لها كيانها في أراضيها ، ولم يتحكم في ذلك الكيان وعلى تلك الأرض أحـد سواها - لكننا ننظر الى تباين هذه القبائل بالنسبة لبداوتها وتحضرها وبمقدار ماتأخذه من روح العصر والتمدن ، فنحن نعرف أن شبه الجزيرة خضع لتقسيم عام يدرس على أساسه طبيعة البلاد الجغرافية والاقتصادية والسياسية وما سوى ذلك من العـلوم والآداب ، فقالوا أن حضارة بلاد العرب الجنوبيـة حيث كان المناخ أكثر ملاءمة للزراعة ، ازدهرت منذ الألف الثاني قبل الميلاد فانشأت السدود وشيدت القصور والهياكل التي ما تزال قائمة حتى اليـوم في تلك الأصقاع (١) : وحضارة مثل هذه وما رافقها من الأعمار

(١) بروكلمان - تاريخ الشعوب الاسلامية « العرب والامبراطورية العربية » ١ / ١٣ .

والتنظيم لا بد أن ترافقها حياة اجتماعية متطورة منظمة ، واقتصاد ترسو اسسه على خطة مدروسة .

أما القسم الآخر وهو شمال الجزيرة فالصفة الغالبة عليه صحراويته ، وهي في رأي « ولهـا وزن (١) » هي التي تقرر أحواله الاجتماعية ، فان شح الماء والطعـام واللباس وأشتات المراعي الصغيرة المتباعدة حددت للناس في هـذه البقاع نوع العلاقات الاجتماعية والاقتصادية التي يرتبطون بها ، أو بعبارة ثانية حددت لهم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية التي ترسم لهم حياتهم ومعاشهم في سلمهم وحربهم : وقـد رأينا أن حضارة الجنوب سمحت له بأنواع من العلاقات المتطورة مـع تطور الذهنيه البشرية حينئذ ـ فمدن الجنوب وما يحيط بها من قرى وقصبات تستطيع أن تدخل مع بعضها في روابط اقتصادية واجتماعية وكذلك مع العالم الخارجي ، لأن تبادل المنفعة قائم بين الأطراف بقيام الزراعة والتجارة والصناعة وكل طرف يعطي ويأخذ وفق اتفاقات : لكن الأمر مع قبائل الشمال وأكثر مدنها مختلف جداً بل حتى المدن التي اشتهرت بتجارتها فانها لا ترقى الى ما بلغته مدن الجنوب : فاذا لم يكن في أيدي قبائل الشمال ما يفيض عن حاجتها لتعطيه ، ولم يكن في يد جاراتها ما يمكن التعامل به في بيع أو شراء ، واذا لم يكن من العمران

(١) المصدر السابق ١ / ١٣ .

والصناعة ما يميز بعضها على بعض ، فأية علاقات اجتماعية يجب ان تنتظم الجميع ؟ ! لقــد ساد الجميع نظام اجتماعي واحـد وعرف قبيلي واحد يعتبران بمثابة العلاقة التي تربط قبائل عرب الشمال كلهم ولا نريد أن نتوسع لنفصل لكننا نختصر الطريق لنصل الى بغيتنا فنقول ، ان النظــام الرئاسي في القبيلة كان شائعاً آنذاك وكان الثأر قانون البداوة السائد ، ولعله من ادعى أسباب هذه الحروب الأهلية التي حرب داحس احداها - ونحن لا نستطيع أن نقر لقبيلة قوانينها وعرفها دون أن نجدها مدونة أو مروية أو في اشعارها ان توفر ذلك . فاذا كانت هــذه العلاقات التي تربط الأفراد والأسر والجماعات والقبائل في مجتمع شبه الجزيرة ، وبخاصة الشمال واحـدة فأحرى بها أن تكون هي نفسها العلاقات الاجتماعية التي تضم اليهــا جميع الناس ان حرباً أو سلماً .

وباختصار أكثر نذهب الى العامل الاقتصادي في ارتباط الناس ، فنجد أنهم كانوا معدمين حتى لم يكن لديهم مايكثرون منه سوى الجمل الذي عرف بشدة مقاومته لهذا الجفاف الشديد ولن يهمنا ما يجده البدوي من غضاضة أو ثلب في تربية الماعز والأغنام ، ومن شرف أو سيادة في رعي الابل واقتناء الخيل فان ذلك مرده الى عامل اجتماعي بيئي تفسره الظاهرة نفسها والا فمن أين لراعي الغنم أو الماعز والماشية من المراعي مايسد

بها حاجتها الى الكلأ ؟ ثم أين احتمالها لطبيعة الصحراء الجافة في حين اشتهر الجمل بالصبر واحتمال البقاء على الجفاف وسهولة الاغتذاء : ان هذا يعطي نوع الروابط الاقتصادية التي سوف تجمع هـذه القبائل الى بعضها أو تبعـدها عن بعضها ، وهو الذي وقع فعلا :

وعبس قبيلة في شمال الجزيرة ، وكذلك ذبيان ، وان ما تعانيه عبس من ضغط العامل الاقتصادي عليها تعانيه اختها وجارتها ذبيان ، فالقبيلتان متشابهتان فى طبيعـة مجتمعيهما متساويتان في الرزق ، وإذا كان ثمة تفاوت فهو ضئيل ولو ان ضآلته هذه كانت سبباً لغارة أو حرب في يوم من الأيام .

وليس في المصادر ما يذكر أن عبسا اغارت على ذبيان أو أن ذبيان أغارت على عبس قبل حرب داحس ، انما الذي وجدناه خلاف هذا ـ وجدنا أن ذبيان تثأر لعبس عندما تغير عليها قبيلة أخرى ، ووجدنا أن رجالهم كانوا يرتبطون مع بعضهم في علاقات اجتماعية طيبة ، ليس دافعها القرابة الدموية فحسب بل صداقة حميدة تشد من تقاربهم وتجمعهم الى بعضهم فعندما يقوى النزاع بين القبيلتين يحاول الربيع بن زياد العبسي أن يذكر حذيفة بن بدر الفزاري رئيس ذبيان بصداقة أبويهما القديمة ، ويمن عليهم انه طالما دافع ضد أنواع العدوان الذي

تعرضت له فزارة وبنو بدر فيقول (١) :

الا ابلغْ بني بدرٍ رسُولاً   على ما كانَ مِن شَنأٍ ووتِرِ
بأنيَ لم أزلْ لكُم صديقاً   أدافِعُ عن فزارةَ كلَ أمرِ
أسالمُ تَسلمكم واردُ عنكم   فوارسَ أهلِ نجرانٍ وحُجرِ
وكان أبي ابنُ عمكم زيادٌ   صفيَّ ابيكمُ بدرِ بنِ عمرِو

وعندما تتأزم العلاقة بين العبسيين أنفسهم وتبلغ حد الغارات على الأهل والأخوة ، فان قيس بن زهير يلتحق ببني ذبيان مستجيراً بهم شاكياً ظلم اخوته مذكرا بني بدر والذبيانيين بروابط حسن الجوار والقرابة والدم ، بل هو يعطيهم العذر مسبقاً ان هم رفضوا جواره لأنهم أهله واصدقاؤه ، في حين يصبح عاراً رفض الآخرين أجواره (٢) فيقول :

أسيرُ الى بنِي بدرِ بأمرِ   هو فيه علينا بالخيارِ
فان قَبلوا الجِوارَ فخيرُ قومِ   وان رفَضوا الجِوارَ فغيرُ عار

ثم يقول :

وان نُفَردْ بحربِ بني أخينا   بلا جارٍ فانَّ اللهَ جاري

وكانت ذبيان تعتبر ما يلحق عبسا من عار أو ثار انما هو عارها أو ثارها ، وحتى عندما يكون الأمر لصالحها فانها لا تتردد عن الثأر - فعندما قتل زهير بن جذيمة الذي ذاقت

---

(١) ابن الاثير - الكامل ١ / ٣٤٥ .

(٢) المصدر نفسه ١ / ٥٥٦ .

غطفان وهوازن المر على يديه وانتظرتا ساعة الخلاص لتكون رئاستهما فيهما ، هب الحارث بن ظالم المري أحد فرسان بني ذبيان ومن فتاك العــرب يطلب ثأره ولما قيل له ان قاتله استجار بالملك النعمان قال « اقتله ولو كان في حجره » وقتله (١) . وحتى عنــدما تشتد الخصومة بين الطرفين نجــد العبسي يثأر للذبياني من قاتليه على الرغم من أن القتل فيهم ملتهب ـ فهذا قيس بن زهير يظفر بابن الخمس فيقتله بالحارث بن ظالم (٢) وهكذا نجد أن العلاقات بينهما كانت متسمة بالطابع البدوي وهو الدم والجوار برغم ما كان بينهم من تحاسد وتقاتل خفيين على عرش غطفان وبخاصة بين أبناء زهير بن جــذيمة وأبناء بدر بن عمرو :

أما علاقاتهم الاقتصادية فتنحصر في حيوانهم ومياههم ومناطق رعيهم وأراضي السكن والزراعة ، وان كانت الأخيرة لا تأخذ الشكل الذي أخذته في حضارة جنوب البلاد ، وتشمل التجارة حضور الأسواق الموسمية منها والدائمة ، وربما وجدت بين القبيلتين كما بين القبــائل الأخرى مبادلات في البضائع المختلفة .

أما المياه ومناطق الرعي والسكن والزراعة فانها معروفة

---

(١) المصدر السابق ١ / ٥٥٦ طبعة بيروت .

(٢) المصدر نفسه .

فعبس تعرف آبارها ومياهها ويعرفها غيرها من القبائل . فاذا ذكرت «النقرة وماوان والربذة» (١) قيل مياه لبني عبس واذا ذكر «قطن» (٢) قيل جبل لبني عبس واذا ذكر القصيم (٣) قيل رمل لبني عبس ، ومثل هـذا كثير واحصاؤه سهل لكن الصعوبة تحديد مواضعه وتثبيتها ، وبرغم اتفاقهم على مواضع المياه والرعي والسكن والتنقل فقد كانوا يتقاتلون على بعضها عندما تدعيه كل منهما لنفسها .

وقبل هذه الحروب كان الصفاء يسود علاقة القبيلتين ، فلم نجـد في الاخبار ما يشير الى حدوث الغارات بينهما ، واذا حدثت غارة فانها تشن بعد سبب مباشر قوي ، كأن يسرق شخص ابل آخر فيغير هذا على قوم السارق لكي يستاق بعض ابلهم ، ومع هذا فقـد كانت تحدث بشكل ضيق بين الأفراد والأسر القليلة ، ولكن بعـد الحرب صارت الاغارة جماعية خاصة بعـــد أن ساءت العـــلاقات الاجتماعية ، فساءت معها العلاقات الاقتصادية ـ ومن يتصفح قصة الحرب يجد في ثناياها

---

(١) البكري ـ معجم ما استعجم ١١٧٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٦٤ وقال احد الرجاز :

أينَ انتهى بِي يا ابنَ صمعاءَ السَنَنْ

ليسَ لعبسٍ جبلٌ غيرَ قطَنْ

(٣) المصدر السابق ١١٧٨ ١ / ٥٥٦ طبعة بيروت ،

أخباراً كثيرة عن استياق ابل جماعة أو اغارة جماعة على أخرى يسكنون في مواضع معينة من القبيلتين .

وكانت هذه الظاهرة قبل الحرب نادرة ولم تجدها في شعرهم ، بل وجدنا حسن الجوار وطيب العلاقة تدور في أشعارهم الى ان لاحت نذر الحرب :

ومن أبيات قيس والربيع المذكورة قبل قليل عرفنا أن أبناء القبيلتين كانا يمران بأرض بعضهما دون أن تقع أحداث مثل التي تقع لو مروا بأرض قبيلة أخرى حيث يتعرض البدوى على يد أولئك الأعراب للقتل أو السلب (١) :

وخلاصة القول ان هذه القبائل التي كانت في أراضيها تشعر بلا مركزية متناهية وهو شعور الاستقلال في نفس البدوى وان كانت هذه اللامركزية تسعى أحياناً نازعة نحو تركيز السلطة ، وقد تجلى ذلك في أحلافها ومنح القيادة فيها الى رجل واحد كما فعلوا يوم اقتاد الأحلاف حصن بن حذيفة في حرب جبلة . وكما اندمجت كثير من القبائل ببعضها متخلية عن كثير من سماتها كأنها بذلك ساعية الى ما يشبه الوحدة الكبيرة في الكيان القبيلي على الرغم من ان اسباباً أخرى تكمن

---

(١) الجاحظ البيان والتبيين ٣ / ٩ وبروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية (العرب والامبراطورية العربية) ١ / ١٦ .

وراء هذا الأندماج (١) ..

وقبائل هذا شأنها من التفرق والتباعد لا يمكن أن تقوم بينها علاقات اجتماعية واقتصادية ذات طابع انساني متحضر ، وانما يلفهم بنطاقه قانون الصحراء الذي رعته وأوحته قسوة البيئة وفق ما تقتضيه طبيعة الحياة .

• • •

منزلتهما في المجتمع الجاهلي :

لم اقف على كتاب يبحث في مكانة القبيلتين عبس وذبيان ومنزلتهما في مجتمعهما آنذاك ، لكننا نستطيع أن نجمع النصوص الى بعضها فتكون مادة تعطينا بعض الضوء فنهتدى الى مانريد بيانه ، ولقد ظهر من هذه النصوص أن منزلة القبيلتين كانت في نظر العرب مرموقة لشجاعتهما وبلائهما في حربهما وهي الصفة التي كانت تنظر منها العرب الى القبائل ويكون للتقويم الاجتماعي وفقها . ففي الأغاني (٢) ان بني عامر ارسلوا عيناً يستطلع لهم قوة اعدائهم من عبس وذبيان فرجع وقال : أرى قوماً

(٢) الأغاني ٩ / ٣٤٢ وابن حزم - جمهرة الانساب ص ٢٥٧ - ٢٧٨ - ٢٩٦ وجواد علي تاريخ العرب ١ / ٣٥٢ .

(١) الأغاني ١ / ٣٠٣ .

كأنهم الصبيان على متون الخيل ، أسنة رماحهم عند آذان خيلهم قالوا : تلك فزارة . قال : وأرى قوماً بيضاً جعادا كأن عليهم ثياباً حمرا . قالوا تلك أشجع قال: وأرى قوماً نسورا قد علوا خيولهم آخذين بعوامل رماحهم يجرونها قالوا : تلك عبس أتاكم الموت الزؤام . أما هوازن فقد وصفت لهم القبائل القادمة فلم يحسبوا لها شيئاً الى أن قال لهم ربيئتهم : أرى قوماً أدمانا كأنهم يحملون الجبل بسوادهم يخدون الأرض بأقدامهم وخدا وهم يجرون رماجهم جرا . قالوا : تلك عبس والموت معهم (١) .

ومما يدل على علو مكانة العبسيين التجاء النعمان بن المنذر اليهم اول حرب ذي قار (٢) عندما خذلته بعض قبائل العرب فلم ينجده إلا العبسيون فقال زهير بن ابي سلمى يمدحهم (٣) :

سوى أنَّ حياً من رواحةَ اقبلُوا
وكانوا قديمــاً يتقــونَ المخازيــا
يسيرون حتى حبَّسوا عنــدَ بابِــه
ثقالَ الروايا والهجــانِ المتاليــا
فقال لهم خــيرا واثنى عليهــم
وودعهــم وداع أن لا تلاقيــا

(١) انظر أيام العرب ـ لجاد المولى ١ / ٢٨١ و ٢٩٤ .

(٢) أيام العرب لجاد المولى ١ / ٢٢ و ٢٣ .

(٣) ديوان زهير بن ابي سلمى ص ٢٩٠ .

وليس عبثاً ان تكون عبس احدى جمرات العرب فذلك يغني بأسها وقوتها واكتفاءها بنفسها . ولم تنطفىء الجمرة الا بعد أن تحالفت مع عامر ودخلت في أرضها وكانت قبلها صبرت لقيس وقارعت القبائل كلها فسميت جمرة (١) :

واما ذبيان فان اشعار زهير بن ابي سلمى فيها كثيرة مشتهرة وقد اورد ابن خلدون (٢) ما نصه : « وفي كتاب الأغاني في اخبار عويف القوافي ان كسرى قال للنعمان بن المنذر هل في العرب قبيلة تتشرف على قبيلة قال نعم قال « بأى شيء » قال « من كان له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ثم اتصل ذلك بكمال الرابع فالبيت من قبيلته » ، وطلب ذلك فلم يجده الا في آل حذيفة بن بدر الفزارى وهم بيت قيس وآل ذى الجدين بيت شيبان وآل الاشعث بن قيس من كندة وآل حاجب بن زرارة وآل قاسم بن عاصم المنقرى من بني تميم ، فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من عشائرهم واقعدوا لهم الحكام والعدول فقام حذيفة بن بدر ثم الأشعث بن قيس ثم بسطام بن قيس ابن شيبان ثم حاجب بن زرارة ثم قيس بن عاصم وخطبوا

---

(١) الثعالبي ثمار القلوب ص ١٦٠ وابن حزم جمهرة أنساب العرب ص ٤٨٦ .

(٢) المقدمة ، ص : ١٣٨

ونثروا . فقال كسرى كلهم سيد يصلح لموضعه :

وليست هذه الشجاعة بعيدة عن عبس وذبيان ولا جديدة عليها ، فلو أننا رجعنـــا الى التاريخ لوجدنا أن غطفان وهي القبيلة الأم لهاتين القبيلتين كانت ذات شأن وخطر في شبه الجزيرة فهي عندما خرجت من ارضها في تهامة حاولت أن تتصدى لها القبائل الأخرى لتأكلها قبل أن تجد لهـا مكاناً في نجد ، لكنها استطاعت ان تظهر على جميع القبائل وفتكت ببعضها فتكاً ذريعاً فلما وجدت مكانها ثابتاً ومنزلتها مرموقة اخذت تطمح لتبلغ ما بلغته سواها من قبائل العرب ذات السيادة والثروة - فاتخذت لنفسها حرما كالذي بمكـة وصانته فلا يقتل صيده ولا يهاج عائذه ، وصار بنو مرة بن عوف أحد فروع غطفان اولياء لهذا الحرم وظل قائماً حتى أغار زهير بن جناب الكلبي مـــع قومه وقبائل العرب فاجتاحه وانتصر عليهم . ولو لم تكن هذه الغارة لكان للحرم ذكر أوسع في التاريخ : واشتهر هذا الحرم باسم بُسّ ، ورد في بيت شمر للحصين بن الحمام المري (١) :

وقـد جرتهم هـذه الشجاعة وهذا الحسب الى المفاخرة ، وهي ظاهرة دلت على مكانة القبيلة لأن المتفاخر يجب أن تكون له من المفاخر ما يمكنـــه احصاؤها والتفوق بها على القوم الذين

---

(١) ابن الاثير - الكامل في التاريخ ١ / ٥٠٣ طبعة بيروت . والاغاني ١٤ / ٩ مصورة عن دار الكتب والقاموس المحيط مادة (بس) .

يفاخرهم . وكان قيس بن زهير يفاخر قريشا حتى قال لهم : نحوا عني كعبتكم وحرمكم وهاتوا ما شئتم . فقال له عبد الله بن جدعان القرشي اذا لم نفاخرك بالبيت المعمور وبالحرم الآمن فبم نفاخرك ؟ فمل قيس مفاخرتهم وكرهوا مفاخرته فعزم على الرحلة عنهم وصرذلك قيسا فقال لقومه : « ارحلوا بنا من عندهم أولا والا تفاقم الشر بيننا والحقوا ببني بدر فانهم اكفاؤنا في الحسب وبنو عمنا في النسب وأشراف قومنا في الكرم » وقد نجا قيس من مفاخرة قريش فتورط بمفاخرة مع بني بدر نتجت عنها حرب اهلكته وقتلت الصفوة من قومه ، وكانت المفاخرة هذه المرة على فرسين ايهما اسبق واجود (١) :

وكان الفخر يجري على ألسنة شعرائهم وخطبائهم بشكل يفوق الحصر . وقد حملت هذه الافاضة القدماء على أن يكتبوا ويفيضوا في الكتابة ـ فقد جاء في أنساب الاشراف للبلاذري (٢) « ان النبي (ص) قال : مزينة وجهينة واسلم وغفار خير من تميم وأسد وعامر وغطفان فقال عيينة ابن حصن بن حذيفة الفزاري (٣) : لأن اكون مع هؤلاء في النار أحب إلي من أن

(١) المصدر السابق ١ / ٣٤٥ .

(٢) أنساب الاشراف ٥ / ١٠٠ .

(٣) كان الرسول (ص) يسميه الاحمق في دينه المطاع في قومه المصدر السابق وابن حزم جمهرة الأنساب ص ٢٥٣ ،

اكون مع اولئك في الجنـــة فقالت ابنته (١) عندما بلغها ذلك : والله ما ابعـــد ابي : وفي جمهرة أنساب العرب لابن حزم (٢) أن القبائل كانت طبقات وكانت في مقدمتهم من عدنان بنو تميم وبنو عامر وبنو بكر ابن وائل ، ثم تليها في الطبقة كنانة وأسد والرباب وضبة ومزينـــة وجشم ونصر وسعد بن بكر وثقيف ومرة وثعلبة بن سعد وفزارة وعبس : : الخ وهي ليست بعظم القبائل الثلاث الأولى :

كل هـــذا يعني ان مكانة هاتين القبيلتين في مجتمع شبه الجزيرة كان مرموقاً ، وان جاء ترتيبهما في كلام الرسول (ص) وعبارة ابن حزم في المرتبة الثانية . ولا يخفى أن النبي (ص) ينظر الى الموضوع من زاوية القدم والبلاء في الاسلام ، وغطفان انحازت الى قريش في حروبها مع النبي (ص) (٣) : وابن حزم ينظر من الزاوية نفسها : فضلا عن القوة والمنعة وكثرة العدد : ويبدو أن المفاخرة بالملك كانت منـــذ العهد الجاهلي واستمرت حتى بعد الاسلام ، غير أن المفاخرة بالدين صارت تتقدم كل

(١) هي أم البنين تزوجها عثمان رضي الله عنه وطلقها في ليل حصاره المصدر السابق .

(٢) ص : ٤٨٦ .

(٣) ابن سعد ـ الطبقات ٣ / ١٠٨ الاحـــزاب وابن هشـام السيرة غزوة الاحزاب .

شيء ، واستمرت هـذه المفاخرة في العصر الأموي فصارت العصبية القبلية احـدى مقوماتها ثم انتقلت الى الأندلس . وفي العراق استغلتها الشعوبية والسياسة أبشع استغلال فصارت تؤلب القبائل العربيـة وتوقع بينهم باسم المفاخر والأمجاد . والحال أن قبائل العرب سواسية انما فرقتها الاحن في الجاهليـة وجمعها الاسلام .

ولقد بلغ من سلطان زهير بن جذيمة العبسي ان فرض على غطفان وهوازن الأتاوات يجمعها منهم كل عام (١) . وقد أصهر اليه أحـد ملوك الحيرة فتزوج أخته (٢) ، وكان للربيع ابن زياد العبسي مكانة وحظوة عنـد ملوك المناذرة يجالسهم وينادمهم . وقـد ظلت عبس على قوتها عندما تحالفت عليها عدوتها ذبيان وجاراتها فاستطاعت أن تدفع عنها غائلة القبائل مسجلة بذلك أروع آيات الصبر في احتمال الملمات والثبات في الشدائد . وفي الكتب ان زهيرا المذكور اغار على أبي الجناب زعيم تميم (٣) وانتصر عليه .

ولم تكن ذبيان أقل من عبس في الشجاعة ، ولقد بلغ من نباهة ذكرها ان نالت من الشهرة الواسعة مالم تنله قبيلة غطفانية

---

(١) الاغاني ١ / ٨ وابن الاثير ـ الكامل ١ / ٥٠٦ .

(٢) المتجردة وخبرها مشهور .

(٣) الاغاني ٢ / ٣٧٦ وابن خلدون ٢ / ١١٠ .

وكان رئيسها حذيفة بن بدر الفزاري يدعى رب معد في الجاهلية (١) ، وقد كان الغساسنة يقدرون لذبيان قوتها فيدخلون معها في أحلاف تضمن لهم سلامة قوافلهم وتجارتهم ، وقد استعرت الحرب بينهما حول موضع يقال له « اقر » في عهد حصن بن حذيفة الذي اكثرت المصادر من وصفه بعد أبيه بالزعامة وقوة الشخصية (٢) :

أهم رجالات القبيلتين :

في كتب التاريخ وتراجم الرجال حديث طويل عن شعراء نجد وفرسانها ورؤساء قبائلها يستمد منه الباحث مادته في الكتابة والبحث ، فلقد كانت هذه الهضبة قبل الأسلام وبعده مسرح أحداث كبيرة كما كانت موطناً عظيما أغنى اللغة والأدب بما جادت به قرائح شعرائها وخطبائها ، ومنها نقل المؤرخون وحمل الرواة ، فصارت بعدئذ تمد العالمين العربي والاسلامي برجال لعبوا أدواراً خطيرة في حياة الأمة ووضعوا الأسس التي قامت عليها هذه الكيانات التى ما تزال قائمة حتى اليوم .

---

(١) أبو عبيد البكري التنبيه ص ١١١ والعمدة ٢ / ١٩٣ .

(٢) الاغاني ساسي ١٧ / ١٠٥ والبيان والتبيين ٣ / ٩ وابن رشيق العمدة ٢ / ١٨٣ وانظر قصيدة النابغة في ديوانه ص : ٨٠ « لقد نهيت بني ذبيان عن أقر . . . » .

وكان هديهم بفضل هـذه اللغة الجليلة التى حفظ تراثها الشعر الجاهلي والاسلامي :

وحرب داحس التى دارت رحاها في هـذه البقعـــة من شبه الجزيرة بين قبيلتين عربيتين أوحت لشعرائها الفرسان وغيرهم بأغزر المعاني وأجمل الأساليب ، فأمدوا لغة العرب بما حفظ لهم خلودهم ، وعلى الرغم من هذا الأمد البعيد فالشعر الجاهلي مازال محتفظاً برونقه يأسر قلوب قارئيه :

واذا كان حديثنا بدأ عن رجال القبيلتين بالشعر والأدب فلا غرابة حيث أن جل رجالهم شعراء وفرسان وأصحاب رأى وحلم وكرم ، يقف على رأسهم في الشهرة وذيوع الصيت عنترة ابن شداد العبسي صاحب الثروة الشعرية والأخبار الأدبية الطوال والفارس الذى أحبته الخاصة والعامـــة ، ونسجت حوله أروع قصص البطولة وروايات الحب حتى صار لكثرة شعبيته هدفاً صالحاً للوضع والتزيد في أخباره وشعره . وزهير بن أبي سلمى وان لم يكن في نسبه منتمياً لعبس ولا لذبيان سوى أن غطفان من أخواله لكنه عد من رجال القبيلتين لمواقفه النبيلة من حربها ودعوته الى الصلح والسلم . وقيس بن زهير العبسي والنابغـــة الذبياني ، وقد عقدنا لهؤلاء المذكورين جميعهم فصلا في آخر هذه الدراسة تناولنا فيه تراجمهم وشعرهم ومواقفهم من هـــذه الحرب ، واذا كان عنترة وزهير والنابغة مشتهرين شهرة تغنيهم

عن التعريف بهم فان قيس بن زهير لم تنصفه الكتب والتراجم : وقد سبق للرواة أن ظلموه فضاع أكثر شعره ولم يصل الينا منه إلا القليل في هذه الحرب وغيرها . ومع قلته فانه ينم عن شاعرية رائعة ، فالرجل حكيم وفارس عرفت منه الشجاعة والاقدام ، فان عبسا في حروبها وغاراتها وغزواتها فكان يخطط لها وينقذها من المـآزق حتى ضرب به المثل . ويجد القارىء الكريم له في آخر البحث دراسة مطوّلة لترجمة حياته وشعره :

والرجل الذي ترتفع منزلته الى منزلة صابقه قيس بن زهير هو الربيع بن زياد العبسي . لقب بالكامل (١) لاكتمال صفات الرجل فيه من حكمة وحزم وفروسية وفصاحة ، وكان أبوه زياد ابن عبد الله بن معاوية العبسي (٢) أحـد رجال عبس وأسيادها وأمه فاطمة بنت الخرشب الأنمارية : وكان للربيع أخوة يدعون الكملة (٣) ، منهم عمارة بن زياد ويدعى « الوهاب » ويلقب « دالقا (٤) » قتله شرحاف بن المثلم في خـــبر شيق نختصره ،

---

(١) ابن حزم ـ الانساب ص : ٢٤٨ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الاغاني ١٦ / ١٩ ساسي ـ المصدر السابق :

(٤) أبو عبيدة ـ النقائض ١ / ١٩٣ والدالق الدلو من دلق الغارة على العدو قال الفرزدق :

وهن بشر حاف تداركن دالقا   عمارة عبس بعد ماجنح العصر

وذلك أن المثلم أبا شرحاف وهو من ضبة قام عمارة بالقداح فقمره عمارة ولم يكن في يد المثلم ما يدفعه وكانت عشرة أبكر فرهن ابنه شرحافا وانطلق الى قومه : فلما كان الصباح جاء بالأبكر العشرة وفك رهن ابنه . فلما صارا في الطريق قال شرحاف لأبيه : يا أبتاه من معضال ؟ قال المثلم : رجل من بني عمك ذهب فلم يعد الى الساعة ولم يحسس له اثر : فقال شرحاف فاني عرفت قاتله ، سمعت عمارة وقد أخذ منه الشراب ليلة أمس يقول انه قتل معضالا ثم لم يلق له ناشدا : ولبثوا حينا وشب شرحاف فالتقت ضبة وعبس في وقعة «أعيار» «والنقيعة» . فنظر شرحاف الى عمارة وقال : اتعرفني قال لا ومن أنت ؟ قال : شرحاف بن المثلم أدّ الىّ ابن عمي معضالا مثله يوم قتلته : قال عمارة يا شرحاف اذكر اللبن : قال الدم أحب اليّ من اللبن ثم حمل عليه وقتله (١) . وأنس ويدعى «أنس الفوارس» ويدعى «الواقعة» ايضاً ، وقيس ويقال له «البرد» والحارث وهو «الحرون» ومالك وهو «لاحق» وعمرو وهو «الدراك» (٢) :

وكانت للربيع مكانة عالية عند الملك النعمان بن المنذر ينادمه ويقدمه على من سواه الى أن أوقع بينهما لبيد بن ربيعة

---

(١) أبو عبيدة - النقائض ١ / ١٩٣ .

(٢) لويس شيخو - شعراء النصرانية ١ / ٧٨٧ .

العامري للشاعر ، فقد كان النعمان ضرب لأبي براء عامر بن مالك ابن جعفر بن كلاب الملقب « بملاعب الأسنة » قبة : فكان يفد على رأس ثلاثين عامريا ، ويفد العبسيون وعلى رأسهم الربيع ، وكان لبيد يومئذ غلاما له ذؤابة ، وبين العبسيين والعامريين عداوة مما جعل الربيع يوغر صدر النعمان بن المنذر عليهم ليصد عنهم وينزع منهم القبة : ونجح الربيع فهجاه لبيد هجوا مقذعا وقع في صدر النعمان فأعاد العامريين الى سابق عزهم عنده وأبعد الربيع عنه ، فلما بعث الربيع الى النعمان يكذب مقالة لبيد فيه أجابه النعمان بقوله :

قد قيلَ ما قيلَ انْ صدقاً وانْ كذباً
فما اعتذارُكَ من قولٍ اذا قِيلا

والخبر طويل ليس هذا موضعه (١) .

وكان الربيع بن زياد العبسي أول أمره مجاورا لأخوته بني عبس حتى وقعت حادثة الدرع بينه وبين قيس بن زهيرٌ فترك عبسا وذهب الى جوار بني فزارة ، ثم عاد الى عبس يوم اندلعت نار الحرب وقتل مالك بن زهير فشغله أمر الحرب عن أي أمر سواه حتى قيام الصلح ، وكان على رأس الوفد الذي وقع شروط الصلح مع ذبيان :

لقد اشتهر الربيع بفروسيته وشجاعته . فهو قاتل مسعود

---

(١) السيد المرتضى - الأمالي - ١ / ١٨٩ .

ابن مصاد الكلبي يوم «عراعر» وكان مسعود رئيس كلب وفارسها الشجاع ، فبرز له الربيع وطلب مبارزته فالتقيا وفيما هما يتبارزان تعانقا وسقطا على الأرض فثار به الربيع وقطع رأسه فهجمت عبس على كلب والرأس محمول على رمح ، وبفضل هذه العملية الحربية انتصرت عبس على كلب وفازت بغنائمها (١) :

وكانت أم الربيع فاطمة بن الخرشب الأنمارية معدودة في المنجبات ، عرفت بالعقل والحكمة وقد سأل معاوية بعض العلماء أن يعدوا البيوت والمنجبات وأن لا يتجاوزوا في كل منهما ثلاثة بيوت وثلاثة منجبات ، فعدوا فاطمة بنت الخرشب من بين المنجبات (٢) : وجاء في الأغاني (٣) أن حمل بن بدر أغار على عبس في أحد أيام هذه الحروب وظفر بفاطمة وكانت على جمل فقادها بجملها الى قومه ، وفيما هم يسيرون سألته أين يمضي بها قال أذهب بك كي ترعى على ابلي . فلما أيقنت أنه ذاهب بها رمت بنفسها على رأسها من أعلى الجمل فماتت خوفا من أن يلحق بنيها عار فيها : وقد اشتهرت عنها أخبار وأقوال كثيرة :

وعرف للربيع بن زياد شعر جمعنا منه ما يخص البحث ويرد ذكره خلال دراستنا وقد مدحه قيس بن زهير بقوله :

---

(١) ابن الاثير ـ الكامل ١ / ٣٥٤ .

(٢) الاغاني ١٦ / ٢١ ساسى ولويس شيخو ١ / ٧٨٧ .

(٣) أبو تمام الحماسة شرح المرزوقي ١ / ٤٦٩ .

لعمرك ما اضاع بنو زياد ذمار ابيهم فيمن يضيع
بنو جنية ولدت سيوفا صوارم كلها ذكر منيع
شرى ودي وشكري من بعيد لآخر غالب ابدا ربيع

وله في مدح بني زياد شعر غير هذا (١) .

ورثاه ورثى أخاه رجل من طي فقال (٢) :

فان تكن الحوادث جرّبتني فلم أر هالكا كابني زياد
هما رمحان خطيان كانا من السمر المثقفة الصعاد
تهال الأرض ان يطئا عليها بمثلهما تسالم أو تعادي

أما وفاته فليس تحديدها أمرا سهلا لكننا نرجح أن تكون وفاته في العشرة الأولى من الهجرة (٣) :

---

(١) المصدر السابق شرح التبريزي ٣ / ٢٤ .

(٢) أبو علي القالي - الأمالي ١ / ٢٠٧ .

(٣) ذكر الزركلي في الاعلام أن تاريخ وفاة الربيع بن زياد العبسي كان في ٥٩٠ م - ٣٠ قبل الهجرة . وما أظنه صحيحاً لان الربيع شارك في مفاوضات الصلح الاول والثاني لحرب داحس ، وقد ذكرت المصادر أن الصلح الثاني الذي دفع دية القتيل فيه سنان بن أبي حارثة المري كان معاصراً للاسلام لان دية القتيل كانت مائتي ناقة دفع سنان منها مائة وحط الاسلام عنه مائة « ابن الاثير الكامل فى التاريخ ١ / ٣٥٩ » . ونحن نرجح أن وفاة الربيع ليست بعيدة عن وفاه قيس التي حددها صاحب =

ومن رجالات عبس مروان بن زنباع وهو مروان القرظ سمي بذلك لأنه كان يغزو بلاد القرظ (١) ، عرفت منه الشجاعة والحكمة واشتهرت عنه أقوال منها : « يابني عبس احفظوا عني ثلاثا » اعلمو أنه لم ينقل لكم أحد حديثا الا نقل عنكم مثله ، واياكم والتزويج في بيوتات السوء (٢) فان له يوما ناجئا (٣) واستكثروا من الصديق ما قدرتم واستقلوا من العدو فان استكثاره ممكن » :

وقرواش بن هني من بني أشيد ، فارس عبس الذي قتل حذيفة بن بدر فقتلته ذبيان به ، ورثاه عنترة وقيس بن زهير (٤) : ومنهم شداد أبو عنترة صاحب جروة وأحد أشراف عبس

= الاعلام في ٦٣١ م - ١٠ ه وهو تحديد معقول لان فارق العمر بين الاثنين ليس كثيراً وقد عاصرا الحرب منذ البدء حتى الختام فكيف يكون فرق وفاتهما أربعين عاما . اذا استندنا الى تاريخ الزركلي يصبح الربيع بن زياد غير مساهم في حرب داحس بل مات قبل اشتعالها .

(١) الزمخشري - المستقصى مادة قرظ .

(٢) ناجئاً حافرا .

(٣) أبو علي القالي - الامالي ٢ / ١٨٧ .

(٤) المفضل الضبّي - أمثال العرب ص ٣٩ ابو عبيدة النقائض ١ / ١٠٢ وديوان عنترة ضمن مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٥٨ .

وفرسانها كان مع الذين شاركوا في معركة «جفر الهباءة»
وعروة بن الورد والحطيئة الشاعران المعروفان ولم نعثر لهما على
شعر يذكر في هذه الحرب الا بعض أبيات (١) تشير صراحة
وفي وضوح الى حرب داحس : وربما احتوى ديوانهما على شعر
فيهما لكن تمييزه صعب لأننا لم نجد فيه اشارة اليها :

وقد سأل عمر بن الخطاب رضوان الله عليه الحطيئة عن
حربهم قال : كنا الف حازم قال كيف ؟ قال الحطيئة كان
فينا قيس بن زهير وكان حازما فكأنا الف حازم وكنا نقدم
باقدام عنترة ونأتم بشعر عروة (٢) .

أما رجالات ذبيان

فيعد حذيفة بن بدر الفزاري من أبرزهم :
فقد كان أبوه بدر بن عمرو سيد ذبيان ، قتل على يد بني

---

(١) لعروة قصيدتان في هذه الحرب الأولى في ديوانه بسبعة أبيات والثانية ليست في الديوان ، وقد أوردها وهب بن منبه في التيجان ص ١٢٤ بأحد عشر بيتاً . وللحطيئة أيضاً مقطوعتان في ديوانه الاولى حين اصطلحت عبس وذبيان بأربعة أبيات والثانية في يوم قرابين وفيه قتل عرف بن بدر الفزاري وهي بخمسة أبيات .

(٢) سمط اللآلىء ص ٨٢٤ .

أسد (١) فورث حذيفة السيادة عنه ووسع في الملك حتى صار يدعى «رب معد» في الجاهلية (٢) : وهو مع عبس يلتقي في نسب واحد كما تقدم :

كان حذيفة يتبوأ مكانة عظيمة بين قبائل العرب وشبه الجزيرة عموما وقبائل نجد بوجه خاص . وكان يلقب «بحذيفة الخير» قال المساور بن هند يمدح آل زهير وآل بدر بعد الصلح (٣) :

فخبِّرني بمثلِ بني زهيرٍ وخبرني بمثلِ بني زيادِ
ومثلِ حذيفةِ الخيرِ بنِ بدرٍ ومثلِ الحارثِ الفيضِ الجوادِ
وزبانٍ ومثلِ أبي قعينٍ لهولِ الحربِ في السنةِ الجمادِ

وقال قيس بن الخطيم (٤) :

همَمنا بالاقامةِ ثم سِرنا مَسيرَ حذيفةَ الخيرِ بنِ بدرِ

وقال الربيع بن زياد العبسي (٥) :

كُن مثلْ مولاكَ اذ قال المليك له
حذيفةُ الخير قولا غيرَ تفدير

---

(١) محمد بن سلام طبقات فحول الشعراء ص ٩٤ ـ ٩٥ .

(٢) البكري ـ التنبيه ص ١١١ وابن حزم ـ الانساب ص ٢٥٣ .

(٣) الزبير بن بكار ـ جمهرة نسب قريش ص : ٢٠ .

(٤) ديوان ابن الخطيم ص : ١٢٢ .

(٥) البحتري ديوان الحماسة ص ٢٢ .

الحربُ احلى اذا ما خفتَ نائرةً
من المُقام على ذلٍ وتصغير
فأذَن بحربٍ يغصُ الماءُ شاربَها
أو أن ندينَ على احدى التحاسيرِ

وقـد سودته غطفان وسارت في ركابه زمناً طويلا ، ولم تنحصر شهرته في نجد وحدها بل امتدت الى ملوك الغساسنة والمناذرة ، فالروايات تحدثنا عن منادمته للملوك وتقريبهم إياه حتى أنه كان يقدم لهم الهدايا . فقد أهدى احد الملوك جارية غنت في حضور قيس بن زهير شعرا لامرىء القيس فيه تشهير لنسوة من عبس غضب قيس منها فشق رداءها ، فغضب حذيفة لغضبه فما كان من قيس الا أن ذهب ليسترضيه ، وهذه الرواية تدلنا على منزلة حذيفة عند الملوك وخطره عند قيس بن زهير (١) .

وقد كان لحذيفة أخوة وأبناء عديدون ، أعظمهم شهرة حمل بن بدر أخوه ، وهو صاحب الرهان وفارس الحرب والمتقول يوم جفر الهباءة مع أخيه حذيفة وكان أخاً لحذيفة من أبيه لأن أم حذيفة سودة بنت نضلة بن جوية الفزاري أما

---

(١) المفضل الضبي - أمثال العرب ص ٢٧ وابو عبيدة - النقائض ٨١ .

أم حمل فانها من أسد (١) ، قال الربيع بن زياد (٢) :

فانْ تلكُ حربُكم أمسَتْ عواناً فانيِي لم أكنْ ممنْ جناها
واكن ولـد سودةَ أرثُوها وحشّوا نارَها لِمَن اصطلاها

وقال قيس بن زهير يذكر حملا بعد مقتله في الهباءة (٣) :

ولولاَ ظلمُه ما زلـتُ أبكي عليه الدهرَ ما طلعَ النجـوُمُ
ولكنّ الفتى حملَ بنَ بـدرٍ بغَى والبغْيُ مرتعُه وخيـمُ

ومن أخوة حذيفة مـالك وعوف المقتولان في آمر هـذه الحرب ، والحارث وربيعة وزيد ، ومن أولاده حصن الذي رأى بنفسه أباه وهو يقتل في يوم الهباءة على يد العبسيين فاشتد ذلك عليه وظل يذكره حتى مات قال (٤) :

وّلى حذيفةُ اذ وّلى وخلّفنِي يوم الهباة يتيما وسط ايتام
لا ارفع الطرف ذلاً عند مهلكة الفي العـدو بوجـه خده دامى

ولم تصل الينـا عن حذيفة أخبار غير التي وردت في قصة الحرب وأشتات مبثوثة في الكتب مع أنه كان فارسا وسيدا ذا شهرة ذائعة يتفق القدماء على منزلته الكبيرة وسيادته لغطفان ، وقد ضرب المثل بسرعة سيره ، فقد أغار على هجائن النعمان بن

---

(١) المفضل الضبي ـ المصدر نفسه ص : ٣٣ .

(٢) المصدر السابق ـ ص ٤٣ وابو عبيدة نقائض ٩٢ .

(٣) المفضل الضبي ـ أمثال العرب ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(٤) السيد المرتضى ـ الامالي ١ / ٥٣٠ .

المنذر بن مـاء السماء وسار في ليلة مسير ثمان (١) ، وواضح أن المقصود بسيره هنا حركة الجيش وروعة تنظيمه .

ولم يؤثر عن حذيفة أنه قال شعرا أو خطبة في هذه الحرب ولعل مقـالة الجاحظ فيه صحيحة حيث قال (٢) : «وقد كان في ولـد زرارة - بطن من تميم - لصلبه شعر كثير كشعر لقيط وحاجب وغيرهما من ولده ولم يكن لحذيفة ولا حِصن ولا عيينه ابن حصن ولا لحمل بن بدر شعر مذكور» وكان قبل هذا قد قال : «وبنو بـدر كانوا مفحمين وكان ما اطلق الله به ألسنة العرب خيرا لهم من تصيير الشعر في أنفسهم وقد يحظى بالشعر ناس ويخرج آخرون . .» وأغلب الظن أن مقالة الجاحظ فيهم صحيحة وان كـان تقـديره للقضية بالنسبـة لحصن بن حـذيفة مغلوطا فقد سبق أن تمثلنا ببعض شعره قبل أسطر . ولعل الرواة أغفلوا شعر حذيفة ورهطه متعمدين ، أو ضاع مع شعر هـذه الحرب أو قد يكون ما قرره الجاحظ صائبا .

ولقد اتفق الرواة على نعت حذيفة بالبغي والظلم . قال ابن الأثير (٣) « وجعل سنان بن أبي حارثة يحث حذيفة على الحرب فتيسروا لها ثم ان الانصار بلغهم ما عزموا عليه فاتفق جماعة

---

(١) ابن قتيبة - عيون الاخبار ١ / ١٣٨ وثمار القلوب ص : ١٤١ .

(٢) الحيوان ٤ / ٢٣ و ٣٨٠ .

(٣) الكامل ١ / ٣٥٠ .

من رؤسائهم ، وهم عمرو بن الأطنابة ومالك بن عجــلان ، وأحيحة بن الجــلاح ، وقيس بن الخطيم وغيرهم ، وساروا ليصلحوا بينهم ، فوصلوا اليهم وترددوا في الاتفاق ، فلم يجب حذيفة الى ذلك وظهر لهم بغيه فحذروه عاقبته وعادوا عنه :

« وقال الجاحِظ (١) » واذا بلغ السيد في السؤدد الكمال حسده من الاشراف من يظن أنه الأحق به وفخرت به عشيرته : فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبيلة قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه : ومن طلب عيبا وجده ، فان لم يجد عيبا وجد بعض ما اذا ذكره وجــد من يغلط فيه ويحمله عنه : ولذلك هجى حِصن بن حِذيفة وهجى زرارة بن عدس وهجى عبد الله بن جدعان وهجى حاجب بن زرارة . وانما ذكرت لك هؤلاء لانهم من سؤددهم وطاعة القبيلة لهــم لم يذهبوا مذهب كليب بن ربيعة ولا مذهب حذيفة ابن بدر ولا مذهب عيينه بن حصن ولا مذهب لقيط بن زرارة : : فان هؤلاء وان كانوا سادة فقد كانوا يظلمون . لقد وصفه ابن الأثير باغيا ، ووصفه الجاحِظ ظالما ، والرواة عند ما يسردون خبر الحرب يتفقون من أولها أن حذيفة أكمن فرساناً لطموا خيل قيس ليردوها عن سبقها ، ثم امتنع عن أداء الرهان . ويستمر الخبر في ابراز عبس على صورة المظلومين وذبيان على صورة

---

(١) الحيوان ٢ / ٩٣ .

الظالمين وكأن الأمر مقصود في رفع عبس وحط ذبيان . ولسنا نريد الآن أن نبدل واقعاً ، أو نغير تاريخاً ، وليس غايتنا أن نعطي حكماً فهو أمر غير مجـد اليوم ، بل كل رجائنا أن نسير في التحقيق العلمي المنصف والبحث الذي يعطي ثماره المفيـدة ، لكي نستطيع ولو بحرف واحد أن نغني خزانة أدبنا ونرفع بعض الغبار عن وجه ماضينا البعيد :

ان نهاية حذيفة معروفة ثابتة ، فقد مات قتيلا في معركة الهباءة ، وبعد موته نهضت غطفان لرثائه وقد جزع له الأصدقاء والأعداء ، فرثاه خصومه وان كان رثاء يقف عند مكانته لأنه زعيم ، أمـا خلقه فانهم كانوا يذكرونه فى رثائه متطرقين إلى بغيه وظلمه قال قيس بن زهير (١) :

تعلمْ انَّ خيرَ الناسِ ميْتٌ على جفرِ الهباءةِ ما يريمُ
ولولا ظلمُه ما زلتُ أبكي عليـه الدهرَ ما طلعَ النجومُ

وقد استعظمت القبائل قتل حذيفة : فهبت كلها في وجه عبس حتى شردتها ، وصارت تضرب في شبه الجزيرة حتى تفرق قومهـا بين مشرق ومغرب ، ولم تعـد تعرف أين تمضى فحيثما حلت وجـدت الموت في انتظـارها ، فلم تجـد بـدا من الصلح فعادت الى بلادها غطفان واصطلحت : وبعد بيت فزارة نخص بالذكر بيت مرة : وهو البيت الذي كتب له زهير بن أبي سلمى

(١) المفضل الضبي ـ أمثال العرب ص ٣٥ و ٣٦ .

الخلود في شعره فالذى قاله فيهم عالق في ذاكرة الزمن ، وهم به جديرون اثر المكرمة العظيمة التي صنعوها في اطفاء نار الحرب بأيديهم وبأموالهم ، وتثبيت شروط الصلح بين القبيلتين :

وأول رجال مرة ، سنان بن ابي حارثة ، كان في أول أمره محاربا الى جانب بني فزارة ثم صار داعية صلح وسلام حتى رهن قوس ابنه وأشرك معه ابن أخيه الحارث بن عوف بألف ناقة في حقن دماء عبس وذبيان ، وشجع ابنيه وابن أخيه في دفع دية قتيل ابن ضمضم وهي مائتا ناقة قال شاعرهم (١) :

ونحُن رَهَنّـا القوسَ في حِربِ داحسٍ
بألفٍ وكـانتْ بعـدَها مِئتـانِ

ولم ننس ونحن نعدد دعـاة الصلح أن نذكر حرملة وابنه هاشما الذي سعى في الحمالة بعد ابيـه ثم أعقبهم في ذلك سنـان والحارث وهرم وخارجة :

وتنقل الأخبار (٢) ، أن امرأة كانت الدافع الحقيقي للحارث ابن عوف المرى ليسعى في الصلح . فقـد ذكرت أن الحـارث سأل خارجة بن سنان المرى يوما فقال : أتراني أخطب الى أحد فيردني قال نعم . قال ومن ذلك قال أوس بن حارثة الطائي .

---

(١) الزبير بن بكار - جمهرة نسب قريش ص : ٢٨ .

(٢) الاغاني ١٠ / ٢٩٤ والمستطرف ٢ / ٢٢٢ وابن نباته - سرح العيون ص : ١٥٨

فقال الحارث لغلامه ارحل بنا اليه فركبا حتى أتيا اوسا في بلاده . . : «ويذكر الخبر أن أوسا امتنع أول أمره عن تزويجه ثم دخل على امرأته فأعلمها بخبر الحارث . وكانت له ثلاث بنات فقالت له امرأته : اذا لم تعط الحارث فلمن تزوج بنائك ؟ فعدل أوس عن رفضه وأرسل يسألهن حتى اختار له صغراهن : فلما أصبحت في جواره امتنعت عليه وقالت» حتى تصل قومك «فلما بلغ بها ذبيان امتنعت عليه مرة أخرى وقالت :» اتخلو الى نسائك والعرب يقتل بعضها بعضاً ؟ وتعني بهم عبسا وذبيان ثم قالت : أخرج لهؤلاء القوم واصلح بينهم فقال الحارث : والله اني لأرى فيها عقلا وهمة ، فخرج الحارث حتى أتى القوم ومشى في الصلح فأصطلحوا على أن يحسبوا القتلى من الفريقين ثم يؤخذ الفضل ممن هو عليه ، فحمل الحارث عنهم الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير أعانه عليها هرم بن سنان وحصن بن بدر .

وقد عاش الحارث حتى أدرك الرسول (ص) (١) .

ومن جيد شعره (٢) :

كم من يدٍ لا اؤدّي حقّ نعمتها عندي لمختبطٍ طارٍ ومن مِنَنِ
إذ جاء يسعَى إلى رَحلى لأسعفَهُ أليسَ قد ظنَّ بي خيراً ولم يرنى

وقد كانت لرجالات مرة مكانة عظيمة عند ملوك شبه

---

(١) ابن نباته السرح ص ١٥٨ .

(٢) المصدر السابق ص ١٦١ .

الجزيرة وبخاصة سنان بن أبي حارثة ، فقد زوجه النعمان بن المنذر أخته ووهبه أحد أولاده يربيه مع أطفال غطفان (١) ؛ وقد بلغت مكانتهم في نظر عمر بن الخطاب رضوان الله عليه حدا أن قال (٢) : « لو كنت مستلحقاً احداً من العرب لاستلحقت بني مرة لما كنا نعرف فيهم من الشرف البين مع ما كنا نعرف من موقع عوف ابن لؤي بتلك البلاد » ؛ وقال لبعض أشرافهم بعد أن غادروا مكة الى البادية : « ان شئتم أن ترجعوا لنسبكم من قريش فافعلوا » (٣) ؛

ومن رجالات ذبيان بنو يربوع ؛ وفيهم الشاعر المشهور النابغة وابن عمه الحصين المري الذي قتل عنترة أباه ضمضما المري، وقتل ورد بن حابس أبو عروة الشاعر أخاه هرما ، وقد ورد ذكر حضين هذا في معلقة زهير يوم كادت الحرب تنشب مرة أخرى بسببه (٤) ؛

---

(١) المفضليات ص ٦١٥ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠١ .

(٣) المصدر السابق . وقد كانت قبيلة مرة بن عوف قبل انتجاعها أرض غطفان تسكن جوار قريش .

(٤) نعني بذلك قوله :

لعمري لنعم الحي جرَّ عليهم بمالا يؤاتيهم حصين بن ضمضمِ
فشدَّ ولم يُفزع بيوتاً كثيرة لدى حيث ألقت رحلها ام قشعمِ

وانظر ابن قتيبة المعاني الكبير ٨٨١ .

أهم حروبهما :

وبينما كانت القبيلتان منشغلتين بحربهما الأهليـة الكبيرة كانتا تديران حربا أخرى داخلية مع عشائرهما أو خارجية مع القبائل الأخرى : ويمكن وضع هذه الحروب المتباينة في نقاط نوضحها ونجمعها ، ولن نعطي حكماً في تاريخها لتعذر تحديده . فلقـد حاول قسم من المستشرقين أن ينظموها في سلسلة تاريخية متعاقبة على مر الزمن فلم يخرجوا بنتيجة ثابتة مقنعة لافتقار جميع الوقائع الى تاريخ ، أو حوادث محددة (١) . لكننا سنذكر حرب كل قبيلة مع غيرها :

أ ـ ان أهم حرب لعبس وذبيان تلك التي نتوفر لدراستها الآن وقد دامت أربعين سنة على وجه التقريب :

ب ـ ولذبيان نفسها حروب مع غير عبس بعضها داخلية في عشائرها ، دافعها السيادة ، أو الأرض او الماء او الكلأ . وقد تخللت هذه الحروب اشعار واقوال كثيرة غلب عليها طابع التعقل والحث على التزام القرابة والجوار والعودة الى العقول والأحلام ، كما فعل الحصين بن الحمام المرى عندما تقاتلت عشيرته مع بني سهم وكلهم من ذبيان حيث قال (٢) :

---

(١) جواد علي ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ٤ / ٢٤٦ .

(٢) المفضليات ص ١٠٠ ـ ١٢١ .

جزى الله افناء العشيرة كلها بدارة موضوع عقوقاً ومأثما

ثم يتطرق الى كثرة القتل والموت بين القوم فيذكره والألم يحز في نفسه لان الذين يضربونهم قوم أحبة عليهم فالصدور حديثة بود لكن الوجوه طافحة بالقسوة والعداوة .

صبرنَا وكانَ الصبرُ فينا سجيّة
بأسيافِنا يَقطَعنَ كفاً ومِعصَما
يفلّقنَ هاماً من وجوهٍ عزيزةٍ
علينا وهم كانوا أعقّ وأظلمَا
وجوهُ عـدوٍ والصدورُ حديثةٌ
بودٍ فأودى كلُ ودٍ فأنعمـا

وهي طويلة وردت في المفضليات باثنين وأربعين بيتاً فيها وصف رائع للحرب وفيهـا حماسة وفخـر ودفاع عن العشيرة ودعوة الى الوئام فضلا عن الاغراض الجاهلية الأخرى . وفيها أبيات تتضمن مدحاً للحارث بن عمرو ملك الشام ، مما يدل على المريين حالفوا الغساسنة تنكيلاً بالذبيانيين :

وفي موضع ثان من هذه القبيلة ، يدور قتال آخر يكون هذه المرة مع فزارة حيث ينبري أحد شعرائهم وهو زبان بن سيار فيقول (١) :

---

(١) المصدر السابق ص ٦٩٣ .

ألم ينه أولادَ اللقيطةِ علمُهم
بزبانَ إذ يهجونه وهو نائمُ
يَطيفون بالأعشى وُصبَّ عليهم
لسانٌ كصدرِ الهندوانيِّ صارمُ

ثم يعيرهم بأن عبساً ملثت بهم يوم الهباءة :

وانَّ قتيلا بالهباءة في استِهِ صحيفته انْ عادَ للظلمِ ظالم

وغير هذا كثير في أشعار القبيلة ، لأن العشائر لم تكن تمحض الود صافيا لبعضها وانما كانت تكثر من التقاتل واعتزال البعض للبعض الآخر ، حتى أن قسماً منها كانت تترك ارضها الى جيرانها (١) ، وقد بلغت شدة الحرب بين أحياء ذبيان نفسها حداً أن تحالفت بنو خضيلة وبنو نشبة ضد بني يربوع رهط النابغة الذبياني وكلهم من مرة وكان تحالفهم على نار اوقدوها حتى محشتهم « أي أحرقتهم » فسموا « المحاش » فقال النابغة متحدياً سيدهم يزيد بن سنان بن أبي حارثة (٢) :

جمّع محاشَكَ يا يزيد فانّني جمّعتُ يربوعاً لكم وتميما

ج ـ على أن أهم حروبهم غير حرب داحس والغبراء ، كانت الحرب التي خاضتها ذبيان كلها ضد الغساسنة ، وما اكثر ما تظفر ذبيان فتحظى بالغنائم والارضين وقد تخسر فتغنم

(١) الدكتور شوقي ضيف ـ العصر الجاهلي ص ٢٦١ .

(٢) ديوان النابغة ص ١٧٨ والجاحظ كتاب الحيوان ٤ / ٤٧٠ .

غسان منها مالا ورجالا . ولعل سبب هذه الحروب راجع الى أن ذبيان كانت تدين بالولاء للمناذرة (١) ، لكن الذي يؤيده ويؤكده للشعر الثابت الصحيح أن حربهم كانت على الغالب حول مواضع ومياه ، كالخلاف الذي نجم بسبب موضع يدعى « أقر » كانت ذبيان تتربعه وغسان تدعيه لها قال النابغه (٢) :

لقد نهيتُ بني ذبيانَ عن أُقرٍ   وعن تربّعِهم في كلِ أصفارِ

ثم يمضي النابغة في وصف الحرب والأسرى وتوسطه لدى الغساسنة لكي يطلقوا مافي أيديهم من رجال ذبيان . ولعل حرب ذبيان مع الغساسنة كان سببها الرئيسي هو الأرض لأنهما في أرض وحدود مشتركة ، حتى ان ارض ذبيان كانت ترتفع أحياناً الى الشام عندما يكسبون الحرب . وقد جاز لبعض الشعراء ان يسمى الذبيانيين بالشاميين (٣) وهو يزيد بن عمرو بن الصعق الذي هجاه النابغة بقوله :

لعمرُكَ ما خشيتُ على يزيد   من الفخرِ المضلّلِ ما أتاني

فرد عليه يزيد بقوله :

فانْ يقدَرْ عليٍّ ابو قُبيس
تجِدْني عندَهُ حَسَنَ المكانِ

(١) شوقي ضيف ـ العصر الجاهلي ص ٢٦٤ .

(٢) ديوان النابغة ص ٨٠ .

(٣) محمد زكي العشماوي ـ النابغة الذبياني ص ٦١ .

وأيُّ الناسِ أحصنُ من شآمٍ (١)

له صِرِدانُ منطلقُ اللسانِ

فان العذرُ قد علمِتْ معَدٌّ

بناهُ في بني ذبيانَ باني

فاذا كانت هذه حالة الذبيانيين في أرضهم ، فأحرى بهم ان يردوا كيد من يبغي اقتطاعها وان كان النابغة بسبب من كياسته ومناوراته السياسية يسلم بكونها للغساسنة وينهي قومه عن الدخول الى منطقة أقر ، لكن علاقاتهم بالغساسنة سوف تتحسن على مر الزمن ، وبخاصة عندما أحست ذبيان ان الملك عمرو بن هند طمع فيها ، بعد موت حذيفة بن بدر (٢) ، عندما تمزقت ذبيان فنهض بأمرها حصن بن حذيفة ، وارتحل الى الشام يخطب ود الغساسنة وقد قام بعمله هذا مدفوعا وتحت ضغط الحاجة المادية والسياسية ، وهو يشير الى هذا الدافع بقوله (٣) :

لا أرفعُ الطرفَ ذُلا عن مُهلِكَةٍ

ألقَى العدوَّ بوجهٍ خدُّه دامي

---

(١) شآم : أي رجل منسوب الى الشام .

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ١٢٤ .

(٣) السيد المرتضى ـ الامالي ـ ١ / ٥٣٠ .

حتى اعتقدتُ لِوا قومِـي فقمتُ به

ثم ارتحلتُ الى الجفّنى بالشام

ولن يكون هذا منه ولاء لتيار من التيارات الخارجية السائدة آنذاك . فمن الصعب الحكم على أية قبيلة من القبائل العربيـــة بأنها كانت تدين بالولاء للشرق حيث « المناذرة » وصنيعـــة الساسانيين ، او الغرب حيث « الغساسنة » صنائع الروم وبيزنطة لأن الأمر شائك وغامض والدلائل فيه مفتقرة الى وضوح : مع ان المؤرخين القدماء جاءوا ببعض الاشارات التي جعلت المؤلفين المحدثين ان يبنوا عليها أحكاماً ربما كانت لا تخلو من تعسف .

واذا أردنا حصر تأريخ هذه المرحلة فسوف تجابهنا صعوبة ترتيب الاحداث حسب تعاقبها ، لا سيما ونحن نجد شعراء القبيلة الواحدة تتعدد اتجاهاتهم وموضوعاتهم وأغراضهم فمرة معها واخرى عليها ، ومرة مع هـذه واخرى مع تلك : وربما ردت هذه الحروب الى نزوح القبائل النجدية لصد السيطرة اليمنية ، وهذا الأمر أكثر وضوحا في حرب القحطانيين والعدنانيين ، أما امتداد هذه السيطرة الى قبائل عدنان في نجد فربما تكون مباشرة أو بشكل غير مباشر عن طريق الضغط على الأسياد بعزلهم أو تعيينهم : وان استقصاء هـذه النقطة لا يجدي مع هذه الحرب نفعاً ولا يصل بنا الى نتيجة .

ووقعت للذبيـانيين حروب أخرى مـع غير الغساسنة مثل

معركة « بطن عاقل » وفيهـا انتصرت على بني عامر : ومعركة « جزع ظلال » لفزارة من ذبيان على تميم وهي معركة في تاريخ لاحق من حرب داحس لأنها وقعت في عهد عيينة بن حصن حفيد حذيفة (١) :

د - ولم ترد في الكتب والمصادر أن عشائر عبس تقاتلت فيما بينها ، بل الذي عرفناه عنها أنها كانت مترابطة . وقد جعل منها هذا الترابط بين صفوفها قبيلة ذات سيادة ، فصارت احدى جمرات العرب ، ولعل السبب راجع الى طبيعة أرضها المحـاطة بأحلاف ذبيان ، فتجمعت على نفسها وتوحدت كلمتها ، وراجع ايضا الى قوة الأسرة الحاكمة فيها ، وهي أسرة « آل جذيمة » التي لم يبلغ مداها أبناء الاسر الاخرى من عبس وهم « بنو جروة » و « بنو هرم » و « بنو بجـاد » : بينما نجد أن ذبيـان في حرب داخلية دائمة كما مر بنا في الفقرة السابقة ، هذا بالنسبة لعصر زهير بن جذيمة ، الا أن حرباً اهلية صغيرة وقعت بين بني جذيمة وبني زياد (وهم الكملة) سرعان ما انتهى أمرها ، وعـاد الود القديم (٢) . لكن لعبس حروبا مع غير ذبيان ، أشهرها المعركة

---

(١) ابن عبد ربه - العقـد الفريد ٥ / ١٣٧ ومحمد جاد المولى - ايام العرب ٢٣٠ - ٢٤٢ - ٣٧٣ .

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد ٥ / ١٣٧ .

التي عرفت باسم « منعج (١) » والتي يسميها أبو عبيدة « يوم الردهة (٢) » ، وقد قامت هذه الحرب على اثر مقتل شأس بن زهير ، و « يوم النفراوات » الذي استطاعت فيه عامر أن تثأر لهوازن من زهير بن جذيمة العبسي ، وكان زهير يفرض على هوازن أتاوات يجمعها منهم كل عام ، حتى وقعت حادثة المرأة العجوز التي عجزت عن دفع ما ترتب عليها ، فمد اليها زهير بقوس ُعطلٍ (٣) ، كان في يديه وألقى بها علي عقبيها ، فأقسم خالد بن جعفر بن كلاب العامري أن يجعل ذراعه وراء عنق زهير حتى يموت فكان له ما أراد : وحرب « الصرائم (٤) » مع بني يربوع وحرب « النقيعة » مع بني ضبة وفيها قتل عمارة بن زياد وقد سبق بيانه .

هـ ـ وللقبيلتين أيضا حروب ضد عدو مشترك ، وقف فيها الفريقان صفا واحدا لرد عدوان أو غارة أو غزوة ، وأكثر هذه الحروب كانت قبيل داحس والغبراء وبعضها كان بعد

---

(١) ابن الأثير ١ / ٣٤٤ .

(٢) المصدر السابق ٥ / ١٣٣ وابن الاثير الكامل في التاريخ ١ / ٥٥٦ طبعة بيروت .

(٣) القوس العـُطـُل الخالي من الوتر .

(٤) جاد المولى ـ أيام العرب ص ٣٦٨ .

هذه الحرب ، وأشهرها « يوم الرقم (١) » لغطفان « عبس وذبيان ولفها » ضـد عامر ، ويوم « النتاءة (٢) » لغطفـان ايضا « عبس وذبيـان واشجع » على عامر وفيهـا هربت عامر أمام الغطفانيين وكان عامر بن الطفيل أول من هرب فعيره خراشـة بن عمرو العبسي فقال (٣) :

وساروا على اطنابهم وتواعدُوا مياها تحامَتها تميمٌ وعامـــرُ
قذفتَهم في اليَمِ ثم خذلتَهم فلاوألت نفسٌ عليكَ تُحاذُر (٤)

ومن حروبهم المشتركة ضد هوازن « حرب اللوى » ، وفيها قتل عبد الله بن الصمة أخودريد بن الصمة الشاعر (٥) :

هـذه أشهر حروبهم مع غيرهم وفيما بينهم ، وهي كثيرة وأخبارها طويلة متشعبة ، جديرة بالدراسة .

(١) ابن الاثير - الكامل في التاريخ ١ / ٦٤٢ طبعة بيروت .

(٢) ابن عبد ربه - العقـد الفريد ٥ / ١٦١ وابن الاثير - الكامل ١ / ٦٤٦ - وجاد المولى ٢٨١ .

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد ٥ / ١٦٢ .

(٤) الاطناب ، الطريق ، وألت ، نجت .

(٥) أبو تمام ، الحماسة « شرح التبريزي » ٢ / ٣٠٥ .

الفصل الثاني

حرب داحس والغبراء

أسبابها الاجتماعية والاقتصادية : المجتمع القبلي العصبيات : الصراع على المراعي وموارد المياه : الثأر : الأسباب التي أدت الى اشتعال الحرب : الروايات المختلفة عنها : مصادر هذه الروايات ومناقشتها : قصة الحرب : بدايتها . اتساع نطاقها القبائل التي شاركت فيها مع عبس وذبيان : وقائعها . تدخل هرم بن سنان والحارث بن عوف بين المتحاربين : الصلح وشروطه . تجدد الحرب مرة أخرى . نهايتها .

الفصل الثاني

الحرب

اسبابها الاجتماعية والأقتصادية :

ان حياة الصحراء شاقة تعكس جفافها ووحشتها على نفوس ساكنيها فينعكس هذا الجفاف وهذه الوحشة على حياتهم وعرفهم وعاداتهم ، فللبدوي عوالم خاصة لا يسمح لهـا أن تكون ذات حدود ، غير أنه يرضى لها أن تسبح مع مجموعة العوالم الأخرى وفق نظام معقد أحياناً ومبسط أحياناً اخرى فما أسرع غضبه وما أقرب رضاه . وكم من صغيرة يأنف لها حتى تغدو في نظرة كبيرة ، ومن كبيرة يتسامح فيها حتى ليخالها أصغر مما يراها غيره بكثير ، وهو يتهيب الموت حباً في الحياة والبقاء : ولكن سرعان ما يصبح هـذا الموت أمنية من أمانيه يحققها تحت وقع القـنا وضرب السيوف . والعربي البدوي ساكن شديد الوفاء لصحرائه يحبها ولا يغفل ذكرها وقد دخلت كل ثنايا حياته ، فوهبها اسماء ولـده ومنح حجارتها وحيوانها أروع قصائده واعذب شعره ولم يأنف أن يتسمى بأحقر مخلوقاتها ، وان يدعي بألفه حضاها :

وان قلة الماء وانعدام الغذاء وانقطاع موارد الرزق أعـداء تتحالف ضد رجل البادية ، فتجعل منه كائناً ظالما او مظلوماً ، قاتلا او مقتولا . ولكنه مع هذا يتماسك ويقف على قدميه عملاقاً ينطق بفصاحة ويفكر بحكمة . واذا لم يكن ثمة قانون يسود جميع القبائل ، فان نظاماً رئاسياً يجله افراد القبيلة الواحـدة ، كان بذرةً لمجتمعٍ ونواة لحياةٍ اجتماعية قامت على طاعة الرئيس في القبيلة او العشيرة ، واحترام العرف والعادات البدوية التى تكاد تكون تنتظم أطراف شبه الجزيرة . وانحصرت الطاعـة والولاء في نصرة الأخوة ظالمين او مظلومين ، وحكمت البداوة وعرفها وعاداتها بأن الغارة والغزوة والحرب من مكمـلات النظام والعيش والرجولة ، الى جانب رعي الابل وتربية الخيل لتكون أشرف أعماله . وافتقرت الصحراء الى قانون عقوبات يردع ساكنيها فوقف الثأر بسوطه الرهيب يلهب ظهور المعتدين والقادرين . ويظل شبح الثأر يحول دون جرائم القتل ، ويطارد كل قاتل حتى وصل بالمجتمع العربي خلال جاهليته الى شاطىء الأمن فأشرقت انوار العهد الجديد وعرف القوم النظام الثابت المدون لأول مرة في حياتهم .

ولكي يقاوم البدوي اعـداءه من العطش والجوع ووحشة الصحراء ، فانه شهر في وجوههم سلاح الكرم واقراء الضيف واغاثة الملهوف وكل الصفات التى افتخر بها شاعرهم وبمقدار

ما اشتهر بهذه الصفات السمحة فانه كان يتشدد بشبر الأرض الذي في حدود موطنه ، وبئر الماء الحلو المحفور الى جوار قومه والمرعى الخصب والكلأ والعشب ترعاه ابله وماشيته ، ثم يحرص كل الحرص على سيادة قبيلته ولا يسمح أن تنتقل رئاسة قومه الى يد غيرها ، ولربما عكرت صفاء نفسه التي تحكي صفاء السماء عبارة او حركة او بادرة يتخذ لها موقفاً سريعاً وحاسماً ، ثم تندلع حرب تنحصر في العشيرة والبطون او تدخل فيها القبيلة او تشتمل اجزاء واسعة من شبه الجزيرة .

* * *

ان هـذه المقدمة تصدق بتمامها على حرب داحس والغبراء وأقوامها والحياة الاجتماعية والاقتصادية فيها . ولا غرابة فان حرباً دامت أربعين عاماً يجب أن تسم الناس بميسمها فتخلق لها جيلا متميزاً وحياة اجتماعية واقتصادية ذات طابع خاص . ولم تفت المؤرخين هذه الملاحظة فأكدوا ان الحرب دامت هـذه السنوات الطوال لم تنتج لهم فيها ناقة ولا حرث واكد المعني نفسه زهير في معلقته فقال (١) :

فتُنْتِـجْ لكـم غلمانَ اشأمَ كلّهم
كأحمرِ عادٍ ثم تُرضعْ فتَفْطِمِ

(١) الاعلم - مختارات الشعر الجاهلي ص : ٢٦٧ .

فتُغلِلْ لكم مالا تغِلُ لأهلها
قرىً بالعراقِ من قفيزٍ ودرهَمِ

واذا كان هذا ما آلت اليه الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، فما أحرانا أن ندرس هذه الحياة قبل أن تندلع الحرب وتسوء الحال :

وقبل دراسة العامل الاجتماعي في هذه الحرب ندرس العوامل المباشرة لها بعد أن ننتهي من دراسة الأسباب غير المباشرة :

ولقد قامت هذه الحرب لنزاع بين أسرتين كبيرتين على رئاسة غطفان ، وكانت الرئاسة في العصر الجاهلي مصدر كثير من النزاع ، ونحن ازاء ذلك مدعوين الى القاء نظرة سريعة على تاريخ القبيلتين ، وقد رأينا في الصفحات التي ضمت الفصل الأول من هذا البحث أن عبسا وذبيان انحدرتا من نسب واحد : وهو أمر له خطره وشأنه في مجتمع شبه الجزيرة : واذن فما الذي دفع بأبناء للعمومة أن يقتتلوا ويتفانوا ؟ لعل عامل القرابة والجوار ينضم الى عامل النزاع على الرئاسة أو هي عوامل ثلاثة متداخلة شاركت لتكون سببا غير مباشر في الحرب : فلقد كانت الرئاسة في غطفان لبني عبس ، وكان زهير بن جذيمة سيدا مطاعا فيها تحمل الأتاوات والهدايا من جميع أطراف غطفان وهوازن اليه في مجلسه من قبيلته ، وطبيعي أن عملا مثل هذا يثير عليه حفيظة القوم فيتحينون ساعة الخلاص ليأخذ مكانه سيد آخر ينافسه في الرئاسة والشرف : وهو الأمر الذي وقع فقد قتل زهير بسبب ظلمه ومغالاته في الأتاوة على هوازن وغيرها بل

على غطفان نفسها (١) :

وكان أعظم منافس له آنذاك في رئاسة غطفان ، هو أبو حذيفة بدر بن عمرو الفزاري قتيل بني أسد الذي ذكره الحطيئة في مدحه لعيينه بن حصن الفزارى (٢) :

قبورٌ أصابتها السيوفُ ثلاثةٌ
نجومٌ هوَتْ في كلِ نجمٍ مرائرُه
فقبرٌ بأجبالٍ وقبرٌ بحاجرٍ
وقبرُ القليبِ أسعرَ الحربَ ساعِرُه

وعندما انتهت حياة زهير بن جذيمة العبسي ، كان الموشح للرئاسة في غطفان اثنين هما قيس بن زهير العبسي وحذيفة بن بدر الفزارى ، فكان حذيفة رجلا مقتدرا في شخصه وماله وعشيره . وكان قيس يتهيبه ويعرف خطره ويتجنب الوقوع هو وعشيرته في شوكته(٣) . لكن هذا الحذر الشديد لم يمنع وقوع المحذور :

ويبدو أن قيسا وأخوته لم يكونوا في دهاء أبيهم ، بل لم يكونوا في دهاء حذيفة الذي استطاع أن يتبوأ مكانه من غطفان ويجمع اليه كل مكتسبات هذه الرئاسة ما احفظ عليه صدور

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ١ / ٥٥٦ ـ ٥٦٥ طبعة بيروت

(٢) ابن سلام ـ طبقات فحول الشعراء ص ٩٤ ـ ٩٥ ففي اجبال قبر بدر وفي القليب قبر حذيفة ابنه وفي حاجر قبر حصن حفيده .

(٣) ابن الأثير الكامل ـ ١ / ٣٤٦ .

العبسيين ، واذن فعامل السيطرة على مجموعة قبائل غطفان كان من أكبر العوامل غير المباشرة في حربها . وقد استطاعت ذبيان المتمثلة في فزارة أن تستأثر لنفسها بالزعامة ، بعد مقتل زهير العبسي ، والروايات تذكر ذلك صراحة ، فبعد مقتل زهير ابن جذيمة جاء الحارث بن ظالم المري من ذبيان الى قيس بن زهير ليتداولا في الثأر فقال زهير : انني أعد حربا كبيرة لهوازن وسوف أتجهز لها . فلم يشف ذلك نفس الحارث بل قال : أنتم أدرى بحربكم مع هوازن أما انا فسأذهب واقتل خالد بن جعفر بن كلاب . قال قيس لن تقدر عليه وهو في جوار الملك النعمان قال الحارث : أقتله ولو كان في حجره . فذهب ودخل على النعمان وخالد في مجلسه . فقال خالد : لي على هذا فضل قتلت ملكهم العبسي وجعلت الرئاسة (١) فيهم وأنشد (٢) :

أبلغ هوازنَ كيفَ تكفرُ بعدَ ما أعتقتُهم فتوالدوا أحرارا

وقد أعطت هذه الرواية الدليل على أن عامل الرئاسة كان بالغا مداه منذ تاريخ الآباء ، والخلاف كان عميقا بين الحيين العظيمين ، ولم تكن علاقة الود الا سطحية ، فاذا قتل الحارث خالدا فليس انتصارا لعبس وانما انتقاما منه ، فقد أغار رهط خالد على ذبيان رهط الحارث ، والحارث صغير فقتلوا رجالهم

---

(١) ابن عبد ربه العقد الفريد ٥ / ١٤٧ وأيام العرب في الجاهلية ص ٢٤١

(٢) المصدران السابقان .

حتى صارت النسوة لايجدن من يشد لهن عصاب الناقة ليحلبنها فكان الحارث يفعل ذلك ويبكين فيبكي معهن فنشأ على كره العامريين ، يتحين لهم الفرص ليبطش بهم فكانت فرصة مقتل زهير سانحة له ففعل (١) .

أما عامل الجوار ، فلن يقل عن القرابة في اذكاء حـدة النزاع من وجوه عدة ، أهمها الماء ومناطق الرعي . وقد كانت ذبيان كما رأينا في الفصل السابق تتربع رقعة واسعة من الأرض الصالحة رياً ورعيا . وهو الذي يفسر لنا استقرارها وبقاءها في أرضها فلم تجلها الحرب ، وانتقال ونزوع عبس عن أراضيها أكثر من غيرها (٢) . وكان العبسيون في عمل دائب من أجـل ان يجدوا لأنفسهم متنفساً ، لكن جيرانهم كانوا يردونهم عن كل توسع ، فكانت تقع بسبب ذلك نزاعات . وكان هذا التوسع الذي تنشده عبس يأخــذ شكل غارات (٣) وغزو يؤدي الى حرب مع هذه القبيلة أو تلك . وكتب التاريخ والأخبار تتحدث كثيراً عن هذه الغارات والغزوات لهذه الأسباب . لكن العبسيين لم يكونوا يغيرون على جارتهم وقريبتهم ذبيـان اول امرهم ؛

(١) ابن عبد ربه ١ / ١٣٨

(٢) ابن الاثير ـ الكامل ١ / ٣٤٩ قال (ان بلاد عبس أجدبت فانتجع أهلها بلاد فزارة) .

(٣) ابن الاثير ـ الكامل ١ / ٣٤٥ . وأبو عبيدة ١ / ٣٤٦ ـ ٣٧٩ .

فليس في الأخبار ما يؤيد ذلك : بل كانت صفات البداوة في نصرة الأخ وابن العم هي الغالبة كما يبدو فكانت عبس تهب لنصرة ذبيان في حروبها كما كانت ذبيان تفعل الشيء نفسه ؛ لكن هذا لم يمنع قيام روح الحسد والتباغض بين القبيلتين ، لما تتمتع به ذبيان من منزلة اجتماعية لدى جاراتها ، وحياة اقتصادية في أرضها ومالها . وكانت تظهر بوادر ذلك بين الحين والحين في نزعات فردية بين أشخاص من كلتا القبيلتين ، وكانت ذبيان يحسد عبس لها فتقابله بالبغض . وتروى لنا المصادر حادثتين تدلان على ان القبائل لم تكن تنظر الى عبس نظرة ارتياح وبخاصة غطفان ، أما الحادثة الأولى فتلك التي كانت نتيجتها النفرة بين الربيع بن زياد العبسي والملك النعمان (١) : والثانية قيام مغنيـة أهداها حذيفة بن بدر لأحد ملوك شبه الجزيرة بترديد بيت من الشعر لامرىء القيس فيـه تعريض لنسوة من بني عبس وكان قيس بن زهير حاضراً (٢) . وقد وقعت هاتان الحادثتان قبـل الحرب ، وهمـا تعطيان لنـا صورة الكره الذى كانت ذبيان والقبائل المجاورة تكنه لعبس السجينة في أرضها الفقيرة الضيقة :

وكان ان ترتب على هـذا الجوار اختلاف الحيين وظهور أسوأ العادات الاجتماعية بينهم ، وتفشي روح المقامرة التى طالما

---

(١) الشريف المرتضى - الامالي - ١ / ١٨٩ .

(٢) ابو عبيدة - نقائض ١ / ٩٠ .

قادت الأقوام الى المفاخرة ، وهذه تجر الى ذكر الأمجاد ونبش الأحقاد ووقوع الفتن . والتقامر اذا وقع بين أفراد القبيلة العاديين كانت مغبته أقل شراً من المقامرة على فرسين بين زعيمي قبيلتين بينهما ركام قديم من الماضي المملوء حسداً ومنافسة .

وطبيعي أن يبدو أمر مثل هذا غريبا ، اذ كيف تكون القرابة والجوار عاملين من عوامل الحرب ، وهما اليوم ركيزتان يرتكز عليهما العرب في ردهم للعدوان ؟ والجواب عن ذلك واضح لكل ذي نظر ، اذ أن هذه هي حالة العرب في جاهليتهم ، والا فما الحكمة من بزوغ فجر دين جديد وظهور البعثة النبوية الشريفة ؟

ولقد كان قوام اقتصاد البدوى مراعيه وموارد مياهه ، وهي في هضبة نجد أشتات ، وما أكثر افتقار القبائل الى الماء والمرعى ، مما يستوجب ارتحالها وانتجاعها أرضا غير أرضها ، ومجاورة قبيلة قد تكون قريبة الآصرة أو بعيدة المناصرة ، عدوة أو صديقة . وكذلك تفعل الحرب حين تحدد أماكن القبائل وأوقات ارتحالها . وفي الكتب اشارات كثيرة الى قبائل أصابها الجفاف ، فانتجعت مكانا خصبا الى جوار قبائل أخرى .

وربما كانت مواقع القبائل من أسباب رزقها ، كأن تكون أراضي القبيلة على طريق القوافل التجارية ، أو دربا مؤدية الى سوق

موسميه كبيرة : وعندئذ تحتفظ القبيلة بحقها في العبور وحماية القوافل . وما أكثر ما يعهد الى رجال القبائل أن يرافقوا القافلة حتى تعبر الحدود الى أرض أخرى (١) : وقد كانت عبس وذبيان تقعان من أرض «الشربة» على وادي «الرمة» الذي يلتقي مع الأبله فيوصل الى مكة ، وهو طريق تجاري ينتهي الى خيبر . وعدم الأشارة اليه في شعر الحرب أو خبرها لا يعني انعدامه ، فنحن نعلم أن مؤلفا في هذه الحرب لم يقع في أيدينا ، مع أننا وقفنا في دراستنا على اسماء مؤلفات عديدة باسم حرب داحس وبأيام العرب عامة ، لكن واحدا منها لم نظفر به حتى الساعة .

وقبل الفراغ من هذه الأسباب الممهدة للحرب لا بد لنا من التحدث عن ثلاث ظواهر أخرى ، ذات أثر عميق في اشعال هذه الحرب وكل حروب الجاهلية :

(أ) المجتمع القبلي (ب) العصبية (جـ) الثأر ،

وهي من أبرز سمات الحياة البدوية ، حيث كان الرجل في مجتمعه الصغير ينسى استقلاله الذاتي وحريته الفردية ، ويذهب الى الموت بدافع القبيلة التي ينتسب اليها دون أن يكون جانيا أو مجنيا عليه ، ويتمثل ذلك في قول عنترة :

---

(١) يوسف خليف (دكتور) الشعراء الصعاليك ص ١٢٥ انظر حديثه عن القصيم وأبانين ووادي الرمة . وهي أرض عبس وفزارة كما مر بنا ذكره .

حالتْ رماحُ ابني بغيضٍ دونكم
وزوتْ جوانى الحربِ مَنْ لمْ يُجرمِ (١)

وما هذا الدافع القبيلي الا التعصب الذي لم يعرف حدودا في العصر الجاهلي ، حيث تجاوزها الى العنصرية المقيتة . فاذا جاء الثأر الى جانب هذه القبيلة المبنية على العصبية ، صار الأمر مهيئا لحرب ضروس . ذلك لأن حرب داحس لم تكن أول أمرها إلا ثارات فردية وغارات محدودة يقوم بها بنو زهير على بني بدر او العكس ، حتى دخلهـا اقوام آخرون فصارت حرباً واسعة .

وكانت الأسرة قوام هذا المجتمع القبيلي . ومن اجتماع عدة أسر تألفت البطون ، وبالنظام نفسه تألفت العشيرة والقبيلة . ولم تكن للاسرة على افرادها أية سلطة ، وانما كانت سلطة القبيلة هي السائدة والتي يحسب لها الفرد حسابها . فاذا اختلف مع اسرته فليس مغبة هذا الخلاف أوخم عليه من غضب قبيلته حين تخلعه او تتخلى عنه او تتبرأ منه فيصبح غرضاً لقبائل العرب ، ترميه ولا يجد له من دونها ملاذاً او مجيراً .

وليس لمجتمع القبيلة نظام يوحدها ، سوى مجموعة العرف والعادات البدوية التي وحدت جميع قبائل العرب . غير أن كل قبيلة كانت تعرف ارضها وماءها ومرعاها ، كما كان لها دينها

(١) مختارات الشعر الجاهلي ص : ٣٢٩ .

او صنمها الذي تعبده . وقد فرضت عليها قوة الطبيعة والصحراء ان تحمي نفسها بما تراه مناسباً لهـــا ، لذلك فان بعض القبائل كانت تدخل مع جاراتها في احلاف حتى تصير كالقبيلة الواحدة في الأرض والماء والكلأ والعدو المشترك .

وهذه الصفات التي اتسمت بها القبائل المتنقلة وراء رزقها في أرض شبه الجزيرة تحلت بها أيضاً القبائل المستوطنة في قراها او مدنها ، وليس من فارق يميزها غير اسلوب العيش . فربما اعتمدت القبائل المستوطنة على الزراعة او التجارة واتخذت منها نظاماً اقتصادياً ثابتاً ، فلا تختلف عن قبائل البداوة في رعي الابل والخضوع لعادات الصحراء ، وعرفها في العصبية والثأر ، وحفظ الأنساب ، والمفاخرة ، والكرم ، والوفاء وحرية العبادة .

أما العصبية ، فهي تعني نصرة الرجل لأبناء قبيلته ظالمين او مظلومين وقـــد اشتقت من التعصب أي التجمع ، وعصبة الرجـــل أقاربه وأهلـــه الذين يلتفون حوله ، أو قومه الذين يتعصبون له (١) ، وهذه الحرب خير مثل لهذه العصبية . والواقع أن مجتمعي القبيلتين المتقاتلتين لم يدخرا وسعا في استجابة النداء عندما دوى بوق الحرب وارتفع صوت النفير : فقد هب رجال القبيلتين مع زعمائهما هبة رجل واحد ، ليردوا ضيماً اعتقد كل منهما أنه لحقه من الآخر . وأمام هذا الاندفاع الحار الذي وجد

(١) لسان العرب والقاموس المحيط مادة (عصب) .

صـداه في النفوس وبين الأصوات المتعالية من كل الجهات المطالبة باعلان الحرب ، ضاعت الأصوات المنادية بالتعقـل والحكمة ومراجعة الفكر قبـل ان تزل القدم بالقبيلتين وتنزلقا الى هاوية الحرب .

وللعصبية اصل ترجع اليه هو وحـدة الدم والنسب . وقـد اعتبر ابن خلدون صلة النسب هـذه امراً طبيعياً في المجتمعات حيث يغضب الفرد لظلم يلحق أهله او ذوى قرباه وقال « نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا (١) » . لكننا نراها كانت سبباً لحروب طويلة مستمرة بين الأقوام ، دامت بدوام هـذه العصبية حتى ظهر الاسلام فألغاها ثم أقام بدلها القومية الاسلامية وكان العرب يومئذ وعاء الاسلام . ورب قائل يزعم أن حرب داحس انتهت بسلم وصلح قبل الاسلام . وهو بزعمه يريد أن يثبت أن العصبية لم تذهب بأحلام القوم وعقولهم وانهم كانوا يتدبرون أمرهم قبل اسلامهم . وجوابنا أنهم كانوا يتصالحون ثم يقتتلون ، فقد سبق أن انتهت حرب كبيرة هي حرب البسوس بصلح ، ولكن لم تلبث ان قامت بعدها بقليل حربنا هذه . ثم ان الاسلام قام وحرب الأوس والخزرج على ضراوتها فاصطلحوا على حكمه . على أن العصبية قبل الاسلام كانت من ضرورات الحياة الجاهلية وبدونها لم تكن القبائل قادرة على البقاء . وذلك لأن العصبية

---

(١) ابن خلدون ـ المقدمة ـ ص : ١٢٨ .

وما تعتمده في الدم والنسب الواحد ، يجعلها تطالب أفرادها بالخضوع للقبيلة وتلبية نداء الواجب نحوها . وقد أعطت كتب التاريخ والأخبار قصصاً رائعة للبطولة والفداء في سبيل القبيلة حتى دخل بعضهم عالم الأسطورة لما نسجت حوله من قصص وروايات .

وكنا ذكرنا في مطلع هذا الحديث ، أن حرب داحس والغبراء كانت أول أمرها ثارات فردية ثم توسعت الى حروب قبلية ، على الرغم من أن ثارات الأفراد ظلت آخذة طريقها الى جانب الحرب ، وكذلك بعد الصلح عندما خرج الحصين بن ضمضم يثأر لأبيه وأخيه ، وأعاد الى الجو غيوم الحرب من جديد ، لولا أن تدارك الموقف عقلاء القوم فأعادوا الى النفوس صفاءها وأمنها ، وانطفأت نار الحرب مرة أخرى ولكن الى غير رجعة .

وأصل الثأر أن يقتل رجل من قبيلة رجلا من قبيلة أخرى فيطلب أولياء المقتول من قبيلة القاتل أن يدفعوه اليهم ليقتلوه بقتيلهم ، ويسمون هذا النوع « القصاص بالقود » . وقد ورد ذكره في حربنا على لسان عمرو بن الأسلع بعد معركة جفر الهباءة فقال (١) :

انى جزيت بني بدر بسعيهم ... على الهباءة قتلا ماله قود

وقد جرت العادة أن أهل القاتل وعشيرته يمتنعون عن دفعه

(١) ابن عبد ربه - العقد ٣ / ٧٠ .

لأن في هذا عارا عليهم ، فيعرضون على أولياء القتيل الدية فان قبلوها باء دم القتيل وطل دم القاتل . قال ابن عنقاء الفزاري بعد الصلح (١) :

انْ تأتِ عبسٌ وتنصرها عشيرتَها
فليسَ جارُ ابنِ يربوعٍ بمخذولِ

كلا الفريقينِ أعيا قتلُ صاحبِه
هذا القتيلُ ببيتٍ غيرِ مطلولِ

باءتْ عرارِ بكَحْلِ والرفاق معا
فلا تَمنّوا امانيَّ الأضاليلِ

وقال معقل بين سبيع يوم دفعت عبس الدية لبني ثعلبة بعد الصلح أيضا (٢) :

تُطَلُّ دماؤهم والفضلُ منا
على قَتلاهُم ونحكُم ما نُريدُ

أما اذا لم يقبل أولياء القتيل الدية ، فأنهم ملزمون بقتل القاتل أو أي شخص يساوي المقتول في المنزلة والشرف ، وربما ثأروا له بمن هو أعظم شأنا ، لذلك رأينا قيس بن زهير يخاطب

---

(١) المفضل الضبي ـ أمثال العرب ـ ص ٤٢ وأبو عبيدة ـ النقائض ١ / ١٠٦ والزمخشري المستقصي في أمثال العرب ٢ / ٣ .

(٢) المفضل الضبي ـ أمثال العرب ص ٤٣ وابو عبيدة النقائض ١ / ١٠٧ .

بنى بدر الذين قتلوا أخاه مالكا بأخيهم فيقول (١) :

أخى واللهِ خيرٌ من أخيكم   اذا مالم يجند بطلٌ مقاما

يكرر هذا المصدر ثلاث مرات ليؤكد معناه :

فان سكت أولياء القتيل عن ثأرهم كان عارا عليهم :
واعتقدوا أن هامة تشبه الطير تخرج من رأس الميت وتظل تنادى بالثأر وبالدم : قال عقيل بن علقمة المرى يعير بني بدر بمقتل حذيفة وصحبه في يوم الهباءة (٢) :

فانّ على جَفْرِ الهباءةِ هامةً   تُنادى بَنِى بدرٍ وعارا مخلّدا

وادراك الثأر مفخرة : على أن حكماء القوم ربما استطاعوا ان يوقفوا جرائم القتل المتعاقبة بما يدفعون من الديات . أو ربما التجأت القبيلة الى وسيلة تضيع بها دم القتيل عندما تجتمع كلها عليه ، كما فعل العبسيون بنضلة الأسدي حين قتلوه (٣) . وقد تلجأ قبيلةالقتيل أحيانا الى طريقة تعارفوا عليها ، هي في الحقيقة ذريعة لقبول الدية وحقن الدماء تسمى « التعفية » أو سهم الاعتذار بأن تأخذ سهما وترمى به نحو الفضاء فان عاد السهم وعليه أثر من دم كان النهى عن قبول الدية ، أما اذا رجع السهم كما صعد رضيت القبيلة بالدية :

---

(١) المفضل الضبي - ص ٤٠ وابو عبيدة ١ / ١٠٢ .

(٢) المفضليات - ص : ٣٦٦ .

(٣) البغدادي خزانة الأدب ٢ / ١٣٧ .

أسباب الحرب المباشرة :

تقدمت أسباب عديدة للحرب . ولكنها لم تذكر في ثنايا القصة والأخبار ، فان الذي ذكروه شيء آخر . وهذا شأن كل حرب تقع بين الناس اذ لابد لها من سبب ظاهر تختفي وراءه جميع الأسباب الأخرى . وقد جعلناها أسبابا غير مباشرة ، وأسبابا مباشرة . ونستطيع أن نسمي الأسباب المتقدمة أسبابا داخلية . وأما ما سنذكره فأسباب خارجية .

والذي اتفق الرواة عليه أن هذه الحرب دارت بسبب فرس يدعى « داحسا » سميت الحرب باسمه أو باسم فرسين هما « داحس والغبراء (١) » . وانني مورد تفصيلها معتمدا على كل الروايات والأخبار التي جاء بها الرواة والأخباريون بشكل غير منسق . وذلك أنه لم يصل الينا كتاب خاص يبحث في الأيام . وانما اعتمدنا كل الروايات والأخبار المبثوثة في كتب المؤرخين والأخباريين والأدباء حتى نتحدث بتفصيل أكثر في هذا الموضوع .

واتفاق المؤرخين على هذا السبب كان اجماعا كما اتفقوا على أن حرب البسوس كانت بسبب ناقة لامرأة تحمل هذا الاسم (٢) .

---

(١) المفضل الضبي أمثال العرب ص ٢٦ وأبو عبيدة النقائض ٨٣ والأغاني ١٧ / ١٢٣ والمفضل بن سلمة الفاخر ص ٢١٩ وابن الأثير الكامل ١ / ٣٤٤ والعقد الفريد ابن عبد ربه ٣ / ٦٧ .

(٢) المفضل الضبي ـ امثال العرب ص ٥٦ .

ولم نجد خلافا في هذا السبب كما توهم بعض الباحثين (١) . أما المغنية (٢) التي غنت بشعر امرىء القيس فغضب لها قيس بن زهير فليس هذا سبب الحرب لأن هذه القصة أيضا جرّت الى رهان على الفرسين فلم يعد في الخبر أي اضطراب : بل ان هذا الخبر يثبت سبب اشتعال الحرب في كونها على رهان : لكن الذي اختلفوا فيه واوردوا حوله روايات عديدة هو مبدأ هذا الرهان : هل بدأ بين قيس وحذيفة نفسهما أم بين عبس وذبيان ، فأورد المفضل الضبي وأبو عبيدة وغيرهما الروايات المختلفة ولم يناقشوها بل عرضوها عرضا ، وانهم بذكرهم لهذه الروايات انما يوثقون خبرهم ويدللون على سعة اطلاعهم :

وداحس فرس لبني يربوع واسم أبيه ذو العقال وهو فرس لقرواش بن عوف (٣) :

وانتقل داحس من بني يربوع الى قيس بن زهير اثر غارة

---

(١) احسان النص العصبية القبلية ص ١٥١ .

(٢) المفضل الضبي . أمثال العرب ص ٢٧ .

(٣) أنساب الخيل لابن الكلبي وابن الاعرابي (داحس) . وجاء في أمثال العرب للمفضل الضبي ، أن سبب تسميته داحساً أن بني يربوع خرجوا في نجعة وكان ذو العقال في يد فتاتين تقودانه فمرت جلوى وهي فرس لبني يربوع أيضاً ، فلما رآها ذو العقال ودى فضحك شباب من الحي فاستحيت الفتاتان فأرسلتاه ، فنزا =

شنها عليهم ، فغنم فتاتين ومائة من الابل وبعض الأسرى وأفلت غلامان ازنميان (١) حيث جالا في متن الفرس وهو مقيد فنجابها فلما أبصره قيس رغب فيـه فقـال للقوم : لكم الغنيمـة والسبي والأسرى ان أعطيتموني الفرس ، فامتنع الغلامان فبعث شيخ من الأسرى بالأبيات التالية الى الغلامين (٢) :

ان مُهراً فَدى الرباب وجَمْلا ... ومُسعاداً لخيرِ مهرِ أُناسِ
ادفعوا داحسا بهنّ سِراعـا ... انّها من فِعالِها الأكياسِ
دونَها والذي يحُجّ له الناسُ ... صبايا يُبعنَ بالأفراسِ
انّ قيسا يرى الجوادَ من الخيـ ... ـلِ حياةً في متلفِ الانفاسِ

= على جلوى فلما حضر صاحب ذي العقال ، وكان شريراً استنكر وطلب ماء فرسه فقيل له دونك نطفة الفرس فخذها . فعمد الى ماء وتراب فادخل يده فيهما ثم أدخلهما في رحم الفرس ليخرج النطفة ، لكن الفرس لقحت . وخرج داحس كأنه ابوه . وسمي بسبب هذه الحادثة داحساً فلما أصبح مهراً عاد صاحبه فادعاه ، الا ان قومه كفوه عن ذلك . فبقي عند قرواش حتى غزاهم قيس ابن زهير وأخذه .

وانظر أيضاً : ابو عبيدة ١ / ٨٣ والأغاني ١٧ / ١٢٣ وابن الأثير الكامل ١ / ٣٤٤ .

(١) من ازنم وهي قبيلة .

(٢) ابن الاثير ـ الكامل ٣ / ٣٤٤

يشترى الطرف بالجراجرة الجلة يعطى عفوا بغير مكاس

فلما انتهت الأبيات الى بني يربوع قادوا الفرس الى قيس واسترجعوا السبي والمال والأسرى ، فلما عاد قرواش بن عوف ، استعظم ذلك لكن قومه لم يؤيدوه فلم يفعل شيئا : وثار قوم قيس عليه وقالوا : « غنمنا فتاتين وأسرى ومائة بعير فعمدتَ الى غنيمتنا وبعتها بفرس تأخذه لك والله لا نرضى أبدا » وكاد الشر يعظم لو لا أن اشترى منهم غنيمتهم مرة أخرى بمائة بعير وأرضاهم :

أما الغبراء فقد ترددت الروايات في حكمها ، وقال بعضهم انها لحذيفة وقال آخرون انها لقيس (١) : ونحن نرجح أنها لقيس أيضا مستنبطين ذلك من الشعر الثابت حيث قال عنترة (٢) :

فليتهما ماتا بعيدا ببلدة وأخطاهما قيسٌ فلا يُرَبَّان

وان اقدم مصادر خبرهما ذكرت أنهما لقيس بن زهير وقد أجراهما في سباقه مع حذيفة الذي أجرى الخطار والحنفاء او قرزلا والحنفاء(٣) وسباق الخيل في المجتمع الجاهلي ظاهرة أرستقراطية بارزة يقصد منها السادة الشهرة والمتعة والنفع من الرهان . وكان العربي يجد غضاضة في أن يقل شأن أفراسه التي ينتقيها من الجياد ويرتبطها

(١) في نسب الغبراء تنظر جميع المصادر الواردة في ص ٥٤ هامش ١ من هذا الفصل .

(٢) مختارات الشعر الجاهلي ٢ / ١٦٥ شرح خفاجي .

(٣) المفضل الضبي أمثال العرب ص ٢٨ .

قرب بيته :

واختلف الرواة في مبدأ هذا الرهان وأسباب هياجه ، فمن قائل أن الذي هاجه حضور قيس بن زهير سيد عبس مجلس أحد الملوك وكان في المجلس قينة اهداها حذيفة بن بدر سيد ذبيان الى الملك تغنى بقول امرىء القيس (١) :

دارٌ لِهرٍ والرباب َ وفَرتَنَــا ولميسَ قبلَ حوادثِ الأيامِ

فغضب قيس لأن هرا والرباب ولميس فيما يذكر نسوة من عبس فمضى اليها قيس وشتمها وشق رداءها ثم انصرف ، فغضب حذيفة . فلما بلغ ذلك قيساً أتاه ليسترضيه وجعل يكلمه وحذيفة لا يعرفه من شدة الغضب . وكانت لدى حذيفة أفراس نظر اليها قيس وعابها فقال : أمثلُك يرتبط مثل هذه يا أبا مسهر ؟ قال حذيفة أتعيبها ؟ قال نعم فتجاريا حتى تراهنا .

ورواية تقول ان الرهان هاجه رجل من بني عبد الله بن غطفان ، جاء الى حذيفة زائرا فعرض عليه حذيفة خيله فقال العبدي ماأرى فيها جوادا مُبِرًّا (٢) قال حذيفة « فعند من الجواد المبر » ؟ قال « عند قيس بن زهير » فراهنه حذيفة على ذكر من خيله وأنثى ثم أتى العبدي قيسا فأخبره بخبر الرهان ، فقال

(١) المصدر السابق ص ٢٧ وابو عبيدة ـ نقائض ١ / ٨٥ . وانظر ديوان امرىء القيس .

(٢) مبرا : غالبا .

قيس لا ابالي من راهنتُ غير حذيفة . قال « ما راهنت غيره » قال قيس : انك ما علمتُ لأنكد ثم ركب قيس وأتى حذيفة ليواضعه الرهان ، فأبى الا أن يغلقه (١) .

وتذهب أكثر الروايات الى ان الرهان انما هاجه رجل من العبسيين ، وهو ورد بن حابس ابو عروة الشاعر ، راهن ذبيانياً من فزارة على فرس لقيس يدعى داحساً ، وقيس غائب ، وحِجرة لحذيفة تدعى الغبراء او غيرها ؛ فلما حضر قيس كره ذلك وقال : لم ينته رهان الا الى شر ، وأتى بني بدر فسألهم المواضعة فقالوا لا حتى نعرف سبقنا فان اخذنا اخذنا حقنا ، وان تركنا تركنا حقاً عرفتموه لنا وعرفناه لأنفسنا ، فغضب قيس وقال أَمّا اذا فعلتم ذلك فأعظموا الخطر (٢) ، وأبعدوا الغاية (٣) فجعلوها مائة غلوة (٤) ، من واردات الى ذات الأصاد والسبق في يدى رجل من بني ثعلبة بن سعد ، وملئوا البركة ماء وجعلوا السابق أول الخيل الذى يكرع فيها :

---

(١) المفضل الضبي - أمثال العرب ص : ٢٧ - ٢٨ أبو عبيدة - النقائض ١ / ٨٥ الاغاني ٧ / ١٢٥ .

(٢) الخطر ، السبق مال أو ابل يكون الرهان عليها .

(٣) الغاية الجهة التي تركض اليها الخيل .

(٤) الغلوة رمية بالنشاب .

وهـذه الرواية تجمع اليهـا اكثر روايات الاخباريين (١) وسوف نتعرض لهـذه الروايات المختلفـة بشيء من الدراسة والمناقشة لها ولمصادرها ، ممهدين لقصة الحرب ببعض التفصيل الدقيق الذي يعيننا كثيراً في فهم نصوص الشعر الوارد فيها :

* * *

الروايات المختلفة في الحرب :

لم نقف على كتاب يبحث في أيام العرب ، يفصل أخبارها ويوضح الأماكن التي دارت أحداثها عليها ، ويذكر تاريخ كل حدث ، ولو ان شيئاً من هذا وصل الينا لتغيرت وجهة البحث وقوّمنا بعض احكام اطلقناها ولم تكن صائبة تماماً ، او ربما تأيد لنا أن ما نذهب اليه هو عين الصواب . مع أننا نتحسس مواضع أقدامنا فلا نضعها الا على أرض صلبـة في ضوء من نور اليقين ، لنجنبها مواضع الشبهة والشك والزلل ، لكي لا تقع في عتمة تقودنا الى وهم او خطأ .

غير أن عـدم وصول كتاب في أيام العرب لا يعني أنهم

---

(١) ينظر اضافة الى ما سبق الشريف المرتضى الامالي ١ / ٢٠٨ وسمط اللآلىء ص ٥٨١ .

لم يؤلفوا أو لم يضعوا في هـذا المضمار كتاباً أو مؤلفاً ، وذلك أن لدينا ما يؤيد أنهم كتبوا لهذه الحروب والأيام مؤلفات خاصة بها ، وبعض هذه الكتب في مجموعة من أيام العرب ، وبعضها الآخر في أيام معينة (١) .

لقـد ورد خبر الحرب في روايات عديدة ضمت الكتب المختلفة التي وضعها العلماء في القرون الثانية والثالثة وما يليها من الهجرة . وتسهيلا لاحصائها وعرضها فقد قمنا بضمها الى بعضها في مجموعات . فقد لاحظنا أن قصة الحرب جاءت في مصدر قديم ونهج نهجه مصدر يليه في القـــدم ، وان كانوا جميعاً يغترفون من معين واحـــد ، هو معين (المفضل الضبي) أو (أبي عبيدة) . واذن فدراستنا للروايات التي جاءت بها مصادرها المختلفة دراسة موضوعية ونقدية كما نوهنا :

واقدم مصدر حمل الينا قصة هـــذه الحرب ، هو كتاب الأمثال الذى ألفه المفضل الضبي وقـــد أورد الخبر بتمامه لكنه اختصره لأنه لم يكن يبغي من روايته أن يؤرخ لهـــذه الحرب وشعرها ، وانما جاء من الرواية بمقدار ما يفي بالمثل الذى يريد شرحه : ونحن وان لم نخرج من خبره بطائل لأن اختصاره ضيع من القصة كثيراً من معالمها وأحداثها خلال اربعين عاما لكننا استطعنا ان ننتفع من جعله نواة للقصة واساساً نعود اليـــه في

(١) لنا عودة الى هذا في حديث مستفيض نستهل به الفصل الثالث .

التوثيق الى جانب وفرة الشعر الذي رواه في ثنايا الخبر وفي نهايته . والواقع ان الرواية اقتصرت على تسمية الحوادث البارزة وشخوص الرواية ، وقد استغرقت من الصفحات ثماني عشرة صفحة من الكتاب (١) . ورواية الضبي أطول خبر في هذه الحرب اذا قيس الى المصادر الأخرى بعده . وقد حذا حذو المفضل ابو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه نقائض (جرير والفرزدق) وما قيل في كتاب المفضل يقال في النقائض : وقد شابهت رواية أبي عبيدة بالحرف الواحد رواية المفضل الضبي لكنه أسندها الى الكلبي (٢) . ومثلها في النص الحرفي رواية صاحب الأغاني (٣) وهي تتميز أيضاً بسند روايتها وان لم يقل انها نقلت عن الكلبي وهذه الكتب الثلاثة « أمثال العرب » و « نقائض جرير والفرزدق » و « الاغاني » جاءت بخبر واحد لهذه الحرب وهو الخبر الأول عنها فيما توافر لدينا من المصادر وهو أيضاً الخبر الأطول ،

أما مجموعتنا الثانية ، التى حملت الينا رواية الحرب ، فتلك التى وردت في كتاب آخر من كتب الأمثال وضعه المفضل بن سلمة بن عاصم (٤) ، ولم يذكر لخبره سندا وقد نقله الميداني في

(١) من ص ٢٧ الى ص ٤٤ .

(٢) النقائض ١ / ٨٣

(٣) الاغاني ١٧ / ١٢٣

(٤) الفاخر ص ٢١٩

أمثاله (١) عنه بحروفه مع التصريح بالسند ، وأثبته البغدادي (٢) في خزانته ، وقد استهلا روايتها بقولهما : « قال المفضل بن سلمة في الفاخر » . ولكن البغدادي أورد الخبر مبتورا ، على أن هذه الرواية أضافت الى الرواية السابقة أحداثا جديدة وشعرا لم يذكر في الأولى .

ومجموعة ثالثة أوردت الخبر كاملا لكنه موجز وكأن صاحبه يبغي من وراء ذلك أن يسجل الأحداث ولا يفصلها وهو ابن عبد ربه (٣) في عِقدهِ الفريد ، وقد جعل للقصة أبوابا على غرار الأبواب التي وضعها صاحب الفاخر ، ثم يسرد الخبر باسلوبه الخاص ويرفع السند الى أبي عبيدة ، وقد حذا حذوه ونقل عنه روحا ونصا النويري (٤) في نهاية الأرب ،

وتقف رواية ابن الأثير (٥) في الكامل وحدها دون أن تنتسب الى مجموعة او كتاب او رواية لكنها لم تبتعد عن رواية المفضل الضبي وأبي عبيدة كثيراً ، وتضيف الى جميع الروايات جديداً أغنى بحثنا هذا بالمادة الغزيرة الطيبة ، فضلا عن الشعر

(١) الميداني الأمثال ص ٢ / ٥٧ .

(٢) البغدادي ـ خزانة الادب ـ ٣ / ٥٣٧ .

(٢) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ٣ / ٦٧ .

(٤) النويري ـ نهاية الأرب ١٥ / ٣٥٦

(٥) ابن الاثير الكامل ١ / ٣٤٣

الوارد فيها .

وأما كتب السير والمحاضرات والأمالي والمعاجم فانها لم تورد الخبر كاملا وانما تبتسره ابتسارا . تأخذ منه ما يسد مكان الشاهد ثم تترك بقية القصة . وربما كان أكثرهم اختصارا ابن هشام في السيرة (١) ، فلم يتحدث عنها الا في سطور قليلة ، وتعتبر رواية للشريف المرتضى (٢) في أماليه أكثر ايفاء بالغرض ، وتليها رواية التبريزي في شرحه للحماسة (٣) ، ثم رواية أبي عبيد البكري في سمط اللآلئ (٤) وابن نباته في سرح العيون (٥) ، وهو خبر طويل منقول عن أبي عبيدة وأبي الفرج الأصبهاني ، والواقع أن جميع هذه الروايات مأخوذة من رواية أبي عبيدة ، بعضهم يذكر ذلك وبعضهم لا يذكره ولا تخلو هذه الروايات الناقصة من خبر جديد ، أو شعر لم تذكره غيرها من المصادر

---

(١) ابن هشام - السيرة ١ / ٢٨٦ ، وانظر السهيلي - الروض الأنف ص ١٨٣ .

(٢) الشريف المرتضى الأمالي ١ / ٢٠٨

(٣) التبريزي شرح ديوان الحماسة ١ / ١٧٢

(٤) ابو عبيد - سمط اللآلي ٥٨١

(٥) ابن نباته - سرح العيون ١٣٥

السابقة ، وقد جاء في موضعه المناسب من قصة الحرب (١) :

• • •

مناقشة هذه الروايات :

عرضنا قبل قليل الروايات المختلفة التي حملت الينا خبر الحرب، ولاحظنا أنها تكاد تتفق مع رواية المفضل الضبي وأبي عبيدة في الشكل العام الذي يمكن وضعه على الوجه التالي :

١ ـ أن سبب الحرب كان رهانا على فرسين يُدّعيان داحسا والغبراء ، وبين رجلين يدعيان حذيفة بن بدر الفزاري وقيس ابن زهير العبسي :

٢ ـ أن حذيفة وقومه ردوا داحسا فَرَسَ قيسٍ عن الغاية ولطموه ، ثم امتنعوا عن تأدية السبق :

٣ ـ ان قيسا أغار فقتل أحد اخوة حِذيفة أو ابنَه :

٤ ـ ان حذيفة اغار فقتل أخاً لقيس يُدعى مالكُ بن زهير .

٥ ـ ان الربيع بن زياد العبسي آلمه وأغضبه قتلُ مالك ، فانضم الى أبناءِ عمومتهِ واندلعت الحرب .

---

(٨) توجد مصادر اخرى اوردت الخبر ضمن الاطار الذي ذكرناه مثل ذلك ابن حمدون ـ شرح البسامة تحقيق دوزي

٦ ـ أن المواقع الحربية التي ذكروها والتي وصلت الينا هي : المريقب ، ذو حسًى ، اليعمرية ، الهباءة ، ذات الجراجر ، الفروق ، عراعر ، شِعب جبلة ، شعواء ، قطن ، غدير قلهى .

٧ ـ عقد الصلح بقدوم العبسيين والتماسهم الصفح من الذبيانيين وقد سعى في الحمالَة بنو مرة فدفعوا ديات القتلى من الطرفين .

لقد اتفقت جميع الروايات على هذا الشكل الذي أثبتناه ولم نجد اختلافا الا في زيادة أو نقص بين رواية واخرى او في اسماء الرجال ، أو تقديم موقعة على أخرى : وربما ذكرتْ احدى الروايات مواقع حربية ، واغفلتها غيرها . وقد سبق أن فرقنا هذه الروايات ثم جعلناها مجاميع حسب اتفاقها في أحرف الخبر وايراده ، وكان قصدنا من هذا التفريق والجمع تسهيلُ عرضها وسوف نمضي في الخط نفسه لنناقش هذه الروايات ، حسب مجموعاتها السابقة على ان بعض هذه الروايات كامل ، والبعض الآخر ناقص ، وسننبه عليها في مواضعها .

١ ـ المجموعة الأولى :

وتضمُّ ثلاثَ روايات ، هي في الحقيقة خبر واحد : وأقدمُ هذه الروايات تلك التي وردت في كتاب أمثال العرب للمفضل الضبي ، وهي رواية لها ابتداء وانتهاء والقصة فيها كاملة لكنها مختصرةٌ اختصارا ضيع كثيراً من معالمها وقد اختلطت الأيام

بعضها ببعض ، حتى أنه ليصعب تفريقها ووضعها حسب تاريخ وقوعها . فهو قد يتحدث أحياناً عن معارك متعددة في حديث واحد . ولكن رواية المفضل الضبي اعتبرت أساساً بنيت عليها كل الروايات اللاحقة التي جمعناها من مصادرها ، ومع ذلك فرواية المفضل ليست مستوعبة أحداث هذه الحرب كلها ، وانما هي اختصار لها وردت في معرض شرح لمثل :

أما القصة كاملة فلم تصل الينـا . والذي يؤيد ان هـذه الرواية مختصرة اختصاراً أخفى من أحداث الحرب كثيراً من جوانبها التي لو توافرت لزال كثير من الغموض الذي يكتنف أخبارها ويبدد من غيوم الشك ما يجعل الحقيقة اكثر وضوحاً ان أبا عبيدة الذي نقل هذه الرواية او بتعبير ادق روى الخبر نفسه بحروفه وعزاه للكلبي ، شعر بعدم وضوحها وبحاجتها الى وضوح بيان . والذلك كان ابو عبيدة يعود في مناسبات أخرى من كتابه نفسه فيوضح ويبين بشرح أطول .

والذي يتصفح اجزاء نقائض جرير والفرزدق يستطيع أن يجمع اشتاتاً من اخبار الحرب تنيف على ما جاء منها في أول الجزء من الكتاب المذكور . لقـد أغفلت رواية المفضل ذكر يوم جبلة ولم تذكره الا عرضا ، فعاد ابو عبيدة اليه . وأغفل المفضل الضبي تفصيل يوم الفروق ولم يذكره إلا في سطرين او ثلاثة ، ولكن ابا عبيدة عاد اليـه في جزء آخر من كتابه

وفصله تفصيلا . لذلك نستطيع أن نقول في رواية أبي عبيدة أنها لم تتوثق فقط بما ذكره المفضل ، وانما قامت بواجبها في مد رواية المفضل بما تفتقر اليه من ايضاح للايام فاغنتها بكثرة الأحداث والشعر الموثق ، فاذا كانت رواية المفضل أساساً لجميع الروايات فان نقائض جرير والفرزدق هو الكتاب الذى جعلناه ملاذنا فى رواية الحرب الطويلة ومنفذنا الوحيد الى أبي عبيدة واخباره عن هذه الحرب . ومع ذلك فلا تعتبر رواية أبي عبيدة في النقائض ولا الاشتات المبثوثة في اجزاء هذا الكتاب عن هذه الحرب عملا كاملا .

يؤيد ذلك أن المصادر التى سنذكرها بعد قليل نقلت خبرها عن أبي عبيدة وعن المفضل ، وقد ذكرت فيها من الأخبار مالم نجدها في كتب المفضل وأبي عبيدة ، وهذا دليل على ان روايتى الرجلين ناقصة وأن لهما كتابا آخر لم نطلع عليه نحن ، واطلع عليه أصحاب المصادر بعدهم .

والآن يحق لسائل أن يسأل : اذا كان هؤلاء اطلعوا على رواية كاملة للمفضل أو أبي عبيدة أو غيرهما فلماذا لم يذكروا الخبر كاملا ومطولا وانما جاءت أخبارهم اما مختصرة كما فعل الأوائل أو ناقصة ؟ والجواب أن كل من تصدى لقصة هذه الحرب تناولها من جانب المنفعة والفائدة فأخذ ما يفيد مادته ورمى ببقية القصة . والمفضل وأبو عبيدة ايضاً فعلا ذلك ، وان كانا

أكثر انصافا وبخاصة أبا عبيـدة حيث يعتبر ما أثبته أطول خبر في هذه الحرب .

أما الآخرون ، فالعالم الجغرافي مثلا يأخذ من الخبر وشعره بمقدار ما يقدمان له من أسماء المواضع من أرض أو بلد أو جبل أو نهر ، وكذلك الأمر مع عالم التاريخ وغيره . وهم معذورون فيما فعلوه لأنهم لو توسعوا في الرواية لطالت كتبهم الى مـالا نهاية لا سيما وأن أيام العرب عديدة وأشعارها وافرة .

وتحمل رواية صاحب الأغاني صفات مميزة كرواية أبي عبيدة فيما يخص الأخبـار المبثوثة في أجزاء الكتاب الكبير حيث أغنى أحداث الحرب بجديد ، وفسر بعض ما غمض منها . لكن رواية الأغاني تشبه رواية المفضل وأبي عبيدة وقد نقلت عنها حرفيا . ولذلك كونت مع الروايتين مجموعة قائمة بنفسها سوف تكون أساسا لكل الروايات سواء في المجموعات التي سنذكرها أو الكتب المتفرقة . لكن رواية الأغاني وقفت عند حرب الهباءة .

ـ ٢ ـ المجموعة الثانية :

أقدم روايات هــذه المجموعه تلك التى وردت في كتاب « الفاخر في الأمثـال » للمفضل بن سلمة بن عاصم وهي كاملـة لكنه يستعرضها استعراضا سريعا . ولعل حرب داحس أسعـد

حظا من غيرها في هـذا الكتاب حيث نالت من عنـاية المؤلف نصيبا ملحوظا .

فقد رأينا أن من عادة مؤلفي كتب الأمثال انهم يمسكون بالقصة الطويلة فيذكرون منها السطر أو السطرين مما يتعلق بحادثة أو أثر بارز يجلون به غوامض المثل . ولكن حرب داحس فازت بشيء من اعتناء المفضل بها ، وقدم دليلا على اطلاعه . ورواية الفاخر توافق رواية المفضل الضبي ورواية ابى عبيدة في أحداثها وشعرها وجاءت بشيء جديد لم يذكر من قبل ، وهذه الرواية جديرة باهتمام الباحثين لقرب عهدها من رواتها الأقدمين وقـد أخذها بنصها الميداني في أمثاله فلم يزد غير هذه العبارة في أولهـا « قال المفضل (١) : . » ثم يورد الخبر وينتهى من القصة بهـذه العبارة التى تزيد على رواية المفضل « امتدت الحرب بينهم سنين قـال المؤرّج السدوسي أربعين سنـة (٢) » : (ونقل الخبر نفسـه البغدادي في خزانته حيث قال : « حرب داحس والغبراء وهذا اجمالها من كتـاب المفضل بن سلمة (٣) » ثم نقل الخبر بنصه . وقوله اجمالها دليل جديد على أن قصة الحرب برواية المفضل ابن سلمة مختصرة ايضا . وقد وقفت رواية البغدادي عند منتصف

---

(١) الميداني ـ الامثال ٢ / ٥٧

(٢) المصدر السابق ٢ / ٦٦

(٣) البغدادي ـ خزانة الأدب ٣ / ٥٣٧

الخبر ايضا) .

والذي يميز هذه الرواية انها جعلت مواقع الحرب في ابواب فتميزت المعركة عن سابقتها ولاحقتها ، الأمر الذي اختلط في رواية المجموعة الأولى :

ـ ٣ ـ المجموعة الثالثة :

رواية هذه المجموعة لو انها نقلت بالحرف الواحد لكانت ضمن المجموعة الأولى لأن خبرها منقول صراحة عن أبي عبيدة : ولكنها اختطت لنفسها اسلوبا خرج بها عن غيرها وأضافت الى الخبر جديدا ، فكأن صاحبها « ابن عبد ربه (١) » ينقل عن مصدر آخر لأبي عبيدة غير الذي بين أيدينا ، هذا من جهة سندها وأما ذكرها للمواقع فانها حذت حذو كتاب الفاخر في ترتيبها . ونقل عنه بالحرف الواحد النويري في(نهـاية الأرب)ولم يضف الى القصة جديدا : وابن عبد ربه ادرج القصة ضمن حروب قيس فيما بينها :

(١) العقد الفريد ـ ابن عبد ربه ٣ / ٦٧

٤- رواية ابن الأثير فى الكامل :

تقترب هذه الروايه في خطوطها الرئيسة من رواية المفضل الضبي وابي عبيدة وان اختلفت معها في اسماء بعض الأشخاص والمواقع وهي لا تذكر او لا تصرح بمصدر روايتها . واذا كان ابن الاثير احجم عن ذكر احداث فصل الكلام فيها ابو عبيدة فانه لم يحجم عن ان يأتي بجديد لم يذكره المفضل الضبي وابو عبيدة :

وفي البحث عن مصدر هذه الرواية رجعنا الى أبي جعفر الطبري باعتباره الملهم الاول لابن الاثير في اخباره فلم نجد لحرب غطفان ذكراً في كتابه : وقد أعطانا ابن الاثير نفسه السبب الوجيه لذلك فقال « لم يذكر ابو جعفر من أيام العرب غير ذي قار وجذيمة الابرش والزباء وطسم وجديس ، وما ذكر ذلك الا حيث أنهم ملوك فأغفل ما سوى ذلك ، ونحن نذكر الايام المشهورة التي اشتملت على جمع كثير وقتال شديد ، ولم أعرج على ذكر غارات تشتمل على النفر اليسير لانه يكثر ويخرج عن الحصر (١) .

وفي خطبة كتابه زاد الامر وضوحاً فقرر أنه ابتدأ في

---

(١) ابن الأثير - الكامل - ١ / ٥٠٢ طبعة بيروت .

مصادره بالتاريخ الكبير الذي صنفه ابو جعفر الطبرى اذ هو الكتاب المعول عليه عند الكافة والمرجو عند الاختلاف ، فلما فرغ منه اخذ غيره من التواريخ المشهورة فطالعها وأضاف منها الى ما نقله من تاريخ الطبرى ما ليس فيه ، ووضع كل شيء منها في موضعه ؛ ثم يقول انه لم ينقل إلا من التواريخ المذكورة والكتب المشهورة ممن يعلم بصدقهم فيما نقلوه وصحة ما دونوه « ولم يكن كالخابط في ظلماء الليالي ولا كمن يجمع الحصباء واللآلىء » « فكان يجمع الحادثة في موضع واحد فتأتي متناسقة متتابعة ، وقد أخذ بعضها برقاب بعض (١) » .

ولما كان غرض الرواية عند ابن الاثير مادة التاريخ البحت ليس غير ، فانه لا يولي الشعر كثيرا من عنايته بل كان يكتفي من القصيدة بالأبيات القليلة للاستشهاد وأحياناً بالبيت الواحد فقط ، فتميزت رواية أبي عبيدة عليها بكثرة شعرها وبالشروح الوافية لهذا الشعر . والامر نفسه يصدق مع رواية المفضل الضبي ومع ذلك فقد انفردت رواية ابن الاثير بشعر لم أجده في الروايتين الاخريين ؛ ومن ثم نبهت رواية ابن الاثير الى شيء أساسي سبق أن نوهنا عنه هو أن خبر الحرب الذى اطلع عليه ابن الاثير لم يكن في عصره يستقي من رواية المفضل الضبي في أمثال العرب او أبي عبيدة في النقائض فحسب بل كانت هناك رواية أخرى

---

(١) المصدر السابق ص ١ - ٩ .

كاملة مطولة اطلع عليها المؤرخون واختصروا منها أخبارهم :
ومن قبيل الاقرار بالواقع القول بأن رواية ابن الأثير تعتبر احدى الروايات الأصلية الثابتة في حرب داحس :

٥ ـ المجموعة الخامسة :

مصادر هـذه الطائفة من الكتب ترجع الى كتاب المفضل الضبي او أبي عبيدة ، وتتوزع هذه المجموعة على كتب السيرة والمحاضرات والامالي : وهي لم تورد الخبر كاملا بل ابتسرته ابتسارا مخلا لكي تأخذ منه ما يسد مكان الشاهد وحاجته وتترك بقية القصة . وربما كان ابن هشام في السيرة أكثرهم اختصارا فلم يتحدث عـن الحرب الا في سطور بلغت نصف صفحـة من كتابه :

وفي أمالي السيد المرتضى اختصار لجوانب عديدة من القصة فهو لا يستقصي أبدا بل يكتفي أن يقول « وجرى من الخلاف في اخـذ السبق ما شرحته الرواة » وان كان يبسط الخبر في جوانب متعـددة : وليس لرواية المرتضى على رواية المفضل الضبي زيادة ، كما ليس لها على روايات الآخرين فضل يذكر ومثلها اختصارا وتطابقا في روح الخبر الرواية المبسوطة في سمط اللالئ للبكري : فاذا جئنا الى رواية التبريزي في شرحه للحماسة

وجدنا أنها ناقصة أيضاً وهو لا يتعرض لقصة الحرب اكبر مما يطلبه شرح قصيدة الربيع بن زياد العبسي في مقتل مالك بن زهير (١) ، حيث يتحدث عن مقتله ويتطرق الى صلح قيس مع الربيع . وقد جاء بشيء جديد من الحوار لم يذكره المفضل ولا ابو عبيدة ، مع انه ينقل رواية أبي عبيدة حيث يقول في شرحه للبيت الثامن من القصيدة « وذاكرت شيخنا أبا القاسم الرقي وقت قراءتي عليه فذكر أن أبا عبيد يحكى هذا عن أبي عبيدة (٢) » ، وليت شعري هل كان التبريزي ينقل خبره الجديد عن رواية لأبي عبيدة غير التي في النقائض ولم تصل الينا ؟ فاذا كان هذا واقعاً حقا ، فانه دليل آخر على أن الخبر الذى نعتمده مختصر من خبر طويل أضعناه :

واذا اقتربنا من المعاجم زادت المسألة وضوحاً من حيث الاختصار فلا تجد من خبر القصة إلا هذه المقتطفات القصار بين السطور موزعة على جميع اجزاء الكتب ؛ غير أن معجم ياقوت ولسان العرب قدما من الشروح والايضاحات مالا يمكن حصره في هذا المجال .

على أن روايات هذه المجموعة الأخيرة برغم اختصارها للقصة أفادتنا بأشياء كثيرة أضافت الى رواية المفضل الضبي

(١) شرح الحماسة للتبريزي ٣ / ٢٧

(٢) المصدر نفسه ٣ / ٢٥

وأبي عبيدة جديدا : وهم على ذلك مشكورون ولاختصارهم معذورون وقد قدموا بين يدى أخبارهم أعذارهم ، كما فعل الشريف المرتضى حين قال « وجرى من الخلاف في أخذ السبق ما شرحه الرواة » . وكذلك اعتــذر ابن هشام عن ايراد خبر الحرب حيث قال « وهو حديث طويل منعني من استقصائه حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) »

وكل هذا يعني أن رواياتنا المختلفة في هذه الحرب اعتمدت في ايراد الخــبر على رواية المفضل الضبي وأبي عبيدة ورواية الأغاني ، وان جميع هــذه الروايات وبخاصة التى ذكرت في المجموعة الخامسة جاءت بأخبار جديدة دلت على أن القصــة الطويلة لهذه الحرب مفقودة ، ولم تصل الينا ، وأن هذه الروايات بعضها كاملة وفت بغرض البحث ، والبعض الآخر ناقصــة أفادتنا بأخبار في ثناياها :

والذى نود أن نضيفه الى ماتقدم هو أننا لم نحص الروايات الناقصة كلها في المجموعة الخامسة لأنها كثيرة ولا طائل في عدها : وألينا بضع منها مثالا لهــا . وسوف يرى القارىء من المتن وخـلال الحديث عن قصـة الحرب اننا نعتمد ما جاء في هـذه الروايات التى نذكرها . ونضيف ايضاً الى ما تقدم من الروايات بضعة أسطر حول مصادر أخرى للحرب يمكن اعتبارها مصادر

(١) ابن هشام ـ السيرة ١ / ٢٨٦

أولى ، منها يستقي العلمـاء والرواة والمؤرخون مادتهم ، وأول هـذه المصادر القبيلة نفسها ، حيث تعتبر أكبر ديوان للاشعار وأعظم رواية للاخبار بما يدور على ألسنة شعرائها من أحاديث البطولة والنصر وابنائها من ذكريات القتال والحرب فتعلَق في الأذهان زمانا طويلا يرويها جيل لآخر . وما أحاديث التفاخر التي تردد صداه ارجاء الصحراء إلا مظهر من مظاهر الاعتزاز بالسؤدد والمجـد : وكل فرد من أفراد القبيلة لسان من ألسنة دعايتها او جهاز من اجهزة اعلامها ينقل للعالم الخارجي قصص البطولة التي يسجلها في ميدان الشرف رجال قومه الامجاد.

وعلى ضوء من هذا نستطيع أن نجعل من القبائل الأخرى مصـدرا من مصـادر الحرب وبخاصة أولئك الذين نسميهم « الأحلاف » . فاذا حمل الحليف الى العالم أخبار حليفـه فانما يهدف من وراء هذا الى غرضين يحققهما لنفسه من وراء دعايته لبطولة غيره . الأول الظهور امام القبائل بأنه قوى تلتمس حلفه القبائل الأخرى . والثاني أنه بتحالفه يكون النصر المؤزر : وهذا هو الذي يفسر لنا ظاهرة المدح الكثير من نابغـة بني ذبيان لحلفائه بني أسد : وما أكثر مانجد في اشعار العبسيين من ذكر للعامريين عندما حلت عبس أرض عامر في أثناء الحرب .

واذن فالقبيلة ذات الشأن مصدر من مصادر هذه الحرب وكذلك أحلافها .

والذي أفاد الرواة وحمل اليهم خبر الحرب من أعماق الصحراء الى أقاصي المدن ، أن هذا الخبر كان وثيق الصلة بالشعر : فكان لكل قصيدة او مقطوعة خبرها الذى يعطى جوها وظرفها : وهذا الخبر يطول ويقصر تبعا لأهميته وخطره : فكان للقبيلة رجال يعرفون أخبار اشعارها وشعرائها ، ويحفظون لكل قصيدة أحداثها ومناسبتها وما رافق قائلها من الواقع : وكتب الثقافة العربية القديمة تزخر بقصص هؤلاء الرجال ، حتى أن العلماء كانوا يشدون الرحال اليهم : وبنظرة واحدة في أى ديوان جاهلي من دواوين الشعراء ، يلاحظ القارىء ظاهرة الأخبار المتعددة التي تقترن بالقصيدة الجاهلية : فكان من تجميع هذه الأخبار ومقارنتها الى روايات الرجال ، وما نقله العلماء والمؤرخون وآخرون كثيرون ممن يعملون في حقول المعرفة ان تكاملت قصة الحرب فدونوها في كتبهم واسفارهم : وغبَرَ زمان ، فلم يصل الينا منها الا مقتطفات أكثرها في غير كتب أصحاب الاختصاص وهم مشكورون على ما أودعوه في كتبهم على الرغم من انه مخلوق لا تكاد تَبِين معالمهُ حتى يغمض علينا اسمه او رسمه .

* * *

قصة الحرب :

لقد أمسكتُ بزمام رواية المفضل الضبي واتخذت رواية ابن الأثير رديفا لها ، وألحقت بهما رواية أبي عبيدة ؛ وجعلت أضم اليها كل خبر جديد أحظى به في الروايات الأخرى بصدد توثقي منه ، متمما العضو الناقص أو المبتور من القصة ، ناشدا الكمال الذي حكمت مصادر الأدب القديمة بأنني لن أحققه بهذه النخبة الصغيرة من القصص القصيرة ، والأخبار القليلة الصماء ؛ وهي التي كلما استنطقتها لأحصل منها على شيء من العلم تأبى أن تنطق أو تَنُمَّ ولو عن قليل من الجواب . لهذا فان أكثر تساؤلاتي بقيت تدور وتدور في ذهني المكدود حتى شعرت بالأسى الممض ، ولكن روح البحث والتقصي تنطلق الى بغيتها من طرق أخرى لعل فيها بصيصَ نور ؛

واغرب ما لقيته في للروايات المختلفة التي تحدثت عنها قبل قليل ، أن أصحابها ربما اتفقوا كلهم على أمر مجمعين ، ولكنهم اذا اختلفوا فأنهم سيختلفون مجمعين أيضا . ففي الأولى راحة لا تُنسى وسعادة لا توصف ، وفي الثانية القلق والعذاب ؛ والدارس فارس ينساب بينها يمتطي صهوة فرسه شادا على الزمام ينتظر بلوغ الغاية ؛

واقد ذكرت في أول هذا الفصل ، أن مبعث الحرب كان رهانا على فرسين يدعيان داحسا والغبراء بين رجل من سادات عبس يدعى قيس بن زهير وآخر من سادات ذبيان يدعى حذيفة ابن بدر الفزاري : وسبق الحديث عن داحس واتفاق الرواة أن أصله من خَيْلِ بني يربوع ، وأن قيس بن زهير حصل عليه من غارة قام بها عليهم : وكان قد استبدله بغنيمة ضمت فتاتين وأسرى ومائةَ بعير : فلما رأى الفَرَس وقد انطلق به غلامان أزنميان (١) وكان مقيدا فضربها ونجا رغب قيس فيه وحكم اليربوعيين بالفتاتين والأسرى والمائة البعير مقابل الفرس ، فأبى الغلامان أول الأمر فبعث شيخ من الأسرى بأبيات من شعر (٢) الى القوم فرضوا فلما اخذ قيس ثار قومه بوجهه وقالوا : «عمدت الى الغنيمة والأسرى والفتاتين وابدلتها بفرس رغبت فيه والله لا نرضى ابدا» وكاد الشرُّ يعمّ لولا أن أرضاهم قيس فاشترى غنيمتهم بمائة من ابله فهدؤا : ومع أن قصة الفرس هذه يبدو عليها طابع الافتعال ، الا أن الرواة اتفقوا عليها (٣) : وأكبر

(١) من أزنم وهي قبيلة

(٢) الأبيات ومصدرها ذكرا في ص : ٩٢ من هذا الفصل .

(٣) ينظر في قصة الحرب المفضل الضبي أمثال العرب ص ٢٦ وما بعدها وأبو عبيدة ـ النقائض ١ / ٨٣ وما بعدها والمفضل بن سلمة ـ الفاخر ص ٢١٩ وما بعدها والاغاني ٧ / ١٢٤ وابن الأثير ـ الكامل ٢ / ٣٤٤ .

الظن أنهـا وضعت لتعظيم الفرس في أعين النـاس وأبرازها في الذهن على أروع صورة (١) . واذا كان الرواة اتفقوا في داحس على هـذا الشكل الموضوع أو المفتعل فانهم اختلفوا في الغبراء سواء في نسبتها لشخص معين أو في أصلها ، فزعم بعضهم أنها فرس لحذيفة (٢) ، وزعم آخرون أنها فرس لقيس (٢) ، وقال آخرون هي لحمل بن بدر (٢) ، أخي حذيفة وقال بعضهم ان حذيفة حصل عليها مع داحس في غارة بني يربوع أو أن قيسا أنزى داحسـا فرسا أخرى ، فأنجبت الغبراء . وقيل انـه حصل عليها عندما اقتاد ابلا للربيع بن زياد عند مشاحنته واشترى بها دروعا وجيادا كان منها داحس والغبراء (٢) .

وخلاصة الأقـوال ان داحسا فرس لقيس بلا خلاف . ويحوم الشك حول الغبراء . ولكن الذي قال ان داحسا والغبراء من خيل قيس قال أيضا ان حذيفة اركض قرزلا والحنفاء او الخطار والحنفاء (٢) وقيل انهما تراهنا على داحس والغبراء فقط أيهـما أسبق ، وهي من خيل قيس ، وغـاية كل منهما أن يثبت

---

(١) المفضـل الضبي ص ٢٧ - ٢٨ وأبو عبيدة ١ / ٨٦ وابن الاثير ١ / ٣٤٦ والاغاني ١٧ / ١٢٧ .

(٢) المفضل بن سلمة ص ٢١٩ والميداني - مجمع الأمثـال ٢ / ٥٧ وسيرة ابن هشام ١ / ٢٨٦ وابن عبد ربه ٣ / ٦٧ وياقوت معجم البلدان ١ / ٣٩١ « اصاد » والنويري نهاية الارب ٣ / ٦٧ .

للآخر ان نظره في الخيل أثقب : وليس هذا الخلاف بمبدل من الأمر شيئا : فهي حرب أثارها رهان على فرسين أيهما أسبق وان كان قول عنترة في رثاء مالك بن زهير يوحى أنهما فرسان فقط وانهما لقيس بن زهير . والروايات عديدة في هياج هـذا السباق : فبعضها تقول ان سببه زيارة قيس لحذيفة ليسترضيه وكان غضب عليه بسبب جارية غنت في مجلس احد الملوك (١) ، واخرى تقول ان رجلا من بنى عبس يدعى ورد بن حابس العبسي ، وهو ابو عروة الشاعر - عرف بالشؤم - زار حذيفة وامتدح خيل قيس عنده فأغضب ذلك حذيفة وانتهى الأمر الى رهان ، وكان قيس كارها له فقال : «لا ينتهي الرهان الا الى شر » . وتذهب بعض الروايات (٢) الى ان مبدأ الرهان كان بين رجلين من عبس وذبيان : وقيل ذبيانيين اثنين على داحس والغبراء فرسى حذيفة وقيس : وكان الرهان على عشر قلائص ، فلما حضر قيس ركب الى المتراهنين ليبطل رهانهم فقال الذبيانيون كلا لا نرضى الا اذا اعطينا سبقنا فان اخذنا فحقنا وان تركنا تركنا حقا عرفته لنا وعرفناه لأنفسنا فأغضب ذلك قيسا ورفع

---

(١) مضى خبر هذه القصة ومصدرها في ص : ٥٥

(٢) المفضل الضبي ص ٢٧ وابو عبيدة ١ / ٨٦ وابن الاثير ١ / ٣٤٦ والاغاني ١٧ / ١٢٧ والمفضل بن سلمة ص ٢١٩ والميداني ٢ / ٥٧ وابن هشام - السيرة ١ / ٢٨٦ .

الرهان الى مـائة فرس (١) . فاتفقوا على ثلاث خلال فمن بدأ اختار واحدة وللثاني الخلتان الأخريان . فبدأ قيس فقال «الغاية من مائة غلوة» قال حذيفة فالمضمار (٢) اربعون ليلة والمجرى من ذات الأصاد . ففعلا ووضعا السبق على يدى غلاق (٣) ، فخرج رجل من بنى محارب على النـاس فقال : «وقع البأس بين ابنى بغيض» . وفي اليوم المحدد للسباق خرج حذيفة بن بدر وقيس ابن زهير واتيـا المـدى الذي أرسلت الخيل منـه ينظران كيف خروجها ـ وكان حمل بن بدر أكمن فرسـانا على طريق الخيل في شعب عرف فيما بعـد باسم «شعب الحيس (٤)» نسبـة الى الحيس الذي أطعمهم حمل ايــاه ، وكان موضوعـا في دلاء ، وأوصاهم ان جـاء داحس سابقا أن يردوه عن الغاية ـ وجدير بالذكر ان هذا الموضع يقع في بلاد فزارة مما شجع حملا أن يلعب

(١) يؤيد ذلك قول قيس :

وقالوا قد قمرناه خداعا وابن الخدع من مائه الجياد

(٢) المضمار هو أن تؤخذ الخيل وتضمر أي موضع سروجها على ظهورها أربعين يوماً فتعرق فيزول سمنها ورهلها وذلك أحسن لها .
والغلوة رمية بالنشاب .

(٣) الغلاق الذي يده الرهن وهو الحكم أيضاً

(٤) شعب بالشربة بين هضب القليب من أرض فزارة . ياقوت معجم البلدان ٣ / ٣٤٧ .

لعبته هـذه ، وذرعوا المسـافة فانتهى للذرع الى موضع ليس له اسم فعرف بواردات نسبة الى ورود الخيل ؛ والذي منع العبسيين أن يردوا حذيفة وقومه في يوم السباق أنهم لم يشهدوا هذا اليوم كلهم وانما الذي حضر ابيات قليلة من عبس ؛

ولما أرسلت الخيل جرى بين قيس وحذيفة حوار صارت عباراته فيما بعد امثالا يضرب بها في مناسباتها . قال حذيفة : خدعتك يا قيس فقال : « ترك الخداع من اجرى من مائة » فارسلها مثلا . ثم ركضا ساعة فجعلت خيل حذيفة تسبق خيل قيس فقال حذيفة : سبقت يا قيس فقال قيس : « جرى المذكيات غلاب » ، فأرسلها مثلا . ثم ركضا ساعة فقال حذيفة : « انك لا تركض مركضا » فأرسلها مثلا ؛ ثم قال سبقت خيلك يا قيس « رويد يعلون (١) الجدد » فأرسلها مثلا ؛ وكانت خيل حذيفة اذا أسهلت غلبت ، واذا أوعرت غلبتها خيل قيس لأن الذكور في الصعاب اصبر ؛ وكانت خيل قيس ذكورا ، والاناث في السهول اسرع . وكانت خيل حذيفة أناثا ، والفحل يتمخطر في السهل فيكسل فتغلبه الانثى ؛ وامثال على هذا النمط كثيرة في الروايات المختلفة ، وقـد اخترت التي ذكرها المفضل الضبي في روايته ؛ ولما اقتربت الخيل من الثنية التي كمن فيها الفرسان كان داحس في مقدمة الخيل ، فخرج اليه احد افراد الكمين

---

(١) انظر ابن قتيبة - المعاني الكبير ١ / ٢٩

فلطمه هو وراكبه ، ولم يخرج الا وقد فاتته الخيل . ولما دنت الخيل الى حيث وقف الناس جاء داحس والغلام يشير به على رسله فأخبر قيسا الخبر فأنكر حذيفة وادعى السبق ظلما : أما قيس فقد مضى هو وأصحابه الى الشعب حيث يكمن الفرسان ، فوجدهم ووجـد الرجـل الذي حبس داحسا ولطمه فاعترف الرجل بذلك وكان من بني اسد :

ولج قيس في طلب السبق ، وانكر حذيفه عليه ذلك وادعاه لنفسه : وصارت فزارة لا تزداد الا بغيـا وايذاء ، حتى قام رجل من بني مازن بن فزارة فقال : « يا قوم ان قيسا كان كارها لأول هذا الرهان وقد احسن في آخره وهو لم يطلب إلا جزورا واحدا يطعم به أهل الماء وان الظلم لا ينتهي الا الى شر فأعطوه جزورا ينحرها لهم » : فقام رجل من بني مازن وقال : « مائة جزور وجزور واحد سواء والله ما كنا لنقر بالسبق علينا » فنهض آخر منهم وعمـد الى جزور من ابله فعلقها يريد أن يعطيها قيسا ويرضيه فقام اليه ابنه وقال : « انك لكثير الخطأ ، أتريد ان تخالف قومك وتلحق بهم خزاية بما ليس عليهم » ؟ فأطلقها الغلام من عقالها فراحت تلحق بالابل : فلما رأى ذلك قيس احتمل هو ومن معه من بنى عبس وساروا عائدين الى ديارهم .

لكن حذيفة لج في طلبه وصار يبعث ابنه مطالبا بالسبق ،

فكان عقلاء قومه يصرفونه عن ذلك : فقال له أحدهم : «يا حذيفة ان قيسا لم يسبقك الى مكرمة وانما سبقت دابة دابة فما في هذا حتى تدعى في العرب ظلوما ؟» . وفي احدى غدوات ابن حذيفة على قيس في طلب السبق المزعوم تناول قيس رمحه ودق به صلب الغلام : فلما عادت فرسه الى بني فزارة عرف أبوه ان ابنه قد قتل ، وصاح في الناس وركب الى بني زهير ، لكنهم كانوا قد تحولوا عن جوارهم الى جهة مجهولة ، ووجد حذيفة ابنه على الأرض فانحنى وقبل بين عينيه ودفنوه (١) :

ودفعت دية القتيل وكانت مائة عشراء (٢) متلية (٣) فأنزلها حذيفة بن بدر على النفرة ونتجها ما في بطونها :

وكان الربيع بن زياد العبسي مشاحنا لقيس بن زهير العبسي بسبب درعه (٤) ، فلما سمع بقصته مع حذيفة أول الأمر سره

---

(١) وفي رواية المفضل أنه أخوه عوف بن بدر والذي ذكرناه عن ابن الأثير وهو الذي ورد ذكره في بقية المصادر .

(٢) االعشراء التي أتى على حملها عشرة أشهر

(٣) المتلية التي نتج بعضها ويتلوها الباقي في النتاج .

(٤) كان قيس اشترى الدرع من أحيحة بن الجلاح في المدينة ومر بالربيع بن زياد وهو ابن عمه فسأله الربيع مافي حقيبته قال قيس : « متاع عجيب لو أبصرته لراعك » واناخ راحلته واخرجه فتقامرا فغلبه الربيع عليها فغضب قيس لأنه اشتراها=

ذلك وقـال لصحبه « هلك والله قيس ، وكأني به ان لم يقتلـه حذيفة وقـد اتاكم يطلب منكم الجوار ، اما والله لئن فعل مالنـا من ضمه بد » :

وكان مـالك بن زهير العبسي اخو قيس بن زهير متزوجا في فزارة من امرأة تدعى مليكة بنت حارثة . فنزل بها « اللقاطة » قريبا من « الحاجر » فدس له حذيفة فوارس وأوصاهم ان هم ظفروا بمالك بن زهير أن يقتلوه . وكان قيس قد نهى أخـاه عن بني فزارة وحـذره من غدرهم فامتنع بعـد مكـاتبات ومحاورات (١) :

وكان الربيع بن زيـاد العبسي في جوار بني ذبيـان أيضا ،

= ليثأر بها لابيه ، وطلب من الربيع أن يردها فلم يفعل . فتربص قيس لأمه فاطمة بنت الخرشب ليختطفها لكنها قالت له : ويحك أتريد أن تصطلح أنت وبنو زياد وقد اخذت أمهم وطوفت بها يميناً وشمالا . فادرك قيس ما قالته وعاد بها ، على ان تقنع أبنها ليرد الدرع فوعدته ، لكن الربيع أبى . فعمد قيس إلى ابل الربيع فاستاق منها أربعمائة بعير سار بها الى مكة وباعها لعبد الله بن جدعان واشترى بثمنها دروعاً وقيل خيلا كان من بينها داحس والغبراء . ابن الاثير ١ / ٣٤٤ .

(١) التبريزي - شرح الحماسة ٣ / ٢٧ . انظر الأبيات والمحاورات التي أوردها .

متزوجا من معاذة بنت بدر أخت حذيفة : وانطلق القوم فلقوا مالكا فقتلوه . وأخذ منه حمل بن بدر بعد ان قتله سيفه « ذا النون » وعادوا الى حذيفة والربيع عنده . فقال حذيفة « أقدرتم على حماركم » قالوا « نعم وعقرناه » . فقــال الربيع لحذيفة « ما هـذا الوحي أهلكت أفراسك من أجل حمار » ؟ وجعل يكثر عليه في الملامة حتى قال له حذيفة « لم نقتل حمارا ولكن قتلنا مالك بن زهير » : فقـال الربيع « بئس والله القتيل قتلت أما والله لأظنـه سيبلغ ما نكره » . وتراجع ثم انطلق الى بيته يطأ الأرض وطئا شديدا ، ومضى الى فرسه فمسح عليه بيده وكان رمحه مركوزا بفناء البيت أخـذه وهزه شديدا ثم ركزه كما كان . وطلب من امرأته ان تطرح له شيئا فاضطجع . وكانت قد طهرت تلك الليلة فقـال لها : اليك عنى قد حدث امر وانشد يقول (١) :

نامَ الخليُّ وما أغـمضُ حارِ من سيءِ النبأِ الجليلِ الساري

والتي يقول فيها :

أفبعدَ مقتلِ مالكٍ بمَضيعَةٍ ترجو النساءُ عواقبَ الأطهارِ

ويبدو أن مالكا كان فتى عزيزا على العبسيين كلهم فقـد جزع لمصابه الجميع فاصطلحت الأشتات المتفرقه وطلب الربيع ابن زياد من حذيفة أن يسيره :

وكانت خفرة الجار عندهم ثلاث ليال فسار . وكان حذيفة

---

(١) المفضل الضبي ص : ٣٠ والبحتري - ديوان الحماسة - ص : ١١٤

بعث وراءه ليقتلوه ، ولكنه كان أسرع منهم فنجا (١) : والتحق ببني عبس فوجدهم على أسوأ حال من الحزن لمقتل مالك وتصالح هو وقيس وتعانقا : وقالا كلاما كثيرا أورده الرواة (٢) منه قول الربيع لقيس « : : : وأنت ظالم ومظلوم ظلموك في جوارهم وظلمتهم في دمائهم : قتلوا أخاك بابنهم فان يبؤ الدم بالدم فعسى أن تلقح الحرب أقم معك ، وأحب الأمرين الى مسالمتهم ونخلو لحرب هوازن (٣) » :

وبعث الربيع وقيس لأهليهما ونزلوا معا واجتمعوا فأنشدهم عنترة مرثيته في مالك (٤) : فلما علم حذيفة باتفاق قيس والربيع شق عليه الأمر واستعد للبلاء : فلما بلغ ذلك حمل بن بدر قال لحذيفة أخيه : بئس والله الرأى رأيت ، قتلت مالكا وخليت سبيل الربيع والله ليضرمنها عليك نارا :

ووقعت الحرب : : :

وقبل أن يلتقى الجيشان في أول وقعة لهم كان قيس والربيع قد طلبا من حذيفة أن يرد اليهم دية القتيل التي دفعوها اليه ،

---

(١) انظر قصة ملاحقته في المفضل وابي عبيدة والاغاني .

(٢) التبريزي - ٣ / ٢٨ .

(٣) يشير الى حربهم مع العامريين انتقاما لزهير بن جذيمة الملك الذي قتله خالد بن جعفر .

(٤) مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٦٢ وابن الاثير ١ / ٣٤٦ .

وكانت مائة عشراء متلية لأن قتيلهم باء بدم مالك : فقبل حذيفة بادئ بدء ، ولكن سنان بن حارثة المرى ونفرا من قومه قبحوا رأيه ولاموه ، وقالوا : أتريد أن تلحق بنا خزاية تسبنا بها العرب وتهجونا ، وتعطيهم أكثر مما أعطونا ؟ فاذا كنت رادا لهم الدية فأعطهم ابلا عجافا : ولكن العبسيين أبوا أن يأخذوا الا ابلهم التي اعطوها وما أنتجت في تلك السنة ، وكان قد مضى على الحادثة اربع سنوات : فاجتمعت عبس على قتال فزارة وجمع حذيفة قومه . وتعاقدوا على القتال أيضا : وكان اول امره غارات تقوم بها احدى القبيلتين فتستعد لها الأخرى وتحمى نفسها ضد الغارة حتى التقوا في أول معركة لهم تدعى « المعنقة (١) » أو (العنق) (٢) أو (المريقب) (٣) أو (قرابين) (٤) : فكان بينهم قتال شديد قتل فيه مالك بن بدر اخو حذيفة قتله جنيدب ابن خلف العبسي ، وقتل آخرون : فانهزمت فزارة ، فأمسك

---

(١) المفضل الضبي ص ٣٣ وابو عبيدة ١ / ٨٦ وهي مياه في أرض فزارة .

(٢) ابن الاثير ١ / ٣٤٧ وذكر أنها مياه .

(٣) الفاخر ص ٢٢٤ وابن عبد ربه ٣ / ٦٩ وفيها قتل عنترة ضمضما المري .

(٤) ديوان الحطيئة : ٣١٦ ، وذكر ياقوت أنه واد بنجد كانت فيه أول وقعة لهم .

الربيع بن زياد العبسي بحذيفة بن بــدر وأسره . وكان حر بن الحارث العبسي نذر ان هو قدر على حذيفــة أن يضربه بسيفه « الأصرم » : فأرسل الربيع الى امرأته فغيبت سيفه ونهوه عن قتل حذيفة وحذروه عاقبة ذلك فأبى الا ضربه ، فوضعوا عليــه الرحال فضربه فلم يصنع السيف شيئاً ؛ وبقي حذيفة في الأسر حتى اجتمعت غطفان وسعت في الصلح : فاتفقــوا أن يهدروا دم القتلى بعضها ويعقلوا دم مالك بن بدر ويعطوا حذيفة على الضربة التي ضربه حر بن الحارث مائتين من الابل وأربعة أعبد ؛ واهدر حذيفة دم من قتل في هذه الوقعة وطلق من الاسر فلما رجع الى قومه ندم وساءت مقالته : فجعل سنان بن حارثة يقبح رأي حذيفة في الصلح وقدمت جماعة من يثرب ساعية في السلم بينهم عمرو بن الاطنابة الشاعر ومالك بن عجلان وأحيحة ابن الجلاح وقيس بن الخطيم الشاعر ، وهم الأنصار فيما بعد : فوصلوا اليهم لكن عنــدما ظهر لهـم بغي حذيفــة حذروه وعادوا عنه :

ولما تفاقم الشر بين الطرفين وصار كـل جانب يحمل في أعماقه ضد خصمه أحقادا وثارات ، وجد بعض المتعقلين أن يقفوا عند حد يمكنهم من حقن دماء القوم على اقل تقدير ومن ثم يتدبرون شؤون الصلح الأخرى . فمشى بذلك أحد رجالات بني عبس هو الأسلع بن عبد الله فقصد رجلا من بنى ثعلبة

يدعى سبيع بن عمرو بن ثعلبة ورهن لديه سبعة صبية او ثمانية وبقيت الصبية لدى سبيع حتى وافته منيته . فسلمها لابنه مالك وقال له : « ان عندك مكرمة لاتبيد ان احتفظت بهؤلاء الأعيلمة » وأشار عليه ان هو رأى من خاله حذيفـــة مايكره أن يسلمهم الى أهلهم ، لكن حذيفة أطاف به ولم يزل يخدعه حتى دفعهم اليه « باليعمرية (١) » فجعل يبرز كل يوم غلاما يضعه غرضا لنباله يرميه حتى يخرقه النبل والغلام يصرخ ، مناديا أباه او عمه وكان من بين القتلى عتبة بن قيس بن زهير . ونحن لم نتوسع في الصورة المؤلمة التي يوردها الرواة في قتل هؤلاء الأطفال الأبرياء وقد أظهر بعضهم ضروبا من الشجاعة أغاظت حذيفة (٢) .

ولما بلغ عبسا فعل حذيفة وذبيان بابنائها أتتهم « بالحاثرة » من جنب « ذى بقر » فدارت حرب عظيمة قتـــل فيها من المشهورين مالك بن سبيع الذى دفع الصبية لحذيفة ، قتله مروان

---

(١) ماء بواد من بطن نخل من الشربة لبني ثعلبة
أبو عبيدة ١ / ٩٣ ـ وياقوت معجم البلدان ٥ / ٤٣٨ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٩٣ ويذكر ابن الاثير ان دفع الرهائن كان مرتين الأولى دفعوا غلامين قتلهما حذيفة وفي المرة الثانية كانوا أربعة . الكامل ١ / ٣٥٠ والذي اخترناه رواية المفضل الضبي ص ٣٣ وابي عبيدة ١ / ٩٢ لانهما أقرب المقبول .

ابن زنباع فارس عبس المشهور (١) ومن القتلى أيضاً عبد الله ابن حذار الثعلبي ، والحارث بن بدر الفزاري أخو حذيفة وكان قبله عوف قد قتل ، وهرم بن ضمضم المري قتله ورد بن حابس العبسي ابو عروة ولم يكن حذيفة في المعركة حاضرا .

وهنا ، وبعد هذه الحرب المهلكة للرجال الكبار تدخل الخصومة طورا جديدا من العنف ، وتأخذ شكل الابادة في القتل كما تكشفه الصفحات المقبلة .

• • •

اتساع نطاق الحرب :

لقد أخذت الحرب تتسع وتلف في نطاقها الحلفاء من اسد وطي وسائر بطون غطفان وقد ساروا كلهم مساندين ذبيان لضرب العبسيين الضربة القاضية . فاجتمعت عبس وتشاورت في أمرها ، ورأى أمراؤها ان يأخذوا بخطة قيس بن زهير ، وكانت الخطة ان تترك عبس الأموال ، وان تسرح السوام والضعفاء ليلا وترحل عند الصبح ، ويتخذ المقاتلون غير طريق المال . فاذا قدمت الجيوش المتحالفة سوف تنشغل بالنهب والسلب والغنائم ويعلقون سيوفهم على ظهور ابلهم ويأمنون .

(١) انظر ترجمته في ص ٣٠ .

وكان قيس أبقى فارسين أحدهما على داحس والآخر على فرس غيره يراقبون العدو من حيث لا يراهم ، حتى اذا انتهوا وعلقوا سيوفهم جاء الفارسان بأعظم ما يستطيعان من السرعة الى العبسيين فاخبروهم . فادركهم العبسيون وهم على حال تفرق وتشتت وجعل الرجل منهم يطرد ما قدر عليه من الابل ويذهب بها ، وتفرقوا ، لكن عبسا وضعت فيهم السلاح . وكان حذيفة نهى قومه عن السلب ، غير أن الأمر افلت من يديه وكان قد ظفر بتماضر بنت الشريد السلمية أم قيس فقتلها وكانت في المال . وكثر القتل في ذبيان وأحلافها حتى اضطر حذيفة أن ينفرد في خمسة فوارس من قومه . ولم تكن همة قيس بن زهير سوى أن يلحق بحذيفة فاقتفى اثره حتى عرف حنف (١) فرسه فتتبعوه حتى استغاث بجفر الهباءة (٢) . وقد اشتد الحر فرمى بنفسه في ماء الجفر ، ونزل معه أخوه حمل بن بدر وحنش بن عمرو وورقاء ابن بلال وحصن بن حذيفة وكان صبيا ونزعوا سروج خيلهم

(١) الحنف أن تقبل احدى اليدين على الاخرى ، وفي الانسان احدى الرجلين على الاخرى .

(٢) الجفر مالم يطو في الآبار . المفضل الضبي ص ٣٤ وانظر ياقوت معجم البلدان ٥ / ٣٨٩ حيث ذكر انها افواه أبار كثيرة مخرقة الاسافل يفرغ بعضها في بعض الماء العذب الطيب ، ويزرع عليه الحنطة والشعير وما أشبهه .

وسلاحهم : وما كـاد قيس يقترب حتى تمعكت الـدواب ، فأدركهم شداد بن عمرو بن الأسلع أبو الصبي المقتول ، وقرواش ابن هنى حتى تتاموا خمسة : فحمل جنيدب على خيلهم فاطردها ، وحمل شـداد وعمرو بن الأسلع عليهم في الجفر : فقـال حذيفة « يا قيس فأين العقول والأحلام ؟ » فضربه حمل بين كتفيه وقال : « اتق مأثور القول بعد اليوم » فارسلها مثلا : وقيل حمل هو القائل وحذيفة هو اللائم : وقـال حذيفة لقيس أيضا : لئن قتلتني لا تصلح غطفان أبدا فقـال قيس : « أبعدها الله ولا أصلحها » ، وحملوا عليهم وهم ينادون « لبيكم لبيكم » ، يريدون الصبية الذين كانوا ينادون آباءهم في اليعمرية والنبال تخرقهم : وقتل حذيفة ، قتله قرواش بن هنى وكان قرواش خلف حذيفة فنبهه صحبه ليتقيه فقال : « خلوا بين قرواش وظهرى » لأن حذيفة كان قد رباه في أيتام غطفان (١) وظن انـه سيشكر له صنيعه ، وقصم قرواش ظهر حذيفة بمعبلة في يده : وحمل الحارث بن زهير على حمل بن بدر فقتله واسترجع سيف مالك أخيه « ذا النون » وكان حمل أخذه منه يوم قتله أول أيـام داحس كما مر بنا . ومثلوا

(١) انظر ص ٣٦ حيث ورد ان الملك النعمان بن المنذر زوج سنان ابن حارثة (من ذبيان) اخته وأعطاه ابنـه ليربيه فى اطفال غطفان . ويبدو من هذا انهم اوجدوا ما يشبه الجمعيات الخيرية او المدارس لتربية الاطفال في مختلف الاحوال .

بالقتلى وقطعوا رؤسهم ، وكانت فزارة فقط وهي حي من أحياء ذبيان خسرت في هذه الوقعة ما يزيد على أربعمائة قتيل لذلك كانت تسمى هذه الوقعة «البوار» وخسرت عبس عشرين قتيلا ولم يبق من رجال الجفر سوى حصن بن حذيفة واستبقوه لصباه (١) :

وندم قيس بن زهير بعد قتل حذيفة واخوته ، فرثاه بالأبيات المشهورة وهو أول شاعر يرثى مقتوله (٢) :

تعلَمْ انَّ خيرَ الناسِ مَيْتٌ على جَفْرِ الهباءةِ لا يريمُ
ولولا ظلُمهُ ما زلتُ ابكِى عليه الدهرَ ما طلَع النجومُ

ورثاه حذيفة بن زهير أخو قيس وقد جزع (٣) عليه :

كم فارسٍ يُدعَى وليسَ بفارسٍ
وعلى الهباءةِ فارسٌ ذو مَصدَقِ
فابكوا حذيفةَ لن ترثوا مثلَهُ
حتى تبيدَ قبائلٌ لم تُخلَقِ

وكثر القول في يوم جفر الهباءة حتى أن الشعراء صاروا يعيرون بنى بدر فقال عقيل بن علفة المرى (٤) :

(١) المفضل الضبي ص ٣٥

(٢) ابن هشام السيرة ١ / ٢٨٦

(٣) الميداني ـ مجمع الامثال ٢ / ٦٢

(٤) المفضل بن سلمة ـ الفاخر ص ٢٨ ، وابن عبد ربه ٣ / ٧٠

ويوقدُ عوفٌ للعشيرة نارَها فهلّا على جفرِ الهباءةِ أوقدا
فانّ على جفرِ الهباءةِ هامةً تنادي بني بدرٍ وعارا مخلّدا

وظل الندم يلازم قيس بن زهير فقال أيضا يرثيهم (١) :

شَفيتُ النفسَ من حَمَلِ بنِ بدرٍ
وسيفي من حذيفةَ قد شَفاني
قتلتُ باخوتي ساداتِ قومي
وهم كانوا لنا حِلْيَ الزمانِ
فانْ أكُ قد بردتُ بهم غليلي
فلم أقطعْ بهم الا بَناني

* * *

امتداد الحرب الى خارج غطفان :

بعد وقعة «جفر الهباءة» ، تدخل حرب غطفان مرحلة جديدة من اتساعها ، وكانت قبل ذلك قد شملت قبائل أسد وطي : أما بعد هذه الحرب ، فانها شملت أرضا جديدة غير غطفان وقبائل أخرى غير أسد وطي : فكأنما أبت هذه الدماء البريئة الا أن تروى أقطارا بعيدة من شبه الجزيرة . وكان قيس ابن زهير كما رأينا قد شعر بالندم على ولوغه في الدماء وبالحزن

(١) ابو تمام - الحماسة « المرزوقي » ١ / ٢٠ .

على قتل رجالات غطفان أبناء عمومته من ذبيان . فلم يجد بدا هو وقومه من الخروج الى أرض بعيدة لكي تتوقف هذه الحرب ويلم شعث قومه وأهله ويعطى الفرصة لسعاة الصلح أن يتدبروا الأمر . ولم يكن في ذبيان من يتدبر الرئاسة بعد حذيفة وقد قتلوا جميعا سوى سنان بن أبي حارثة المرى الذي قادهم وجمع شملهم ، وأخذ يدور في العرب متخذاً من مقتل حذيفة ذريعة لتجديد الحرب كي يثأر لجميع الرجال المقتولين من قومه .

وقد استطاع سنان أن يضم الى ذبيان غطفان كلها وبني أسد وطي . وكان قيس ما يزال في أرضه لم ينفذ عزمه على الرحيل فسمع بخبر الجيش الذي جاء به سنان فقال لقومه : الرأي اننا لا نلقاهم فاننا وترناهم وهم يطالبوننا بالثأر ، وقد رأوا ما نالهم باشتغالهم بالنهب والمال فهم لا يتعرضون اليـه الآن ، والذي ينبغي أن نفعله أننا نرسل الظعائن والأموال الى بني عامر فانهم لا يتعرضون لـكم لأنكم أنتم الذين تطلبونهم (١) بثأر وليسوا هم ويبقى هنا أولوا الجلد والقوة على ظهور الخيل ونماطلهم القتال فان أبوا الا القتال احرزنا اهلينا واموالنا وقاتلناهم وصبرنا لهم ، فان ظفرنا فهو الذى نريد وان كانت الأخرى احرزنا أهلينـا

(١) كانت عامر قتلت زهير بن جذيمة العبسي قتله خالد بن جعفر ابن كلاب ويبدو أنه حتى فترة اشتعال هـذه الحرب لم يكن الحارث بن ظالم قد قتل خالداً ثأراً لزهير .

ولحقنا بأموالنـا ونحن على حاميــة . وقدمت ذبيان وحلفاؤها فالتقت مع عبس على « ذات الجراجر » واقتتلوا قتالا شديدا كثرت فيه الضحايا من الطرفين . والتقوا في اليوم الثاني فكان القتل أشد من اليوم الأول وظهرت في هذا اليوم شجاعة عنترة ابن شداد العبسي (١) ، فلما رأى الناس ان شبح الموت آخــذ بخناقهم وتشتد سواعده عليهم كل يوم ونظروا الى كثرة موتاهم من الطرفين ، تطيروا من سنان بن أبي حارثة المرى وتذكروا أنه هو اللذى منع حذيفة عن الصلح ، وجاء بهم الى هنا هـذه الأيام : فامتنعوا عن القتال واستمر بها سنان ، لكنه لقى من قومه فتورا وعدم رغبة في الحرب فعاد هو أيضاً .

أما قيس بن زهير وقومه فقد أخذوا طريق بني شيبان بن بكر فلم تعد أرضهم تصلح لسكناهم ، لأن الذبيانيين تحالفوا مع جارات عبس من جهاتها الثلاث « تميم وأسد وطي » والطرف الآخر ذبيان نفسه فاضطرت أن تترك أرضها : والحرب غالبا ما تجلى القبائل عن أرضها الى جهات أخرى من شبه الجزيرة (٢)

---

(١) لقد ظهرت شجاعة عنترة في اول حرب حيث قتل ضمضما المري كما رأينا .

(٢) ساعد هذا العامل في توحيد اللهجات وسيادة لغة نجد والحجاز وبخاصة في هذه الحرب حيث سيضرب العبسيون في أرجاء الجزيرة وهم قوم ذوو فصاحة . وقد اعترض الدكتور عبد الجبار المطلبي =

ومكثت عبس مجاورة بني شيبـان زمانا حتى رأى قيس من علمانهم ما يكرهه من التعرض لأموالهم فعـزم على تركهم ، فلحقتهم شيبان فتصدت لهـا عبس وردتها فانهزمت شيبان ، فسارت عبس الى هجـر ليحالفوا ملكهم معاوية بن الحارث الكندي الملقب « بابن الجون » . فنزلوا بهجر وامتاروا ثم حلوا على بني عبس بن سعد بن زيد مناة وهم « بالفروق » (١) وبقوا الى جوارهم بأمان ثلاث ليال ، وجاءهم قيس بعدها ليحالفهم فقالوا « نعم تصبح غدا فننحر الجزر ثم نخوض في دمائها كي يكون أشد للحلف » .

= واستبعد ان يكون هذا العامل مجدياً في ظرف اربعين سنة فكان جوابنا عليه ان قلنا : « صحيح إن جلاء عبس كان قريباً من الاسلام بما يقرب من اربعين سنة ، لكن المقصود هنـا عملية الجـلاء المستمرة منذ اوائل العصر الجاهلي المتقدم ، أي قبل الاسلام بما لا يقل عن مائتي سنة ، بالنسبة الى القبائل العربية الاخرى خلال الحروب التي لا نعرف عنها شيئاً سوى اسمائها . ولم يكن قصدنا حرب داحس والغبراء فحسب ، الا ان هذه الحرب خير مثل لما نزعمه » .

(١) فروق أي جزوع . عقبة دون هجر الى نجد بين هجر ومهب الشمال . وكان فيـه يوم من أيامهم لبني عبس على بني سعد . ياقوت ـ معجم البلدان ٤ / ٢٥٨ .

ولم تكن غايتهم إلا الغــدر ، فلما رجعوا الى بيوتهم قال قيس وكان حازماً « أرأيتم في وجوه القوم ما رأيت » . قالوا : (لا) قال : « احلف بالله ليقتسمنكم بالغداة فذروني حتى آتيكم بالخبر » . فتزيا قيس بزى امرأة متسولة ولبس خلقانا وأتى بيوتاً من عبشمس وسألهم طعاما . فخرجت له امرأة منهم وقالت له : « ويحك يا مسكينة اصبرى حتى الصبح ونقتسم بنى عبس ونعطيك ما شئت » ، فأخفى غيظه وورع نفسه ورجع .

ثم قال لقومه انهم يريدونكم ، فلم يصدقوا وقالوا بل أنت مشئوم ، فاعتزلهم . وكانت امرأة من عبشمس متزوجة عبسيا جاء أهلها ليضموها اليهم قبل الغارة ، فأخبرت زوجها الخبر ، فأخبر به قيسا والعبسيين . فحاولوا أن يجدوا لأنفسهم مخرجا طوال الليلة فلم يفلحوا ، وجاءوا قيسا فاستأذنوه فأبى أن يأذن لهم . فرفع الربيع بن زياد صوته لتسمعه ابنته الرباب بنت الربيع زوجة قيس ونادى « يا بني ألا تأذنين لي » ؟ وأذنت له ولمن معه فدخلوا .

فقـال « يا قيس أنت سيـدنا ولم نجد الأمر يصلح الا بك فأشر علينا » . فقال « والله ما اردت ان آذن لكم فأما ان دخلتم فاني سأشير عليكم براي ، أرى أن ترهبوا الكــلاب وتحتطبوا حطباً وتجعلوا فيه نارا ثم تدرعوا ليلتكم كلها ، فان بني عبشمس سيراقبونكم في الليل فاذا أبصروا النار تقد والكلاب تعاوى ظنوا

انكم مكانكم » . وأمرهم أن يسيروا الذراري والأموال والنساء ليكونوا خلف « الفروق » ، وهو جبل ، وليكن بالفروق نفسه مائة فارس وقدام الفروق فارسان ففعلا . وخرج عنترة والربيع ابن زياد ووقفا قدام الفروق ، فجاء فارس من عبشمس بن سعد ينتمي الى بني ملادس فقال عنترة للربيع هذا ربيئة القوم فاما أن تحميني وأما أن أحميك . فقال الربيع لا بل أحميك فقاتل أنت . فلما أقبل الفارس قال له عنترة : « يا بني ارجع فاني أرى مقاتلك مذ ساعة ولو شئت أن اقتلك قتلتك ولا أراك تحسن ان تتقى فأنا أهبك لأمك » (١) : ورفع عنترة عن وجهه قناعه ففزع الغلام فرجع فلقى سبعة من بني ملادس قد جاءوا مقبلين فقاتلهم بنو عبس ثم هزموا . فغضبت بنو مقاعس وارادت أن تدافع عن بني ملادس فركب الهذيل بن صريم في بني مقاعس ولكن عبسا كانت قد ردتهم وقضت على جيوشهم . وواقعة الفروق هذه أول حرب لعبس خارج ارض غطفان سجلت فيها نصرا فقال عنترة قصيدته التى مطلعها (٢) :

الا قاتلَ اللهُ الطلولَ البواليا   وقاتلَ ذكراكَ السنينَ الخواليا

وفيها يقول :

ونحن منعنـــا بالفَروقِ نساءَنا   نذبّبُ عنها مسبلاتٍ غواشيا

---

(١) ابو عبيدة ٢ / ١٠٧٢ .

(٢) مختارات الشعر الجاهلي ٢ / ١٣٠ شرح خفاجي .

وسارت ظعن عبس والمقاتلة من ورائهم . وسار معاوية ابن الجون الكندى مجداً في اثرهم فتاه به الدليل عن عمد لئلا يدركوا عبسا الا وقد لحقهم ودوابهم التعب . ويبدو أنها خطة من قيس أيضاً وهي ليست عليـــه ببعيدة ، فلما ادركهم ابن الجون بالفروق كان التعب اخذ منه ومن جنده مأخذا فاقتتلوا وانهزم معاوية وأهـل هجر . وبقيت عبس تتبعهم فأخـــذت أموالهم وقتلت من ارادت منهم وعادت فنزلت على ماء يقال له « عراعر » عليه حي من كلب .

وهكذا استطاع قيس أن يرد جمع بنى سعد وجيش ملك كندة وأهل هجر ، وقد سئل بكم فارس حاربت يوم الفروق قال : « مائة فارس كالذهب لم نكثر فنفشل ولم نقل فنضعف » .

وعلى مياه « عراعر » (١) اجتمعت عليهم كلب لتمنعهم أن يردوا الماء وأرادت أن تغنمهم . فبرز الربيع بن زياد العبسي وطلب رئيسهم فبرز اليه مسعود بن مصاد الكلبي أحد بنى عليم ابن جناب ، فاقتتلا حتى سقطا الى الأرض وأراد مسعود أن يقتل الربيع فانحسرت البيضة من رقبته فرماه رجل من بنى عبس بسهم فقتله . فثار به الربيـــع فقطع رأسه فهجمت عبس على كلب والرأس محمول على رمح فانهزمت كلب وغنمت عبس

---

(١) ماء لكلب بناحية الشام - ياقوت - معجم البلدان ٤ / ٩٣ .

أموالهم وذراريهم فقال عنترة يذكر هذه الوقعة (١) :

ألا هل اتاها أن يومَ عُراعرٍ

شَفى سقما لو كانت النفسُ تشتفـي

وصارت عبس متجهة صوب اليمامة بعد أن خابت في مجاورة بنى شيبان وبنى سعد وبنى كلاب ، ووجدت أن بنى حنيفة باليمامة خير مجير لهم لسببين : أولهما : أن عبسا ترتبط بحنيفة بنسب قرابة فقد كانت « عبلة بنت الدول بن حنيفة أم رواحة (٢) » فهم اذن يطلبون اخوالهم ، وثاني السببين : أن حنيفة ذات عز وحصون ، فحالفوهم ومكثوا في جوارهم ثلاث سنين فلم يحسنوا جوارهم وضيقوا عليهم . فخرج قيس بن زهير حتى أتى قتادة بن مسلمة الحنفي وكان أحد جراري (٣) ربيعة وهو يومئذ سيدهم فعرض عليه قيس نفسه وقومه فقـــال لا يرد مثلكم ولكن لي في قومي أمراء لا بد من مشاورتهم ، ولا ننكر حسبك ولا نكايتك فلما خرج قيس قالوا لقتـادة « ماذا تصنع ؟ تعمد الى أفتك العرب وأجرئهم فتـدخله أرضك فيعلم وجوه قومك ومن أين يؤتون »

(١) مختارات الشعر الجاهلي ٢ / ١٣٧ شرح خفاجي .

(٢) ابو عبيدة ـ نقائض ١ / ١٠١ . ورواحة أم العبسيين .

(٣) قال ابن حبيب « الجرار من قاد الف فارس فان لم يقد الف فارس فليس بجرار » . ويبدو أن الجرار هو من قاد الفا والى العشرة آلاف . ابو عبيدة ١ / ١٠٢ ابن الأثير أسد الغابة ٥ / ١٦٧

قال « كيف أصنع وقد وعدته واستحيي من رجوعي » فقال له السمين : « أنا اكفيك وقيس رجل حازم لا يقبل الا الوثيقة » ؛ فلما أصبحا تلاقيا فقال له السمين الحنفي : « انك يا قيس على خير وليست بك عجلة » فلما رأى ذلك قيس وكان يمر على جمجمة انسان بالية ـ قال (١) : « رب خسف قد اقرت به هذه الجمجمة مخافة هذا المصرع وان مثلي لا يقبل الا القوى من الأمر » فلما سمعها السمين كرهها ورجع الى قومه فأخبرهم ثم قال لقيس بن زهير : « أردد على جواري » فاحتمل قيس وقومه وخرجوا من جوار بني حنيفة أخوالهم جادين في السير ثلاثة أيام بلياليها حتى جهدت النسوة فقالت ابنة قيس : « يا أبت أتسير الأرض » فعلم أن قد جهدن وأناخ . ثم رحلوا وجعل القوم يتفرقون وقد وترتهم الحرب ، فراسلتهم ضبة وأرادت أن تستعين بهم على حرب تميم لأن تميما كانت تأكل من ضبة أبناءها قبل أن يتربوا ففعلوا وجاوروهم :

وفي احدى غارات ضبة وعبس على بني حنظلة اقتاد عبسى امرأة من بني حنظلة في يوم قائظ وظل يجرى بها حتى بهرها من شدة الحر فقال له أحد الضبيين « ارفق بها » فقال العبسي

---

(١) المفضليات ص ١١ شرح ابن الانباري قال : « ان قيسا مر على عظم نخر فأخذه وفته وقال عبارته المشابهة لما في كتاب المفضل الضبي ص ٣٧ .

«انك بها لرحيم» قال الضبي «نعم» فأهوى العبسي على عجزها بطرف السنان فنادت «يا آل حنظلة» فشد الضبي على العبسي فقتله . فتنادى الحيان واقتتلوا فانهزمت ضبة وغنمت عبس .

والحقيقة ان حادثة الضبي والعبسي لم يكن سببها المباشر امرأة سبية وانما سببها سياسي أيضا وهو آن ضبة تغيرت لعبس بعد أن انقضى الأمر بينها وبين تميم وآل الى الصلح الذي سوف يقوى بخروج عبس من ضبة فغدرت بجوارها واتخذت من الحادثة المزعومة ذريعة لحربها . ولكن عبسا كانت متيقظة ، فبطشت بضبة وخرجت تريد الشام ولعلها قصدت للغسانيين خصوم الذبيانيين وأحلافهم . وكانت الحرب آنذاك مستعرة بين غسان وذبيان على الحدود . فلما سمعت قبيلة بني عامر ارتفاعهم نحو الشام خافت من صعودها الى غسان وانقطاعها عن قيس ، فخرجت منها وفود تفاوض للعبسيين فقال قيس : «حالفوا قوما في صبابة بني عامر ليس لهم عدد فيبغوا عليكم فان احتجتم أن يقوموا بنصرتكم قامت بنو عامر كلها معهم» : فحالفوا معاوية ابن شكل فمكثوا فيهم زمانا حتى استطاع نابغة بني ذبيان ان يهجوهم بقوله (١) :

---

(١) ديوانه ص ٢١٤ . وصدر البيت الاول :

« جزى الله عبساً في المواطن كلها » والذي ذكرناه فنقول عن المفضل وابي عبيدة .

لحا اللهُ عبسا عبسَ آلِ بُغيّضٍ
كلحى الكلابِ العاوياتِ وقد فعلْ
فأصبحتمُ والله يفعلُ ذلكم
يَعزُكمُ مولى مواليكمُ تَحَجَلْ
اذا شاء منهم ناشىء دربحت له
لطيفة طي الكشح رابية الكفل

فقال قيس : « ماله قاتله الله أفسد علينا حلفنا » . فتحولوا من جوار بنى شكل الى جوار بنى عامر في ديارهم ، فمكثوا فيهم حتى غزتهم الاحلاف كلها : اسد وذبيان وتميم وأقبل معاوية ابن الجون الكندي بجيشه وبنو حنظلة وقبائل أخرى ، وهو « يوم شعب (١) جبلة » وأعظم ايام العرب ثلاثة : يوم « الكلاب » ويوم « ذى قار » ويوم « شعب جبلة » . وكان الذي هاج هذا اليوم ان بنى عبس يوم خرجت من بنى شكل قال الربيع بن زياد العبسي : « اما والله لأرمين العرب بحجرها » . فنزل مصيفا من بلاد بنى عامر وتحالفوا معهم . ولم يدخل هذا الحلف عوف بن الأحوص لأن خصومة عبس وعامر وقتلاهما ما تزال في ذاكرته

(١) ابن عبد ربه « يوم شعب جبلة » وابن رشيق العمدة ٢ / ١٩٣ وياقوت - معجم البلدان ٢ / ١٠٤ حيث ذكر انها هضبة حمراء بنجد كانت عليها الوقعة المشهورة وقد عرف هذا اليوم بيوم تعطيش النوق برأي قيس بن زهير العبسي .

فقال للعامريين : انكم تطعمون عبسا وتصحنونها ثم يصير قومها لكم عدى وقال :

وانيّ وقيساً كالمسّمن كلبَه فخدّشَه انيـابهُ واظافرُه

فلما سمعت ذبيان بهذا الحلف ، وما قر عليه قرارهم حشدوا فاستعدوا وخرجوا وعليهم حصن بن حذيفة بن بدر والحليفان أسد وطى يطلبون بدم حذيفة بن بدر قتيل واقعة جفر الهباءة ، وأقبل معاوية بن شرحبيل بن الجون بن آكل المرار الكندى ، وحسان بن عمرو بن الجون في جمع عظيم من كندة . وأقبلت بنو حنظلة بن مالك ، والرباب عليهم لقيط وحاجب ابنا زرارة رؤساء بني تميم يطلبون بدم معبد بن زرارة ويثربى بن عدس ابن زرارة . وأقبلوا اليهم بوضائع كانت تكون بالحيرة عند الملوك وهم الرابطة فيهم النعمان بن قهوس التيمي أحد فرسان العرب وكان معه لواء من سار الى جباة من تميم ، وتبعهم غثاء الناس يريدون الغنيمة ، فجمعوا جمعا عظيما لم يكن في الجاهلية مثله قط أكثر كثرة . فلم تشك العرب في هلاك بني عامر وبني عبس ومروا بطريقهم ببني سعد بن زيد منـاة ، فامتنعوا عن تحالفهم لقرابتهم من بني عامر بن صعصعة بن سعد بن زيد مناة : فقالوا لهم «أما اذا أبيتم أن تسيروا معنا فاكتموا الخبر» فقالوا «أما هذا فنعم» وأخـذوا عليهم المواثيق لكن كرب بن صفوان من زيد ابن سعد مناة قدم مسرعا ؛ حتى اذا نظر الى مجلس بني عامر

وفيهم الأحوص نزل تحت شجرة حيث يرونه فأرسلوا اليه يدعونه « فقال لا لست فاعلا ولكن اذا رحلت فأتوا منزلي فان فيه الخبر » :
فلما رحل جاءوا منزله فاذا فيه تراب في صرة وشوك قد كسر رؤوسه وعلق وطبا (١) فلم تفهم عامر قصده وجاءوا قيس ابن زهير يستشيرونه فقال : « وضح الصبح لـذى عينين » فأرسلها مثلا ثم قال هذا رجل أخـذت عليه العهود ألا يتكلم ويريد أن ينذركم بأن جيشا يقصدكم ، ويزعم أنه أتاكم عدد كثير مثل التراب وفيهم بنو حنظلة وشوكتهم قوية أما اللبن فدليل قرب القوم او بعدهم أن كان حلوا او حامضا فاستعدوا : واشار عليهم قيس ان يدخلوا شعب الجبل من مدخله الضيق الذي لا يؤتى الشعب الا منه : والشعب (٢) متقارب المدخل فصعدوا اليه من مكان يقـال له « مسلح » وحصنوا الذراري والأموال في رأس الجبل ومنعوا الابل من مائها وكلئها الذي في أسفل الجبل عشرة أيام : فلما اقبل العـدو لم يصبر حتى تنزل عـامر وعبس بسبب الجوع والعطش وانما صعـد اليهم فنخست عامر وعبس اعجاز الابل فهبطت مسرعة الى اسفل الجبل والمقاتلة من ورائها وقد حلت

---

(١) سقاء فيه لبن .

(٢) جبلة هضبة حمراء بين الشريف والشرف وهمـا ماءان الاول لبني نمير والثاني لبني كلاب ابو عبيدة ـ النقائض ٢ / ٦٦٣ وابن عبد ربه العقد ٥ / « يوم شعب جبلة » .

من عقالها والرجال ممسكون باذنابها يضربون كل من مروا به ، والابل تحطم كل شيء تدوسه بخفها وقد هوى احجار الجبل الى الأسفل فكان يسمع صوت عظيم الجلبة ارعب الجيوش القادمة وكانت الهزيمة نكراء حتى سخر رجل من اسد فقال يرتجز (١) :

زعمتَ ان العيرَ لا تقاتـلُ بلى اذا تقعقعَ الرحـائلُ
واختلفَ الهندىُّ والذوابلُ وقالتِ الأبطالُ مَنْ ينازلُ
بلى وفيها حَسبٌ ونائـلُ

وانحدرت الجيوش منهزمة حتى السهل ، فلما بلغ الناس السهل لم يكن لأحد ناهية سوى ان يذهب على وجهه فجعلت عامر وعبس تضربهم . فقتل في هذه المعركة لقيط بن زرارة ، طعن فبقي يومه مرتثا ثم مات وهو يقول (٢) :

ياليتَ شعرِى عنكِ دختنوس اذا اتـاكِ الخبُر المرموسُ
اتلحقُ القرون ام تميـسُ لا بل تميسُ انها عروسُ

وشد عوف بن الأحوص على معاوية بن الجون ملك كندة فأسره وجز ناصيته على الثواب فلقيته بنو عبس فأخذه قيس وقتله لثأرهم القديم في يوم الفروق . فأتاهم عوف فقال قتلتم طليقي فأحيوه أو ابتوني بملك مثله . وقد ذكرنا أن عوفا امتنع

(١) ابو عبيدة ٢ / ٦٦٤ .

(٢) المصدر السابق ودختنوس بنت لقيط بن زرارة زوجة عمرو بن عدس كان لقيط يأخذ برأيها ، وفي هذه الحرب لم يأخذ به .

أن يوقع مع اخوانه العامريين على حلف العبسيين ، فتخوفت بنو عبس من شره وكان مهيبا ، فقالوا « أمهلنا » فانطلقوا حتى أتوا أبابراء عامر بن مالك بن جعفر يستعينونه على عوف فأعانهم ورجا طفيل بن مالك بن جعفر عمه ليعطيهم حسانا بن الجون الكندي اخا معاوية فأعطاهم اياه : فذهبوا به الى عوف فجز ناصيته واطلقه فسمى « الجزاز » وشهد هذه المعركة من مشاهير بني عامر لبيد بن ربيعة الشاعر ، وكان غلاما ابن بضع عشرة سنة يتيما ؛ وكان عامر بن مالك يقول له : « اليوم يتمت من ابيك ان مات اعمامك » . وحاول زهدم العبسي أن يأسر حاجب ابن زرارة عندما القى بنفسه عليه ، فأبى ان يستأسر له واستأسر لمالك ذى الرقيبة فمضى الى قيس بن زهير واشتكى اليه . فغضب قيس ، واجتمع الناس على صياحه وحكموا حاجبا في نفسه فقال : « فأما من ردني عن قصدي ومنعني ان انجو ورأى مني عورة فتركها فزهدم واخوه (الزهدمان) وأما الذي استأسرت له فمالك » . وحكم على نفسه لمالك بألف ناقة وهي دية الملوك وللزهدمين بمائة (١) ؛ فرضى قيس وغضب الزهدمان فكان أن

---

(١) وتمثل قيس بقول ابي الطمحان حنظلة الشرقي القيني :

أجَـــدُّ بني الشرقي أولعَ انني   متى استجر جاراً وان عزَّ يغدر

اذا قلتُ أوفى ادركته دروكـةٌ   فيا موزع الجيران بالغيِّ أقصرِ

وقع خلاف لهما معه كاد يعم فقال قيس بن زهير (١) :

جزاني الزهدمان جزاءَ سوءٍ
وكنتُ المرءَ يُجزَى بالكرامة

وبعد الحرب انصرف سنان بن أبي حارثة المرى على حاميته الى ذبيان فلحق بهم معاوية ابن الصموت الكلابي وكان يسمى « الأسد المجدع » ومعه حرملة العكلى ، ونفر من الناس فلحق بسنان بن أبي حارثة ومالك بن حمار الفزاري في سبعين فارسا من ذبيان . فقال سنان يا مالك كر فاحمنا ولك خولة ابنتى أزوجكها : فكر مالك فقتل معاوية فداهمه حرملة العكلى وهو يقول (٢) :

لأي شيءٍ يَخبأُ المرءُ السعَه
مودَّعٌ ولا ترى فيه الدعَه

فكر عليه مالك فقتله ايضاً ، وتبعه رجل من بنى كلاب فقتله ايضاً وآخران فألحقهما به ومضى مالك وهو ينشد (٣) :

ولقد صددت عن الغنيمة حِرملا
وبغيته لددا وخيلي تطرد

فخطب اليه مالك خولة فأبى سنان أن يزوجها له :

---

(١) ابو عبيدة ٢ / ٦٧٠

(٢) ابو عبيدة ٢ / ٦٧٤

(٣) ابو عبيدة ٢ / ٦٧٤

وقتلت عبس في هذه الحرب من ذبيان زبان بن بدر أخا حذيفة ، وهو آخر من بقى من اخوته . وكانت ذبيان أتت لتثأر للاخوة فخسرت أخا آخر لهم :

ومكثت عبس في ديار بنى عامر حتى غرتهم ذبيان في وقعة « شعواء » وأسر في هـذه الوقعة قرواش بن هنى العبسي قاتل حذيفة ، أسره طلحة بن سنان بن أبي حارثة (١) ، واخـذوه تحت جنح الليل وسألوه عن اسمه ، فكنى عن نفسه وقال أنا من بنى البكاء فعرفت صوته امرأة كانت متزوجة في بني عبس فقالت : ابا شريح لنعم مأوى الاضياف وفارس الخيل أنت فقالوا من هو قالت قرواش بن هنى فتبينوه فعرفوه فقالوا كيف عرفته قالت : ربانا حذيفة في أيتام (٢) غطفان فقال قرواش من عرفنى قالوا : امرأة أشجعية امها عبسية قال : رب شر حملته عبسية . فأرسلها مثلا فدفعوه الى حصن فقتله بأبيه .

وفي يوم « شواحط » غزت عامر وعبس بنى ذبيان فوقع في الاسر رجل عامرى من بنى الضباب ، اسره رجل من بنى عبد الله بن غطفان ، حلفاء قيس ، فلما نفـدت ايام عكاظ استودعه يهوديا خمارا من اهل تيماء فوجده اليهودى يخلفه في

---

(١) هذه رواية ابن الاثير واختلفت المصادر في اسم آسره ويبدو أنه أسن وهرم في هذه الوقعة .

(٢) انظر تعليقنا على فكرة (ايتام غطفان) ص ٧٧

زوجته فأجب مذاكيره فمات . فوثب احد اخوته على بني عبس فقال« ان غطفان قتلت اخي فأعطوني ديته » فقال قيس : « ان يدى مع ايديكم على غطفان ، ومع هذا فان اليهودي وجده مع امرأته » فقال الرجل : « والله او قتلته الريح لوديتموه » ، فقال قيس (١) :

أُكَلَّفُ ذا الخصيين ان كانَ ظالما
وان كان مظلوما وان كان شاطِنا

فتحولت عبس عن جوار بني عامر ، فساروا يريدون تغلبا : فطلبت عبس من تغلب أن تبعث بوفدها ليتفاوضوا في الحلف والجوار فجاء منهم ثمانية عشر فارسا . فيهم ابن الخمس التغلبي قاتل الحارث بن ظالم (٢) : وكانت تغلب فرحت بهم واعجبها

(١) المفضل الضبي ـ أمثال العرب ص : ٣٨

(٢) عندما قتل خالد بن جعفر بن كلاب زهير بن جذيمة العبسي ضاقت به الأرض وتبرأت منه قبيلته عامر فذهب محتمياً بالنعمان ابن منذر فنهض الحارث بن ظالم المري ، وكان رجلاً جواداً وفاتكاً ومن أوفياء العرب ، فذهب الى قيس بن زهير فوجده يتجهز لحرب عامر فلم يشف ذلك من نفسه فقال : انتم وشأنكم مع عامر ، أما أنا فذاهب لأقتل خالد بن جعفر قال قيس لن تقدر عليه والنعمان يحميه . قال الحارث : اقتله ولو كان في حجره فقتله ، في خبر طويل . ثم كان الحارث عند النعمان وابن =

ان تتحالف مع عبس . فلما أتى الوفد قال لهم قيس انتسبوا نعرفكم فانتسبوا حتى مر بابن الخمس ، فقال : أنا ابن الخمس . فقال قيس : ان زمانا أمنتنا فيه لزمان سوء . قال ابن الخمس : وما أخاف منك ، لأنت أذل من قراد تحت منسم بعيري فقتله قيس ، وانما قتله بالحارث بن ظالم المرى .

فلما رأى ذلك قيس قال يا بني عبس ارجعوا الى قومكم فهم خير الناس لكم فصالحوهم ، اما أنا فو الله لا أجاور بيتا غطفانيا أبدا فلحق بعمان (١) :

ورجع الربيع بن زياد والعبسيون بعد أن تركهم قيس وفي ذلك قال الربيع (٢) :

خَرقَ قيسٌ على البلادَ   حتى اذا اضطرمتْ أجذَما

وأرسل العبسيون منهم وفدا يسعى في الصلح مع الذبيانيين :

* * *

= الخمس حاضر فقال النعمان وأشار الى الحارث : من له ثأر عند هذا فليقتله فنهض ابن الخمس فقال الحارث تقتلني يا ابن شر الاظماء . قال ابن الخمس : اقتلك يا ابن شر الاسماء . وقتله ظلماً فجاء قيس الآن وثأر للحارث . وانظر رواية أخرى في الاغاني الجزء الحادي عشر الورقة ١١٩ طبعة مصورة عن دار الكتب

(١) انظر ترجمته فى الفصل الخامس .

(٢) المفضل الضبي ـ امثال العرب ص ٤١

الصلح :

لقد استغرقت رحلة العبسيين في شبه الجزيرة قرابة أربعين عاما ، لم تنتج لهم فيها ناقة ولم تنبت أرض ، وأخذت قواهم تضعف مع الزمن وصار القوم يتفرقون ويهاجرون حتى كادت القبيلة تفقد تماسكها ، فنظرت رجالاتهم الى واقع حالهم واذا به يزداد سوءا من يوم الى يوم ، وتأملوا عدوهم الذي هو في الواقع أخوهم في الدم والأرض والمال ، واذا بذبيان لم ترحل ولم تتبدل برغم المحن والمصائب وبرغم ما فقدته من خيرة رجالها الشجعان . فأشار عليهم قيس بالعودة والصلح ، وأقسم ألا يجعل امرأة غطفانية قتل أباها أو أخاها أو زوجها تنظر في وجهه فلم يجد الربيع بن زياد امرا أحكم ولا أحسن من الصلح ، فيمد السلم بأجنحته على ربوع غطفان وتلتئم الجروح وتصفوا النفوس وتعود القبيلة الى أحضان أرضها الأم وتبدأ صفحة جديدة في العمل المشترك تسطر تاريخا ليس فيه دماء ولا قتل : لكن هذا الصلح المبتغى ، والذي هو حام القوم من القبيلتين لا يجب أن يتم تعسفا ولا اعتباطا وانما ينبغى مع وجوده توطيد صرح الأمن الذي لا تعكره أقل بادرة جديدة من بوادر الغضب فيلتهب القتل مرة أخرى ، الأمر الذي وضع له الأسياد حسابه

الدقيق . واذن كيف يكون الصلح الذي يقتلع كل أثر من آثار الخلاف والأحقاد المتأصلة في النفوس منذ أربعين عاما . انه كما لا يخفى يكون بتصفية الحساب ، قتيلا بقتيل ، ودية بدية ، والباقي يلقي على الطرف الجاني ليدفع ما يترتب عليه من الأموال والنعم والذراري . فسار الربيع بقلب مطمئن وكأنه يتشوف للنتائج الطيبة فأتى وطرق باب الحارث بن عوف أو هرم بن سنان المريين وهما أبناء عم . فلما رآهم لم يعرفهم قال من أنتم قالوا : « بنو عبس ركبان الموت » قال « بل ركبان السلم والحياة ، ان كنتم قد أحتجتم الى قومكم فقد احتاج قومكم اليكم » . وطلب منهم أن ينطلقوا الى حصن بن حذيفة بن بدر سيدهم فقالوا : كيف نأتي غلاما حديث السن قتلنا أباه وأعمامه ولم نره قط ؟ قال الحارث : « ان الفتى حليم وانه لا صلح حتى يرضى » . فأتوه عند طعامه فلما رآهم ولم يكن رآهم قط قال من أنتم ؟ قالوا ركبان الموت قال بل انتم ركبان السلم والحياة (١) .

وسألهم هل أتيتم سيدنا الحارث بن عوف قالوا لم نأته وكتموا اتيانهم اليه قال فأتوه . فقالوا ما نحن ببارحيك حتى تنطلق معنا ، فخرج يضرب اوراك اباعرهم قبله . فلما بلغوا

---

(١) هذه العبارة تتردد عندهم كثيرا ويبدو أنها من قبيل التحية المتداولة في مثل هذه الظروف - المفضل ص : ٤١ وابو عبيدة ١ / ١٠٥ وابن الاثير الكامل ١ / ٣٥٥ .

الحارث دعوا معهم خارجة بن سنان وطلبوا من حصن أن يجيرهم من الغدر والخذلان فوعدهم حصن بذلك . ويبدو أن شروط الصلح لم تكن صعبة شديدة ترهق كاهل أحد الطرفين أو تجعلهم يشعرون بعدم الثقة ، بل ان بساطتها تدل على رغبة في السلم اكيدة صادقة ، وكره للحرب شديد : اذ لم يشترط الساعون في الصلح الا أربعة شروط منها اثنان يلتزم بها حصن الذي يبدو أنه حقق لنفسه سيادة غطفان والأحلاف كلها (١) بعد أن عجزت عبس أن تبقى السيادة فيها ، والشرطان الآخران تلتزم بهما عبس وذبيان نفسها :

أما الشروط فهي :

١ ـ أن يلتزم حصن بن حذيفة ولا يغدر ، فلربما تأتى ذبيان وتقلب الأمر عليهم بما تملكه من التأثير على حصن فتعود الحرب بصورة أشد ضراوة . وعندهم في هذه الحالة سابقة ، فقد غدر أبوه بالصبية الرهائن وقتلهم : وذلك في يوم اليعمرية :

٢ ـ أن يلتزم حصن بوعده في دفع ما يتحمله من الديات من ماله ولا يخذل الساعين فتذهب جهودهم ادراج الرياح :

٣ ـ أن تدفع ذبيان ما يترتب عليها من ديات الرجال الذين قتلتهم في الحروب وأن تقبل ما تفرض عليها من الغرامات :

٤ ـ أن تنفذ عبس الشرط الثالث نفسه بما يقرره رجـال

(١) البيان والتبيين ٣ / ٩

الصلح عليها .

وقد اختاروا «سوق عكاظ (١)» مكانا لمشاوراتهم على عادتهم آنذاك في حل نزاعاتهم في الأسواق . فكان عوف ابن حارثة عن بني مرة بن سعد بن ذبيان ، وحصن بن حذيفة عن بني فزارة ، وقام هرم بن سنان بن أبي حارثة المرى عن بني عبس . ووقف الربيع بن ضبيع الفزاري ممثلا لجميع الاطياف (٢) فقام بعكاظ خطيبا ونزلوا على حكمه . وقد بلغ عدد الغرامات التي ركبها رجال الصلح على بني عبس ثلاثة آلاف بعير تشارك في حملها الحارث بن عوف وهرم بن سنان ويزيد بن حارثة ابن سنان المري وحصن بن حذيفة لأن الحرب انهكت عبسا ولم تترك لها شيئا فاجتمع الأقوام واصطلحوا (٣) .

• • •

(١) وهيب بن منبه - التيجان ص : ١٢٣

(٢) المصدر السابق .

(٣) في المصادر المختلفة التي ذكرناها اول الفصل اخبار كثيرة عن دفع الدية واحتمالها من قبل مختلف الرجال . ينظر أيضاً جمهرة نسب قريش للزبير بن بكار ص : ٢٨ . والمعاني الكبير لابن قتيبة ص ٨٧٩ .

تجدد الحرب والعودة الى الصلح :

ولما اصطلح الناس حاول حصين بن ضمضم المري أن يحتجب عن القوم ويخفي نفسه عن الانظار ، فلم يحضر ساعة الاتفاق لأنه أقسم أن لا يصيب رأسه غسل حتى يثأر لأخيه هرم ولأبيه ضمضم ، الأول قتله ورد بن حابس العبسي والثاني قتله عنترة بن شداد العبسي ، وكانت الديات المترتبة عليه عشرة ابكار (١) امتنع عن دفعها وقال : لا نصالحكم يابني عبس الا الصلح المخزية جدع الانوف والاذنين فقال له الربيع : ياحصين طال الشر وغدر الدهر ، فغضب عنترة وقال « ياحصين الحرب خير لي والصلح خير لك » قال حصين : اسكت يا عبد بني عبس فقال عروة بن الورد : يا حصين شهدتك وأباك واخاك تسألون العرب سنة المسغبة قال حصين كف أيها الصعلوك الشاعر فقال عروة قصيدته التي منها (٢) :

ولستُ كمَنْ يُمسي بطيناً وانّهُ
يَبيتُ خميصا جارُهُ وهو راقِدُ
أُنيلُ نوالي الأقربين وانّـــهُ
لَيدركُ معروفي الاقاصي الأباعدُ

---

(١) وهب بن منبه ص : ١٢٣

(٢) ديوانه ص ١٣٨ ووهب بن منبه ـ التيجان ص : ١٢٤

أفرقُ جسمي في جسومٍ كثيرةٍ
وأحسو قَراحَ الماءِ والماءُ باردُ

وجاء ربيعة من وهب بن الحارث (١) ، وامه من فزارة أي أن ذبيان أخواله ، فحمل عليه حصن ابن ضمضم فقتله ، فتجمعت عبس لكن جصن بن حذيفة غضب لقتل ابن اختهم ونهض الحارث ابن عوف ، فبعث بابنه الى بنى عبس وقال : ان شئتم فاقتلوه . فرضيت عبس بالدية فاحتملها سنان بن خارجة وكانت مائتى بعير وكـان سنان قبلهـــا احتمل من الديات للفـا رهن بها قوسه فقال شبيب بن يزيد المري المعروف بابن البرصاء (٢) :

ونحن رهنّا القوسَ في حربِ داحسٍ
بألفٍ وكانت بعـــدَها مئتـــان

وكانت هذه الحادثة في موضع يقال له « قطن » (٣) :

وتحركت عبس تريد بلوغ « غدير قلهى » فسبقتها اليـه ثعلبة تريد أن تمنعها عن الماء . وكادت عبس تموت عطشا ، فأقبلت بنو فزارة وبنو مرة وقالتا لبنى ثعلبة اعرضوا عن عبس

---

(١) هـذه رواية المفضل وابي عبيدة . وفي الفاخر والكامل ان القتيل بيحان .

(٢) جمهرة نسب قريش ص : ٢٨

(٣) انظر ياقوت ـ معجم البلدان ٤ / ٣٩٣

فقــد باءت بالقتلى بعضهم لبعض : فقالت بنو ثعلبة « فكيف تأتون بعبد العزى بن حذار ومالك بن سبيع اتهدرونهما ، وهما سيدا قيس عيلان » وكانا قتلا في اول لقاء لهم ، وقالوا : فوالله ما نشم هذا بأنوفنا أبــدا ، وحالوا بينهم وبين الماء فاضطرت عبس الى دفع الدية .

ووضعت حرب داحس والغبراء اوزارها ، بعد أن سويت كل الخلافات ، وحمــل الحمالات هرم والحارث وقال زهير معلقته التي منها قوله :

تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وجاء الصلح بين القبيلتين في وقته المناسب لذبيان ، لترفع عبس سلاحها الى جانب ذبيان ، ضد عدوهم المشترك : فصور ذلك الحطيئة بشعره يصفهم بعد الصلح (١) :

ألم ترَ انَّ ذبيانا وعبســا لباغــي الحرب ِ قد نزلا بـَراحا
يقال الأحربان ونحن حــي بنو عم تجمـَّعنـَــا صلاحــا
منعنا مدفعَ الثلبوت ِ حتــى تركنا راكزينَ به الرماحــا
نقاتلُ عن قرى غطفانَ لـما َخشينا أن َتذِلَّ وأن ُتباحا

(١) الديوان ص : ٦٠ البراح المتسع من الأرض لازرع بها ولاشجر والأحربان عبس وذبيان لبأسهما في الحرب ، لم يحاربوا قوماً الا حربوهم . والثلبوت واد ، بين طي وذبيان . وتركنا نزلنا .

الفصل الثالث

دراسة توثيقية وفنية لشعر هذه الحرب

* * *

مصادر هذا الشعر ورواته : توثيق هـــذا الشعر في ضوء قضية الانتحال : مدى امكان تطبيق ما يصلح من هذه القضية وأسبابها على شعر الحرب : الظواهر الفنيـــة في هذا الشعر : « تعدد الغرض واختلاطه ، انعدام المقدمات والمطالع المصرعة ، الروح القبلية » : خصائصه المميزة من حيث اللغة ، والأسلوب والصناعة الفنية ، والاوزان والقوافي . اختلاط نسبة هذا الشعر الى أصحابه ، أو الى اكثر من شاعر :

الفصل الثالث

دراسة توثيقية وفنية

مصادر هذا الشعر ورواته :

لم يقع في ايدينا ديوان يجمع شعر هـذه الحرب ، كما أنه ليس بين مصادرنا كتاب يتحدث عن حرب داحس والغبراء بصورة خاصة ، بل ليس في خزائن الكتب القديمة كتاب اختص بالأيام عامة ، يذكر اخبارها ويجمع اشعارها ويترجم لأعلامها : وانما كل الذى عولنا عليه روايات مقتضبة نجمعها من مصادر اللغـــة والأدب وأسفار المؤرخين وسير الأعـــلام ومجموعات الجغرافيين وشرح للقصائد والدواوين والمجموعات الشعرية الأخرى وكتب الأمالي والمعاجم : وأكاد أجزم أنني لم أتصفح من هذه الكتب واحدا إلا وقد عثرت فيه على خبر أو قصيدة او مقطعة وحتى البيت للواحد على أقل تقدير : وكان أن تجمع في اليد حصيد طيب لكنه أشتات وشذرات يصعب انتظامها في عقدها ومع ذلك فنحن لم نيأس ولم نتعب بل رحنا نقرن الخبر مع الخبر والقصيدة الى البيت ، والرواية الى الشروح المتعددة حتى استطعنا أن نرضى طموحنا في بلوغ بعض ما نبتغي بلوغـــه في البحث والتحقيق .

واذا كانت المكتبة القديمة لم تسعفنا بكتب الأيام ودواوين حروبها فلا يعني ذلك أنهم لم يجمعوها أو يكتبوا فيها ؛ وقد وردت اشارات في هذه المصادر ان العلمـــاء اشتغلوا في هـذا المضمار ولم يقصروا في شيء : ولكن عوادي الزمن أتت على كل أعمالهم في أيام العرب واشعارها فبخلت به علينا ، وجادت بالقليل عندما شاءت العناية الالهية أن يبقى لهذه الأمة بعض من هذا التراث الكبير :

والفضل في ذلك يرجع الى ذكـاء الرواة وقوة حافظتهم وعظيم حبهم لتراث العرب ، جامع أيامهم ومفاخرهم وحضارتهم فوعته ذاكرتهم حاملة اياه حتى وضعته في يد العلماء فدونوا منه الكثير ، ولكن الذى كان في الذاكرة أكثر :

وهذه الاشارات بعضها تذكر كتبا في الأيام عامة وبعضها تذكر كتبا في ايام خاصة . ففي كتاب الفهرست لابن النديم (١) أن هشام بن محمد الكلبي وضع كتاب داحس والغبراء ، وكتاب أيام فزارة ، ووقائع بنى شيبان ، وكتاب وقائع الضباب وفزارة وكتاب أيام بني حنيفة ، وكتاب أيام قيس بن ثعلبة ، وكتاب الأيام : وان أبا عبيدة (٢) الف كتابا صغيرا في الأيام ضم خمسة وسبعين يوماً وكتابا كبيرا تحدث فيـــه عن الف ومائتي يوم :

(١) المقالة الثالثة في الفن الأول

(٢) حاجي خليفة ـ كشف الظنون ١ / ٢٠٤

وقيـــل ان أبا الفرج الأصبهاني وضع كتابا يحتوى على الف وسبعمائة يوم (١) .

وجاء في معجم الأدباء لياقوت ان ابا عبيدة اضافة لما تقدم كتب في حروب العـــرب كتاب أيام بنى مازن وأخبارهم ، وكتاب مقاتل الفرسان ، وكتاب الغارات (٢) . وجاء في شرح المفضليات لابن الأنباري وهو يتحدث عن جانب من أيام حرب داحس قوله : « وقد مر حديثهم بتمامه في كتاب داحس (٣) » وليس بين كتب الأنبـاري ما يحمل هـذا الأسم وفي الاكليـل ذكر لكتاب الفه الهمداني يدعى « كتاب الأيام » ما زال مفقوداً الى اليوم . (٤) . ووصل من هذه الكتب المذكورة كتاب « حرب بكر وشيبان وكتاب حرب البسوس الذي صنعه ابن الكلبى » ولم يصل سواهما (٥) .

ولم يقف الأمر عند افتقاد هذه الكتب ، ولو أن دواوين القبائل وصلت لهان الأمر واستطعنا أن نقع على وافر من شعر

---

(١) حاجي خليفة ـ كشف الظنون ١ / ٢٠٤

(٢) معجم الادباء ١٩ / ١٥٤

(٣) ابن الانباري شرح المفضليات ص : ١١٠

(٤) كتاب الاكليل للهمداني ١ / ٢١٦

(٥) دار الكتب المصرية . وفى خزانة آل عيسى العطار بالعـــراق نسخة وحيدة من اخبار بكر وتغلب .

هذه الحرب . ولكن المسألة في الشعر الجاهلي عامة ، وكان ضياع شعر الحرب جزءا من هذه القضية . غير ان تخصيصنا للكتب المذكورة فيه فائدة للبحث تغنيه عن كثير من التوهم والخلط ، لأن شعر القبائل ربما يتعذر تمييز أحداثه وتاريخه ومناسبة قوله : أما كتب الأيام فان اضطلاع الراوية بالخبر واقتران الخبر بالشعر يؤيد ويؤكد أن القصيدة الفلانية قيلت في الحرب الفلانية ، وأن هذا البيت قيل في هذا اليوم وبذلك يصبح كل شعر الأيام بمثابة الديوان المحقق لهذه الحرب أو تلك استنادا الى روايتها أو الكتاب الذي جاء الخبر فيه :

ولما لم يقع لنا كل هذا ، فاننا اعتمدنا مصادرنا بصورة رئيسة على صعيدين : قصة الحرب ، وكتب الاشعار المختلفة وقدمنا دراستنا على ضوئها . ونحن نتحدث عن هذين المصدرين اللذين جمعنا منهما شعرنا ، محققين موثقين للشعر ورواته ، باذلين ما نقدر عليه من الجهد بقدر ما تمنحنا اياه المصادر دون أن نحاول تحميل النص أكثر مما يستطيعه أو الأخذ منه أكثر مما يعطيه .

. . . .

١ ـ مصادر الشعر من خلال قصة الحرب ، وتكون في مجموعات هي :

أ ـ المجموعة الأولى :

أول مصادرنا التي جمعنا منها شعرنا هي « قصة الحرب » التي أخذنا خبرها من الكتب المختلفة التي سبق حديثنـــا عنهـــا ومناقشتنا لروايتها :

ولقد رأينا أن الكتب التي أوردت القصة ليست واحدة في سردها ، وذكر أشعـارها لذلك وضعنـاها في مجموعات حسب روايتها للخبر : ففي المجموعة الأولى التي تمثل أقـدم المصادر في خبر الحرب ، انضم المفضـل الضبي وابـو عبيـــدة وابو الفرج الأصبهاني . وقصة الحرب عند المفضل جاءت في كتابه « أمثال العرب » الذي طبع في القسطنطينية بمطبعة الجوائب سنة ١٣٠٠ هـ وفي القصة قدر وافر من شعر الحرب على الرغم من اختصارها للأحداث : ولكن الملاحِظ أن أكثر هذا الشعر الوارد في قصة المفضل تطغى عليه صفة المقطعات ، وهي صفة تكاد تكون عامة في كل المصـادر التي أوردت شعرا ضمن خبر هذه الحرب ، وهي ظاهرة طبيعيـة لأن الرواة لا يوردون من القصيدة الا ما يوضح الغاية منها كتثبيت لحادثة أو دعم لرأي :

أما راوية الخبر فانه غني عن التعريف لاشتهاره بتصانيفه وبخاصة المفضليات . وابو العباس المفضل بن محمد بن يعلي بن

عامر الضبي ، راوية علامة بالشعر والأدب وايام العرب وهو من أهل الكوفة وأوثق من روى الشعر من الكوفيين وقد توفى سنة ١٦٨ هـ (١) :

وتأتي رواية أبي عبيدة في كتابه نقائض جرير والفرزدق موافقة لرواية المفضل الضبي غير ان ابا عبيدة يرفع سند روايته الى الكلبي ولم يرد في رواية المفضل أى ذكر لراوية ، ومع أن ابا عبيدة رجل متوثق فان رواية المفضل تقوى روايته وتسندها وعلى الرغم من ذلك فقد وجدناه يمحص الخبر ويقلبه ويقارن الشعر ويراجعه مع ما يحفظه وما يسمعه من رواة غير الكلبي او مما أخذه من رجال القبائل المعنية ، فان وجده صحيحاً ثبته وإلا رفضه ولم يدخله في كتابه ، وربما ينبه عليه اذا كان مصنوعا . ولم يفعل ذلك في جميع قصائده وانما في موضع الشك حيث يأتي باليقين ليقوى الخبر او الرواية او يصحح ما يسمع او ينقل اليه . وربما ذكر من القصيدة أبياتا ثم يقول : وبقية القصيدة موضوعة (٢) ، او ذكرَ الخبرَ وناقشَ فحواه ثم أبطلَ دعواه بالحجج والبراهين حتى يخرج بالصحيح الثابت : وقد توفي

---

(١) تاريخ بغداد ١٣ / ١٢١ بغية الوعاة ص ٣٩٦ فهرست ابن النديم ١ / ٦٨ ارشاد الأريب ٧ / ١٧١ .

(٢) ينظر على سبيل المثال لا الحصر ١ / ٢٢٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤١ - ٢ / ٦٨٠ .

في سنة (٢٠٩) (١) .

والذي يزيد رواية أبي عبيدة وثوقا اضافةً الى المفضل الضبي أن الذين جاءوا بعده من الثقات وردت أخبارهم موافقة لرواية أبي عبيـدة ، مثل رواية الأغاني المدعمة بسلسلة طويلة من سند متين ، وأبو الفرج الأصبهاني غنى عن البيان . أما الرواة الذين يذكرهم في كتابه فكلهم رجال موثقون عرفوا بالفضل والحكمة ورواياتهم لا تُرَدُّ مثل: علي بن سليمان الأخفش ، ومحمد بن العباس اليزيدي ، وأبي سعيد السكرى ، ومحمد بن حبيب ، وأبي غسان «دماذ» ، وابراهيم بن سعدان ، ومحمد بن دريد ، وعبد الله بن هشام وأبيـه ، وينقل أبو الفرج عن عمه كثيرا . وهؤلاء الذين ذكرتهم رواة خبر هذه الحرب وشعرها ولم أتطرق لسواهم ممن ورد اسمه في هــذا السفر العظيم فليس لنـا بهم غرض . وانما ذكرت من اذا قلبنا صفحات الحِرب في الأغاني وجدنا أسماءهم تتردد فيها . هذا وينقل أبو الفرج عن رجال القبائل أو القبائل نفسها :

ورواية الأغـاني تدخل ضمن المجموعة الأولى من مصادر شعر هذه الحرب ورواته . وكل الشعر الوارد في الأغاني وارد في أمثال المفضل للضبي ونقائض أبي عبيدة .

---

(١) تاريخ بغداد ١٣ / ١٨١ بغية الوعاة ص ٣٩٦ فهرست ابن النديم ١ / ٦٨ ارشاد الاريب ٧ / ١٧١ .

ب ـ المجموعة الثانية :

ويأتي كتاب الفاخر للمفضل بن سلمة بن عاصم على رأس هذه المجموعة التي أوردت قصة الحرب وذكرت في ثناياها شعرا كثيرا بعضه لم يرد في خبر المجموعة السابقة . وعن المفضل ابن سلمة أخذ الميداني في كتابه مجمع الامثال الخبر والشعر ، والبغدادي في خزانته وان كان الأخير وقف بالخبر عند منتصفه .

ولما كان كتاب المفضل في الأمثال فهو لم يذكر من الشعر الا حاجته لتوضيح المثـــل او الحادثة ، مع أن حرب داحس والغبراء فازت ببعض عناية المفضل ، وكان حظها من الشعر أكثر من سواها . ولهذه الرواية ميزة هي أن صاحبها يرقى بعصره الى القرن الثالث الهجري (توفي في سنة ٢٩١ هـ) : فروايته تعد قديمة قياساً الى لاحقاتها .

ولم نجـد في رواية الفاخر أي اسناد لرواية لكننا اذا قلبنـــا صفحات الكتاب وجدنا أن المفضل بن سلمة ينقل أخباره عن رواة عديدين يذكرهم في مواضع كثيرة من كتابه امثال ابن الاعرابي (١٥ هـ ـ ١٢٣ هـ) وابي عمرو بن العلاء (٧٠ ـ ١٥٤) ويونس بن حبيب (٩٤ ـ ١٨٤ هـ) والأصمعي (١٢٢ ـ ٢١٦ هـ) وغيرهم .

وكان أن ذكر من بين رواته المفضل الضبي وابا عبيـدة (١١٠ هـ - ٢٠٩ هـ) : وعندما نقارن خبرها مع خـبر المفضل الضبي وابي عبيدة نجـد تشابهاً في الشعر بصورة عامة ، ولكن الفرق في الخـبر او القصـة ، ومـع ذلك فانهما متفقان في شكلها العام :

. . . . .

جـ - المجموعة الثالثة :

صاحب الرواية الثالثة هو ابن عبد ربه في العقـد الفريد (٣٢٨ هـ) نقلها النويرى في نهاية الأرب بحروفها . وهـذه القصة مروية باعتراف كاتبها عن ابي عبيدة وان كان صاحبها وسمها بميسم اسلوبه : وعند مقارنتها برواية أبي عبيدة في النقائض وجدنا بينهما اختلافا ، فهـي مبوبة كما في الفاخر للمفضل بن سلمة ، وشعرها موافق لما في النقائض :

وأما الذي لم أجده في روايـة أبي عبيدة فانني وجـدته في كتاب ابن الأثير - الكامل في التاريخ : وقـد زاد النويري على رواية ابن عبد ربه أخبـارا استقاها من الأغاني وتضمنت هذه الزيادة بعض أخبار في الحرب :

. . . . .

الرابعة

د ـ المجموعة السادسة (١)

أو رواية ابن الأثير في الكامل :

كنا في مناقشة الروايات جعلنا هذه الرواية عملا قائما بذاته لانفراد هـذه الرواية بخبرها وقـد بقينا على النهج نفسه في هذا الفصل من الدراسة، لأننا وجدناها ما تزال على كيانها في رواية القصـة والشعر على حـد سواء . ومع أن ابن الأثير ينقل أكثر أخباره عن أبي جعفر الطبري كما قرر في خطبة كتابه لكنه في أيام العرب لم ينقل عنه وقد ذكر السبب وهو أن أبا جعفر كان يسجل تاريخ الرسل والملوك . ولم يأخذ من الأيام سوى أخبار عاد وثمود وطسم وجديس وذى قار وجذيمة الأبرش والزباء ، وما ذكرهم الا لأنهم ملوك ؛ وابن الأثير يقرر أيضا انه لم ينقل من الأيـام الا مـا كان مشتملا على قتال شديد وجمع عظيم ، فأخذ خبر هذه الحرب لأنها اشتملت على قتال لعدة قبائل . وأكد أنه استنبط أخباره عنها من مصادر وثيقة ولم يكن كحاطب في ظلمة لا يدري ماذا يفعل (٢) . فاذا نحن قارنا الشعر في كتاب

---

(١) سميناها مجموعة مع انها مصدر واحد ، وذلك من قبيل التحفظ فلربما عثرنا لها على رديف فى المستقبل .

(٢) ينظر حديثنا في ص : ٦٣ من الفصل الثاني ومصادره .

ابن الأثير وجدنا بعضه موجودا عند المفضل الضبي وبعضه الآخر في كتاب أبي عبيدة « النقائض » وفي كتاب أبي الفرج « الأغاني » : أما الشعر الذي لم نجده في هذه المصادر فقد وجدناه في العقد الفريد ، وانفرد ابن الاثير برواية شعر لم نجده في كتب غيره ؛ واذن فقد كان ابن الأثير يجمع خبر روايته وشعرها من المصادر المذكورة وغيرها وربما جمعها من كتب لم تصل الينا : وعلى كل حال فان ابن الأثير لم يغفل رواية المفضل الضبي ولا أبي عبيدة .

: : : :

هـ ـ المجموعة الخامسة :

ان قصة الحرب في هذه المجموعة من المصادر وردت غير كاملة ولذلك جمعناها في مجموعة واحدة . ولكنها مع ذلك جاءت بشعر لم نجده في مجموعات المصادر السابقة التي ورد فيها خبر الحرب كاملا : وتتصف هذه المجموعة أيضا بأنها لا تشبه في أسلوب روايتها أية قصة في مجموعة سابقة ، والا كنا ضممناها الى احدى تلك المجموعات . واذن فان صفة النقص في خبرها وعدم اكتمال القصة هو الذي جمعها تحت هذا العنوان ، ولكن كل مصدر من مصادرها يتميز بصفة خاصة بها : وهذه المصادر

تتوزع في مجموعات ثقافية متعددة بعضها كتب المحاضرات أو الأمـــالي ، وبعضها الآخر كتب الشروح . فمن كتب الأمالي والمحاضرات كتاب الشريف المرتضى وكتاب أبي عبيدة البكري ، وأما الأول فهو كتاب الأمالي ويروى كل شعره عن أبي عبيدة ، والآخر سمط اللالئ وهو ينقل أخباره عن أبي عبيدة أيضا . وأما شرح التبريزي لديوان الحماسة ففيه شعر لم تذكره المصادر السابقة ولكن مصادره تنتهى الى أبي عبيدة كما يقول (١) . وابن نباته في شرح قصيدة ابن زيدون يسند كل شعره وأخبـاره الى أبي عبيدة ، وينقل قسما منها بنصها عن الأغاني .

يتضح لنا مما تقدم ، أن الكتب التي ذكرت قصة الحرب ليست واحدة في سردها وذكر أشعارها ، فقد رأينا أن بعضها يذكرها كاملة مع شيء من التفاصيل وقـــدر وافر من الشعر . والبعض الآخر وان كان يذكرها كاملة الا أنها مختصرة وبقدر من الشعر قليل . وأغلب الشعر الوارد في قصة الحرب متفق على روايته وصياغته ، وقليل منه اختلفت روايته أو صياغته . وربما انفردت رواية بأبيات ولكن أكثر الروايات متفقة على القصائد . والحقيقة أن هذا الشعر الوارد في قصة الحرب لم يذكر الا لمناسبة ، ولذلك جاء أغلبه على شكل مقطعات .

٢ - مصـــادر الشعر مـن خـــلال الدواوين والمجموعات

(١) انظر ص : ٦٤ من هذا البحث .

الشعرية القديمة :

كان ذلك كلـه حديث الشعر ورواته الذى جمعناه من (قصة الحرب) التي روتها المصادر المختلفة . أما المعين الثاني الذى جمعنا منه شعرنا ، فهو المجموعات الشعرية من دواوين وشروح للأشعار وكتب أدب ولغة ، والمجموعات الثقافية العربية القديمة الجغرافية والتاريخية . وقدمت لنا المعاجم والقواميس قدرا وافرا من الفائدة في تثبيت الشعر ومواضعه وألفاظه مما لا يمكن اغفاله ، فضلا عن الأبيات التي تنفرد بذكرها هذه الطائفة ولم نجدها في مصادرها الأولى .

أما الدواوين فأهمها ذكرا لقصائد الحرب ديوان زهير بن أبي سلمى ، وديوان النابغة الذبياني ، وديوان عنترة ضمن مختارات الشعر الجاهلي للاعـلم او « دواوين الشعراء الستة الجاهليين » وديوان عروة بن الورد والحطيئة وقيس بن الخطيم . ولم نأخذ من شعر هذه الدواوين الا مانص صراحة وبواضح العبارة أن هذه القصيدة قيلت في حرب داحس أو في يوم من أيامها أو في ذم أحد رجالاتها في المناسبة المعينة من الحرب وأخذنا من الشعر ايضاً ما كانت القصيدة فيه تذكر يوماً من أيام الحرب نص عليه الشاعر باسمه خـلال أبيات القصيدة . ولم نأخذ من الشعر مالم تطمئن نفسنا الى أنه من شعر هذه الحرب .

ومن المجموعات الشعرية أمدتنا دواوين الحماسة بقدر وافر

من شعر هذه الحرب ، واخذنا منها بالطريقة نفسها التي اتبعناها في انتخاب شعر الحرب من الدواوين : ويقف على رأس هـذه المجموعة ديوان الحماسة لأبي تمام ، وديوان الحماسة للبحتري ، وديوان الحماسة للخالديين ، وديوان الحماسة البصرية لصدر الدين البصرى :

واذا ابتعدنا عن دواوين الحماسة الى المجموعات العامة حق لنا أن نذكر المفضليات بما حوته من شعر هـذه الحرب الموثق على الرغم من قلته . وهكـذا نستعين بالمفضل الضبى في هذه الحرب مرة أخرى بعـد الذى قدمه لنا في القصة من خـلال كتابه أمثال العرب .

ومجموعة أخرى تتصـل بالشعراء وشعرهم نسميها كتب التراجم ، حوت جانباً من شعر هـذه الحرب . مثل طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، ومعجم الشعراء للمرزباني : وللاخير تراجم لكثير من شعراء هذه الحرب والذين لم تترجم لهم الكتب القديمة وأغفلتهم المصادر فلا تذكرهم الا عرضا وعند المناسبة ، ومن ذلك ترجمته لقيس بن زهير والربيع بن زياد ، وحصين بن حذيفـة ، وابن عنقاء الفزارى وآخرين سواهم ذكرهم حسب أبجدية أسمائهم ، ومثل لهم بقدر مناسب للشعر يوضح أشهر احداث حياتهم : أو أكثر شعرهم دورانا بين الناس : وربما جاء من شعرهم بجديد لم يسبق اليه .

ومن كتب الأمالي والمحاضرات أمدنا أبو علي القالي في أماليه ونوادره ببعض الأخبار والأشعار ، وأبو عبيد البكرى في التنبيه فضلا عما في كتابه سمط اللالئ . وكذلك أفدنا من المبرد في الكامل والجاحظ في البيان والتبيين والحيوان ، وابن قتيبة في عيون الأخبار .

ومن مجموعة الشواهد أفادنا العيني في شرح الشواهد الكبرى ، والسيوطي في شرح شواهد المغني . أما المعاجم اللغوية فان فائدتها مزدوجة فهي تقدم شروحا طيبة للكلمة ومعناها ثم لا تبخل بالبيت أو البيتين في مقام الشرح . والواقع أن المعاجم اللغوية ألصق المراجع بالباحث فهو يستمد منها المزيد من النفع بين الحين والحين . وأكثر المعاجم فائدة لبحثنا كانت : لسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس . ولا ننسى بعض فوائد جمهرة اللغة لابن دريد بالنسبة لهذا البحث . ومن كتب الأمثال المستقصى من أمثال العرب للزمخشري ، وفصل المقال لأبي عبيد البكري .

أما المجموعة الجغرافية والتاريخية ، فمن كتبها التي أوردت أمثلة من شعر الحرب وايضاحا لبعض مواضعها كتاب معجم ما استعجم لأبي عبيد البكري ، ومعجم البلدان لياقوت الحموى ، والسيرة النبوية لابن هشام . ومع قلة ما أوردته كان ذا فائدة تاريخية في اقرار بعض الحقائق التي أفادت بحثنا . ولم نغفل الافادة من كتاب التيجان لوهب بن منبه .

والذى نريد أن نقره حقيقة وتاريخا ، هو أن جميع كتب الثقافة القديمة تحتوى في بطونها على ابيات تتمثل بها في مناسبات مختلفة لهذه الحرب او لمناسبات علمية اخرى : وهي تجمع عددا لا يستهان به من شعر الحرب ، خرج من قصائد أو مقطعات لم تصل الينا حتى الآن وفيها اخبار أيضا : وما أكثر ما نعثر على البيت أو شطر البيت يستشهد به العلماء في قضية لغوية أو نحوية أو بلاغية : وبعضهم يستشهد بالبيت ليثبت به مثلا أو موقعا جغرافيا أو واقعة حربية : ولذا فان المجموعات المذكورة هي من أكثر الكتب اختصارا للشعر .

توثيق هذا الشعر فى ضوء قضية الانتحال

الشك في الشعر الجاهلي وأسبابه :

ان مسألة الشك في الشعر الجاهلي قديمة ، وليست وليدة هذا العصر ، لكنها لقت في الربع الأول من هذا القرن رواجا كبيرا كان باعثه كتابات المستشرقين من متطرفين ومعتدلين ومدافعين وبقيت قضية الانتحال فيهم حتى تناولها الدكتور طه حسين فوضعها في حلة قشيبة من أسلوبه المعروف ، ظناً منه انه بالغ نتيجة مرجوة في انكار هذه الثروة الأدبية ورفضها كلها جملة في

ضوء الادلة التي استعان بها والنتائج التي توصل اليها . ولم يكن في الحقيقة فاعلا شيئاً يفوق المستشرقين ، وبخاصة (مرجليوث) الذى وضع أدلته الخارجية والداخلية والتي قادته الى نتائج اعتبرها طبيعية في رد الشعر الجاهلي ورفضه ، وكان عمل مرجليوث أوسع من سابقيه أمثال (نولدكه) ومن تبعه من المستشرقين أمثال (الورد وموير وباسيه وبروكلمان) (١) ولاحقيه أمثال (شارلس جيمس ليال وجورجيوليفي دلافيدا) (٢) على مختلف الأتجاهات سواء في انكار هذا الشعر او توثيقه .

ولم يكن الدكتور طه حسين وحده من الأدباء العرب السابقين الى خوض هذا المضمار ، فقد تناولها الأديب مصطفى صادق الرافعي في كتابه « تاريخ الأدب العربي » في حديثه عن الرواية والرواة ، ولكن في حدود لم يخرج بها عن دائرة البحث التي عمل فيها قدامى النقاد العرب الذين تنبهوا الى موضوع الانتحال ، وشكّوا في بعض الشعر الجاهلي ، وراحوا يخلصون القصائد من الأبيات المنحولة والموضوعة ، كما فعل ابن سلام في كتابه « طبقات فحول الشعراء » حيث عزا هذه الظاهرة الى أسباب منها التزيد في الأشعار بغية التفاخر فكانت القبيلة

---

(١) شوقي ضيف (دكتور) العصر الجاهلي ص : ١٦٦ .

(٢) ناصر الدين الاسد (دكتور) مصادر الشعر الجاهلي ص ٣٥٢ والحوفي (دكتور) توثيق الشعر الجاهلي محاضرة عامة ص : ٧ .

تتزيد في اشعارها ، وكان الابن يتزيد في اشعار ابيـه ، وزاد للرواة والوضاعون على القصائد الصحيحة ليكثّروا في الرواية ، ووهم قسم من الكتاب فزادوا في الأشعار دون أن يتوثقوا مما يكتبون : واخذ بعد ذلك يخرج من الشعر الجاهلي كل منتحل وموضوع ويوثق الصحيح والثابت منـه ويذكر القصائد التي لا يتطرق اليها الشك :

وطبيعي أنه في عمله هذا كان يعتمد على روايات الثقات من أرباب هذه الصنعة مثل أبي عمرو بن العلاء راوية البصرة (توفي في ١٥٩ هـ) وهو أحد القراء المشهورين ، والمفضل الضبي راوية الكوفة (ت ١٧٨ هـ) وأحد القراء أيضاً ، والأصمعي راوية البصرة (٢١٦ هـ) وأبي عبيـدة (٢١١ هـ) وأبي عمرو الشيباني (٢١٣ هـ) .

ففي كتب هؤلاء اشارات عديـدة الى شكـهم في الشعر الجاهلي واخراج منتحله وموضوعه منـه : فالمفضل الضبي اتهم حمادا بفساد الرواية التي أفسدت الشعر فلا يصح أبدا (١) : وكان الاصمعي يُخرج بعض أبيات من معلقة زهير ويقول هي لشاعر آخر ، وينشدون امامه شعرا فيرده ويقول : هذا الشعر مصنوع وقد رأيتُ صانعه .

وينص على ان قصيدة عنترة لا تبدأ بالمطلع : « هل غادر

(١) الاغاني ٥ / ١٦٣ ساسي وياقوت - معجم الادباء ١٩ / ١٦٥ .

الشعراء من متردم :.» وانما تبدأ من قوله : « يادار عبلة بالجواء تكلَّمي » (١) وكان ابو عبيدة يمسك بالقصيدة ينص على صحيحها ويقول : وباقي القصيدة موضوع مولَّد ، أو بقية الأبيات مصنوعة (٢) ، ولم يقف الشك عند هؤلاء فحسب بل امتد الى رواة آخرين كابن الأعرابي ومحمد بن حبيب وابن السكيت وثعلب والسكرى فقد كان هؤلاء يخرجون الشعر المنتحل من دائرة الصحيح ولا يقبلون روايته :

واذا تصفحنا اجزاء الأغاني وجدنا كثيراً من المواضع فيها تنبيه عن شعر مكذوب . وهو الى جانب هذا يعمل على توثيق الروايات بمقابلتها مع بعضها (٣) . وهل هذا كثير من كتب ابن قتيبة (٤) .

والواقع أن الرافعي اعتدل في شكه وانصف الشعر الجاهلي وقد عزا اسباب الوضع الى تكاثر القبائل بشعرها وشعرائها واستشهاد النحاة على آرائهم بشعر قد يكون موضوعاً ، وكذلك تدليل المعتزلة والمتكلمين على مذاهبهم : وتلفيق القصاص

(١) السجستاني - ص ٦٦ - والاغاني ٩ / ٣٣٢ .

(٢) النقائض ١ / ٢٢٨ ، ٢٣٩ . ٢٤٠ . ٢٤١ - ٢ / ٦٨٠ .

(٣) الاغاني ٨ / ٧٠ - ٩ / ١٩ ساسي .

(٤) وخاصة كتابه الشعر والشعراء وانظر ايضاً المعاني الكبير والمعارف .

والوعاظ . وتكاثر الرواة بما يروون فيضعون وينتحلون ويزيدون على الشعر الصحيح .

وقد أرسى مرجليوث قواعد شكه على أسس ، بعضها من الشعر نفسه والبعض الآخر من محيطه فقال : ان ورود هذا الشعر كله بلهجة قريش يؤكد كـذبه ، وكان احرى به أن يكون بلهجات القبائل المختلفة . وطغيان الرواية الشفوية في هذا الشعر جعلت الشك يحوم حوله لأن خير ضمان لبقاء الشعر هي الكتابة ، وراح يثبت أن العرب لم يدونوا قصائدهم . وقـال أن الاسلام غض من قدر الشعر وهدفه من ذلك نسيان الأحقاد والعصبيات التي يحملها اليهم الشعر الجاهلي .

ثم تطرق الى رواة القرنين الثاني والثالث . وقال انهم اشتهروا بالوضع والاختلاق فلم يتركوا قصيدة الا أفسدوها بروايتهم . أما من الناحية الدينية فانه لا يمثل أديان العرب في الجاهلية وانما يمثل التوحيد وتعاليم الاسلام ، وقد حفل بألفاظ اسلامية وقصص دينية ذكرها القرآن . وأخيرا أظهر شكه في معرفتهم بالأوزان في العصر الجـاهلي لأنهم كانوا يجهلون الموسيقى التي هي قوام الوزن في الشعر (١) .

فاذا تقدمنا الى الدكتور طه حسين وجدناه يقيم رفضه للشعر الجاهلي على أدلة عديدة بعضها متعلق بالحياة الدينية الجاهلية وعدم

(١) الحوفى (دكتور) توثيق الشعر الجاهلي ، ص : ٨

تمثيل هذا الشعر لها :

وهو أيضا لا يمثل العقلية الجاهلية في مختلف نشاطها الفكرى ولا الحياة السياسية . فليس فيه خبر عن صلة العرب ببعضهم أو بغيرهم ولا الحياة الاقتصادية ومظاهرها المختلفة من بيع أو شراء .

كما لا نجد فيه تصويرا صادقا للحياة الخلقية فهو يُظهر العرب كلهم كرماءَ شجعانا ويسكت عن الجوانب السلبية في الخلق : وكذلك لن تجد في هذا الشعر الا لهجة قريش اما اللهجات الأخرى ولغة الجنوب فلا أثر لها في شعر ، الأمر الذي يطعن في صحة هذا الشعر .

وبعد ان يعدد بواعث وضع الشعر ويردها الى الأسباب السياسية والعصبية القبلية والدين والقصص والشعوبية والرواة انفسهم ، يخرج بالنتيجة التي وُضع الكتابُ من اجلها وهي ان هذه الأشعار تمثل الحياة الاسلامية ولا يمكن استخراج صورة منها للحياة الأدبية الحقيقية للعصر الجاهلي (١) :

وقد تصدى له كثير من الأدباء والكتاب فتناولوا كتابه بالنقد والنقض ، وهو في الحقيقة رد على جميع القائلين برفض

(١) الحوفى (دكتور) توثيق الشعر الجاهلي هي ص : ٨

الشعر الجاهلي من عرب او مستشرقين وسواهم . فكان بعضهم في رده معتدلا وغلا آخرون فاشتدوا .

ولن نتطرق في حديثنا هذا الى الردود الكثيرة التي ملأت بطون الكتب وخرجت بنتائج كثيرة اقل ما يقال فيها أنها قدمت دراسة للشعر الجاهلي على مختلف جوانبها ، لا أظن أن الباحثين كانوا سيشتغلونها لو لم يكن هذا الحافز القوى للعمل ، ومن ثم استطاعوا ان يثبتوا صحة كثير من هذا الشعر ، ويشيروا الى ما تطرق اليه الشك منه (١) . ونحن عندما نطبق أسباب هذا الشك في الشعر الجاهلي على شعر هذه الحرب نلاحظ أننا نستطيع ان نحكم بصحته وصدق رواته على ضوء النقاط التالية :

أولاً :

ان رواة هذا الشعر معروفون بصدق روايتهم وتحريهم عن الشعر الصحيح وتمحيصهم الأخبار وهم : المفضل الضبى والأصمعي وأبو عبيدة وابن الأعرابي ومحمد بن حبيب وابن السكيت والمفضل بن سلمة وثعلب والسكرى . وقد ورد هذا

---

(١) شوقي ضيف (دكتور) العصر الجاهلي الصفحات من ٦٤ الى ١٨٣ وناصر الدين الأسد (دكتور) مصادر الشعر الجاهلي من ٤٠٣ الى ٤٢٨ والحوفي : توثيق الشعر الجاهلي ٨٢٥ .

الشعر ضمن رواية القصة أو في دواوين شعراء هذه الحرب أو مجموع الشعر الجاهلي المختار .

ثانياً :

لقــد ورد خبر هذه الحرب في المصادر الموثوق بها من مؤلفات الثقات مثل كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني والعقد الفريد لابن عبد ربه والكامل لابن الأثير ، وحاولنا أن ننسب كل شعر الى روايته من الذين ذكرناهم في الفقرة السابقة :

ثالثاً :

في المقدمة التي ذكرناها عن الشك في الشعر الجاهلي وأسباب انتحاله تطرقنا الى بعض هؤلاء الرواة والمؤلفين القدماء ، وكيف أنهم كانوا يزيفون كل شعر منحول ولا يقبلونه . واذا أثبتوا في كتبهم شعرا أو نقلوا خبراً نبهوا إلى مواضع الشبهة فيه ، وعلى هـذا فالشعر الذى يورده هؤلاء الرواة دون تعليق يدخــل في مجموعة الصحيح الموثق . واذا شكوا في نسبة الشعر لقائل معين نبهوا اليه أيضاً :

رابعاً :

أما بالنسبة لبواعث الشك ودواعي الانتحال التي ذكرها القدماء والمحدَثون ، العرب منهم والمستشرقون ، فنحن نجدها تبتعد عن طبيعة هذه الحرب وشعرها . فاذا ما تذكرنا أن من دوافع شكهم في الشعر الجاهلي كونه لا يمثــل الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب ، ظهر لنا أن هذه الدوافع لا تَمَسُّ شِعرَ هـذه الحرب ولا تقرب منه لأن للحرب ميدانا تخوضه فتدور حوله معاني الشعر واغراضه وموضوعاته .

ولن نستطيع أن نقرر لشاعر الحرب أن يقــول قصائده تحت تأثير مباشر وظاهر من الدين او الاقتصاد او السياسة أو أية قضية من قضايا العقل والفكر مبتعدا عن ميدانه الذي يخوضه في أشـد حالات الحماسة والهياج . فضـــلا عن ذلك فان بعض ما يخص امور الحياة في حالة السلم ينـدر أن تسمو إلى مستوى الشعر وهو في المعركة ، ومـع ذلك فنحن نستطيع أن نلتمس بعض آثار الحياة الدينية في أشعارهم من مثل قسمهم بالأوثان والاصنام التي كانت تعبد آنذاك . على أن هذه الحرب كانت بدافع الثأر والعصبية وهما ظاهرتان بارزتان في شعرها .

أما إذا انتقلنا الى أسباب الوضع وبواعثه ، فأولها السياسة

وكانوا يريدون بها العـداءَ بين الأنصـار والمهاجرين وعودةَ العصبيات القبلية في العصر الاموي ، لكننا نجد أن حرب داحس والغبراء ليس لها مع هـذه الامور أية علاقة . وقالوا في الدين أن اكثر الشعر الجاهلي يتضمن أبياتاً تبشر بالدعوة الاسلامية وبالنبوة وليس في شعر هذه الحرب ما يؤيد ذلك .

وأما القصص فان سند الرواة والموثقين وطبيعة الشعر الوارد في قصة الحرب يردّ هذا الزعم القائل بأن اكثرالشعر الجاهلي جاء لتحلية القصص وتثبيتها دون مراعاة للعـلم والصدق . مـع أن شعر هذه الحرب ليس فيه ما ينافي العلم والصدق .

ولم تقم حرب داحس بين العرب والفرس او العرب والروم ليكون هذا الشعر مصنوعا بدافع الشعوبية بل هو شعر قيل فى حرب بين قبيلتين عربيتين تلتقيان في نسب واحد .

وأما السبب الأخير وهو الرواة فان التاريخ شهد لرواة هذه الحرب بالصدق فيما يروون وتراجمهم في أمهات الكتب القديمة صريحة . وقد ذكرناهم في الفترة الاولى .

خامسا :

والنقطة الخامسة والأخيرة في توثيق هذا الشعر جعلناها بمثابة احصاء تقريبى له ، بغية اسناده الى روايته زيادة في توثيقه حتى

لا تبقى للشك ثغرة أو منفذ وتطمئن نفوسنا الى عملنا هذا وينال غايته من العلم والتحقيق . وقد توخينا أن نرتب المجموعات حسب كمية الشعر الوارد فيهـا غير آخـذين بالترتيب الزمني . وأكثر المصادر التي حملت الينا شعر هذه الحرب مختارات الأعلم الشنتمرى من دواوين الشعراء الستة الجاهليين وفيه مائتان واثنان وعشرون بيتا لعنترة ولم تدخل أبيـات زهير في هـذه الاحصائية لأننـا سنذكرها في موضعها من ديوانه . والأعلم راوية عالم باللغة حافظ للأشعـار ومعانيها حسن الضبط لها ولشروحها . ولذلك اشتهر باتقانها ومعرفتها وقد توفى سنة ٤٧٦ هـ ورواية الأعلم هـذه كما يقرر هو مأخوذة عن رواية الأصمعي وغيره (١) من الثقات .

المصدر الآخر الذي يلي الأعلم في كثرة شعره هو أبو عبيدة حيث وصلنا عن طريقه مائه وسبعون بيتا في أيام الحرب ولعدد من شعرائها ، وأغلب ما رواه مقطعات ، وأورد بعضا من القصائد من بينها يائية عنترة وقـد شرحها شرحا وافيا لكننا أخرجناها من احصائيتنا ودخلت في مجموعة الأعلم المذكورة . وأبو عبيدة عالم كان ديوان العرب في داره وقد روى عنـه رجال موثقون مثل المازنى وأبي حـاتم وعمر بن شبة وكانت وفاته في ٢٠٩ أو

(١) الاعلم ـ مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٦٥ و ٣٦٣ بالنسبة للمعلقة والقصيدة اللامية ، وهما القصيدتان الطويلتان ، وأما بقيـة القصائد فتنظر الصفحات من ٣٤٤ الى ٣٥٢ .

٢١٠ أو ٢١١ هـ (١) :

بعد ذلك نأتي الى رواية المفضل حيث أوردت مائة وخمسين بيتا من شعر هذه الحرب . ولو أننا أدخلنا معلقة زهير ويائية عنترة وأبيات النابغة لكانت مجموعة المفضل تفوق في كثرتها كل المجموعات الأخرى ، ولكن القصائد والأبيات دخلت في مواضعها من دواوين الشعراء : والمفضل الضبي غني عن بيان علمه وصدق روايته (٢) :

والرواية الرابعة لأبي العباس (ثعلب) في شرحه لديوان زهير ابن أبي سلمى ، وقد أخرجنا منه لهذه الحرب مائة وواحدا وثلاثين بيتا كلها في مدح هرم والحارث المريين اللذين سعيا في الصلح ودعوا الى نبذ الحرب : وقوام هذه المجموعة المعلقة وقصيدتان : وقد قوبلت هذه القصائد مع مجموعة الاعلم ولم تختلف معها الا في انتظام تسلسل الابيات وبعض الكلمات . وأبو العباس عالم كوفي ثقة توفى سنة ٢٩١ هـ (٣) : ومع ذلك فقد

---

(١) ابو عبيدة - النقائض ١ / ٨١ الى ١٠٧ و ٢ / ٦٦١ الى ٦٧٨ والاغاني ١٣ / ١٤٧ والتبريزي - شرح ديوان الحماسة ٣ / ٢٤ وابن عبد ربه - العقد الفريد ٣ / ٧٠ .

(٢) المفضل الضبي - أمثال العرب ص ٢٩ الى ٤٨ والمفضليات ص ٦٩٣ و ص ٨٢٣ .

(٣) ثعلب - شرح ديوان زهير ص ١ و ٩٦ و ٢٠٦ .

قوبلت قصائد الديوان مع الروايات الاخرى لتزيد في توثيقها .

بعد هذه المصادر الاربعة التي ضمت جميع شعر هذه الحرب لا نجد بدا من ذكر المصادر التى لم نعثر فيها على شعر يقف في مستوى المجموعات السابقة . فعن طريق ابن هشام جمعنا أربعة وثلاثين بيتا . وابن هشام يروى أخبار سيرته عن البكائي وهو أبو محمد زياد بن عبد الله العامري الكوفي الذى توفى سنة ١٨٣ ه ، وكان عالما صادق الحديث . وابن هشام أبو محمد عبـد الملك كان منشؤه بالبصرة ووفاته بالفسطاط سنة ٢١٨ ه (١) .

وأورد عز الدين بن الاثير في الكامل ستة وعشرين بيتا ولم يسند خبره الى راوية لكنه يذكر في خطبة الكتاب ، أنه لم يأخذ خبر هذه الحرب عن أبي جعفر الطبري لذلك فقد جمع أخبار أيام العرب من مصادر أخرى ، غير انه يؤكد انه لم يكن مثل خابطٍ في ظلمة بل كان يجمع عن علم ودراية . وقـد توفى في ٦٣٠ ه (٢) . وقد أورد الخالديان (أبو عثمان سعيدت ٣٥٠ ه) (ابو بكر محمـد بن هاشم ٣٨٠ ه) في الاشباه والنظائر ستـة عشر بيتـا (٣) . وأورد أبو تمـام في حماسته خمسة عشر

---

(١) ابن هشام ـ السيرة ١ / ٣٥٠ و ٢٨٧ وهب بن منبه التيجان ص ١١٩ الى ١٢٥

(٢) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ١ / ٣٤٥ و ٣٤٦ و ٣٤٨ .

(٣) الاشباه والنظائر ٢ / ١٤٤ و ١٩٨ .

بيتا (١) ، والمفضل ابن سلمة بن عاصم (٢٩١ هـ) ثلاثة عشر بيتا في كتابه الفاخر في الأمثال (٢) : ولم يرفع المفضل روايته الى أحد لكننا نراه في مواضع أخرى من كتابه ينقل عن المفضل الضبي وأبي عبيدة . والسكرى (ت ٢٧٥ هـ) في شرح ديوان النابغة أورد أحد عشر بيتا عدا القصيدتين الطويلتين ، الاولى الى عيينة ابن حصن ينهاه عن الخروج من حلف بنى أسد بسبب العبسيين ، والثانية يهنئهم بخروج عبس وعامر من أرض بنى ذبيان (٣) ، وأورد ابن السكيت (ت ٢٤٢ هـ) تسعة أبيـــات للحطيئة في هذه الحرب في ديوانه (٤) .

* * *

الظواهر الفنية في هذا الشعر

بعد أن وثقنا شعر هذه الحرب أصبح في ميسورنا ان نتوافر

(١) ديوان الحماسة (المرزوقي) ١ / ٢٠٣ و ٤٥٤ و ٤٦٩ وكتاب الوحشيات ص ٢٤٢ .

(٢) الفاخر فى الأمثال : ص ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٣٣٥ .

(٣) انظر الفصل الخامس موقف النابغة من الحرب وديوان النابغة ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٤) ديوان الحطيئة ص ٦٠ و ٣١٦

لدراسته لنرى الظواهر الفنية التي ميزت هـذا اللون من شعر العرب عما سواه في الأغراض الأخرى ، وقبل ان نعدد هـذه الظواهر الداخلية والخارجيه منه نستطيع أن نقرر أن شعر الحرب في العصر الجاهلي عامة يتسم بطابع واحـد بحكم البيئة الواحدة والتقاليد المشتركة الموروثة ، لأن للحرب تقاليدها الثابتة ، ولم تكن عفوية كما يتبادر الى الذهن لأول وهلة . وهـذا التقنين الحربي الثابت ترك آثاره على الشعر فمنحه صفة الثبوت في كثير من المظاهر الفنية حتى صارت من الاساليب المتعارفة .

وأهم الظواهر الفنية في شعر هذه الحِرب هي :

١ ـ تعدد الغرض واختلاطه في قصيدة الحرب :

هـذه ظاهرة عامة في الشعر الجاهلي ، فقلما تستأثر قصيدة بغرض واحد ، وهي ظاهرة يستطيع الباحث أن يجد لها تفسيرها من طبيعة الحياة البدوية في الجاهلية ، ففي صحراء شبه الجزيرة تمتزج الأشياء بعضها ببعض امتزاجاً غريبا . وكان لهـذا أثره في تكوين القصيدة ونظامهـا التقليدي ، في مقدمتها وأجزائها الأخرى :

إلا أننا نعلم ما لبيت الشعر في القصيدة من الشخصية على الرغم من ذوبانه في أبياتها مـع الأغراض الأخرى لكنهم مـع

ذلك لم يسمحوا للمعنى أن يتجاوزه واذا تجاوز المعنى الى بيتين عدوا ذلك عيبا ، وقد كان أن ترتب على هذا الاستقلال شيء آخر هو الشعور بالحرية المطلقة :

وقد وجد الشاعر الجاهلي في هذه الحرية مراحا ينطلق فيه إلى الأغراض المختلفة : ووجد الرواة فيه مرتعا خصبا يقدمون ويؤخرون أو ينقصون ويزيدون ظناً منهم أن القصيدة لن تتأثر :

واذن فقد كان استقلال البيت واشتماله على كل المعنى دون الاستعانة بالبيت الذي يليه عاملا في تعدد الغرض عند الشاعر ، وأما اختلاطه فانه من عيوب الرواة حيث وجدوا من تعدد الأغراض واستقلال البيت ما يدعوهم الى هذا التقديم والتأخير والزيادة والنقص .

لذلك فاننا لن نعثر في شعر هذه الحرب على قصيدة طويلة ذات وحدة ثابتة في غرض واحد ، واذا كانت بعض المقطوعات حققت لنفسها مثل هذه الوحدة فالسبب أنها انتزعت من قصائد هي في الأصل متعددة الاغراض : ولو كانت هذه القصائد في غرض واحد لما أخذ منها الرواة هذه المقطوعة وتركوا الابيات الاخرى :

ان التمازج العضوى بين الاغراض المختلفة مهمته تمازج الانسان مع المخلوقات الاخرى ومع الطبيعة وصيرورتهم جميعاً كالشيء الواحد : فاذا أطلقنا كلمة العصر الجاهلي تمثل لنا

الانسان الجاهلي وحيوانه من وحش أو ناقة أو فرس مع ظواهر الصحراء الاخرى من جبل او حجارة او مطر ، فجميع هـذه الصور تتراءى لمخيلتنا اذا ما تمثلت لنا الجاهلية في لفظتها :

وأحرى بالشعر وهو خير ممثل لها أن يأخذ طابعها فتمتزج فيه الأغراض وتصبح كالشيء الواحد حتى أصبح متعذرا علينا الحكم بوحـدة الموضوع أو القصيدة كما نفعل اليوم على أي أثر فني من هذه الآثار اذا نحن أخذنا بمعايير النقد الحديث : ولو لم يكن الشعر الجاهلي كذلك لما كان على هذه الصورة من الروعة والجمال . ومبعث هذا التمازج كما ذكرنا فطرة رجل العصر آنذاك ، وهي فطرة سليمة خلت من شوائب الحضارة الدخيلة فليس في ذهن الشاعر الجاهلي أية ثقافة مسبقة تدخل بصفة العامل المساعد مع العوامل الأخرى :

وقد جعلت هذه الفطرة من هـذا الانسان على الرغم من ذكائه وشجاعته مخلوقا طيب السريرة يعبر عمـا في خوالجـه من الشعور مهما كان لونه ، حبا أم حقدا ، ينعكس على شعره فكانت القصيدة تحوى كل لون من ألوان هذا الشعور :

وقد حاولنا أن نقترب من واقع هذه الظاهرة الفنية بصورة أكثر فرأينـا أن نمثل لها بقصيدتي عنترة وزهير ، وهما من شعر هـذه الحرب تمثلان غرضين متقابلين : الحرب والسلام : وقد أظهرنا بجلاء تام طبيعة هذه الظاهرة بشقيها ، تعدد الغرض وهو

الشق الأول ، واختلاطه وهو الشق الثانى : والقصيدتان متفقتان في تعدد الغرض لكن قصيدة عنترة وهي قصيدة حرب تتمثل فيهـا ظـاهرة اختلاط الأغراض بشكل بـارز ، بينما انتظمت الأغراض في قصيدة زهير وكأن يـد الصنعة تعمدتها تعمدا ، ومن يدرى لعلها فعلت ذلك لتصبح مدرسة قائمة بنفسها :

وقد عد الرواة القصيدتين من المعلقات (١) وكلتاهما تبدءان بمقدمة طللية وغزلية بلغت عنـد زهير خمسة عشر بيتا في ذكر الأطلال ووصف ظعائن الاحباب وهي تجتاز السهول والوديان لترد مياها زرقا فيضعن عندها عصا الترحال والتسيار . وما أسرع ما ينتقل بعدها الى الساعيين من غيظ بن مرة في الصلح بين الحيين العظيمين المتقاتلين ، فيمدحهما ويصف ديات القتلى من الطرفين يتحملها الساعيان ، ويذم الحرب ذما مقذعا وينعتها بأبشع النعوت .

وهنـا يقف قليلا ليتنقل بين ذم الحرب ومـدح المريين ثم العودة الى ذمها وهي تشتعل مرة أخرى على يد حصين بن ضمضم حتى يبلغ به الامر الى للبيت السابع والاربعين حيث ينتقل الى غرض الحكمة يختم به قصيدته . وقـد رأينـا انها كانت في موضوعاتها مرتبة ترتيبا دلت على عنـايته واهتمامه حيث بدأت بمقدمة ثم حديث عن الحرب والسلم يتخلله مـدح لأناس وذم

---

(١) الاعلم : مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٢٩ . وابن الانباري ، شرح المعلقات : ص : ٢٩٤ ؛

لسواهما ثم حديث في الحكمة :

أما قصيدة عنترة التي بدأت بمقدمة طللية وغزلية لم ينس الشاعر أن يضمن هذه المقدمة ابياتا في الوصف استغرقت جل هذه المقدمة ولن يستطيع القارئ أن يجد رابطا - يجمع هذه الموصوفات وانما كانت الأحاديث والخواطر تمر في ذاكرته سراعا فيسجلها على الرغم من انعدام الرابط :

وهذه الموصوفات تختلف بين ناقة أو فرس أو حشايا فراش الحبيبة ، وعندما يبلغ البيت الخامس والثلاثين يعود الى الغزل يضمنه حديثا عن نفسه من نواحيها المتعددة سواء كان ذلك في شرب الخمرة دون تفريط في العرض ، أو حديث عن الشهامة والكرم والشجاعة يعود بعدها الى الخيل وأوصافها ، والشجعان الذين يلتقي بهم ويقتلهم : ولا يفوته وصفهم ، فهم طوال يضعون على أجسامهم أمتن الدروع ويحملون أصلب الرماح : ثم يفجؤك بقصة الجارية التي يرسلها متخفية لتأتيه بأخبار حبيبته تمهيلا لأمر الزيارة وتمهيدا لها . ثم انتقال مفاجئ الى وصف الحبيبة : ثم يباشر غرضا آخر بعيدا عن سابقه هو الهجاء لا يلبث بعده أن يعود الى الفخر والى حديث عن فرسه ، وبعده تهديد لابني ضمضم ووعيد بلقائهما : ثم ينهي القصيدة معتذرا لحبيبته عن انشغاله بأمر هذه الحرب التي يشارك فيها وهو لم يذنب ولم يرتكب أي جرم من جرائمها حتى أنه لا يجد وقتا ليزورها :

يتضح مما ذكرناه أن قصيدة هذه الحرب متعددة الأغراض مختلطتها، ولكنها تختلف من شاعر لآخر ومن قصيدة لأخرى؛ وان صفة التعدد في الغرض ظاهرة عامة وينحصر اختلاطه وتداخله بشعراء الحرب أنفسهم: أما شعراء الصنعة سواء نظموا في الحرب داعين لها أو لسلمها فهم أقل خلطا بين أغراضهم، لأن تهذيبهم لشعرهم أكثر وعنايتهم به أدق. على أن الفوضى المتمثلة في معلقة عنترة بلغت حدا تجعل الناظر يحكم أن هذه القصيدة لم تسلم من عبث الرواة، او انها اكثر من قصيدة تداخل بعضها ببعض، او لعل عنترة لم يقلها كلها مرة واحدة، وانما كان يقولها في ابيات متفرقة وفي ازمان متباعدة.

لقد ظهر من مراجعة شعر هذه الحرب أن ظاهرة انتظام الاغراض المتعددة في شعر زهير عمت قصائده كلها، فقصيدته التي مطلعها (١):

صحا القلبُ عن سلمى وقد كادَ لا يسلو

واقفرَ من سلمى التعانيقُ والثقلُ (٢)

والتي يمدح بها احد الساعين في الصلح والسلم، بلغت واحدا وأربعين بيتا بدأت بمقدمة غزلية انتقل بها الى المدح

---

(١) ثعلب: شرح ديوان زهير ص ٩٦

(٢) التعانيق والثقل موضعان، أي أفاق من حبها بعد أن كاد لا يفيق لشدته.

انتقالا ممهدا فيه صنعة فنية :

تأوّبني ذكرُ الاحبةِ بعدما
هجعتُ ودوني قُلّةُ الحزْنِ فالرملُ (١)

فأقسمتُ جهدا بالمنازلِ من منى
وما سُحِقتْ فيه المقاديمُ والقملُ (٢)

لارتحلنْ بالفجرِ ثم لأدأبنْ
الى الليلِ إلا أن يعرجنى طِفلُ (٣)

إلى معشرٍ لم يورثِ اللومُ جدّهم
أصاغِرهم وكلُ فحلٍ لهم نجلُ

وهو حسن تخلص شبيه بقوله (٤) :

دعْ ذا وعدِّ القولَ في هرمٍ
خيرِ البُداةِ وسيدِ الحضرِ

وهو من آثار الصنعة في شعره . وقد ظهر في ميميته التي

---

(١) تأوبني : أتاني مع الليل ، والقلة أعلى الجبل والحزن الأرض الغليظة .

(٢) سحقت حلقت والمقاديم جمع مقدم الرأس وأراد بالقمل الشعر الذي فيه القمل .

(٣) أي أن تضع ناقتي مافى بطنها فأقيم عليها .

(٤) ثعلب : شرح ديوان زهير ص ١٦٥ والاعلم مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٤٦ .

مدح بها هرم بن سنان بعض تقديم وتأخير في أبياتها ، فقد جاء البيت الرابع في غير موضعه وكان من حقه أن يتأخر إلى موضع البيت الخامس لتنتظم أبيات الغزل في سلمى . ثم يبــدأ المدح بابن ليلى هرم بن سنان :

واما قصائد عنترة الأخرى ، فان بعضها سلمت من تداخل الأغراض واختلاطها ، وبخاصة قصائده القصيرة منها ، وقــد وقع الخلط في القصائد الطوال مثل لاميته (١) التي بدأت بغزل وفخر ثم غزل وفخر ايضاً يعقبها وصف الخيـل فهي قصيدة تمثل اختلاط الاغراض : ولكن حائيته (٢) مثــلا وان تعددت فيها الأغراض سلمت من اثر الخلط بينما يعود في قصيدته التى مطلعها (٣) :

نأتكَ رقَاشِ إلا عن لُمَـــامِ
وامسى حِبلُهـــا خلِقَ الـرمـــامِ

الى الحالة التي وصفناها في معلقته . وهاتان القصيدتان قال عنهما الاعلم (٤) : انهما قيلتا في يوم من أيام حرب داحس :

(١) الاعلم مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٤٦ .

(٢) الأعلم مختارات الشعر الجاهلي ص : ٣٦٥

(٣) المصدر السابق ، ص : ٣٤٤

(٤) ثعلب شرح ديوان زهير ص ١٦٥ والاعلم - مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٤٦ .

وعندما نحاول ان نخرج من نطاق شعر زهير وعنترة إلى سواهما من شعراء هذه الحرب وجدنا الظاهرة مازال سارية في شعرهم ، فقصيدة المعقر بن أوس (١) مثلا تبدأ بالغزل وتنتقل بين الوصف والفخر وذكر الخيل :

وكـذلك قصيدة خراشة بن عمرو العبسي (٢) وان ظهر عليها أن صاحبها حاول ان يعتني بالاغراض لتسلم من ظاهرة الخلط . وفي شعر قيس بن زهير قصيدة ميمية (٣) تتمثل فيها هذه الحالة من تعدد الأغراض واختلاطها .

• • •

٢ ـ شعر مقطعات :

لقد حوت المجموعة الشعرية التي جمعناها عن هذه الحرب عددا كبيرا من المقطعات بلغت ما يزيد على تسعين مقطعة ليس بينها من القصائد سوى معلقتي عنترة وزهير ، بلغت الأولى سبعة وثمانين بيتا والثـانية تسعة وخمسين بيتا وقصيدة لزهير بواحـد

---

(١) ابو عبيدة ـ نقائض ص ٣٤١

(٢) المفضليات ، ص ٨٢٣

(٣) ابو عبيدة ـ نقائض ١ / ٩٦ والاغاني ١٧ / ١٣٨

واربعين بيتا وهي لا ميته في مدح هرم والحارث المريين (١) ؛ ودخلت ضمن القصائد الطوال القليلة في هــذه الحرب لامية عنترة أيضاً والتي مطلعها (٢) :

طال الثواءُ على رسومِ المنزلِ

بين اللُكيكِ وبين ذاتِ الحومَلِ

وهي ثلاثة وخمسون بيتاً وقصيدة المعقر بن أوس حليف العامريين والعبسيين ومطلعها (٣) :

أمنْ آلِ شعثاءَ الحَمُولُ البواكِرُ

من الليلِ أم زالتْ قُبَيلُ الأباعِرُ

وتقع في ثلاثة وعشرين بيتاً . وقصيدة ثالثة لزهير أيضاً في ستة عشر بيتاً في مدح المريين (٤) : وقصيدة قيس بن زهير (٥) في ستة عشر بيتاً والربيع بن زياد العبسي في أربعــة عشر بيتاً يصف فيها الحرب (٦) . فاذا أضفنا اليهــا قصيدة خراشة بن

---

(١) ثعلب شرح ديوان زهير ص ٩٦ والأعلم مختارات الشعر الجاهلي ص ٢٧٠ .

(٢) مختارات الشعر الجاهلي ، ص ٣٤٦

(٣) ابو عبيدة ـ نقائض ٢ / ٦٧٧

(٤) الاعلم مختارات الشعر الجاهلي ص ٢٠٦

(٥) المفضل الضبي ، أمثال العرب ص ٣٤

(٦) الخالديان الاشباه والنظائر ٢ / ١٤٤

عمرو في ثلاثة عشر بيتاً (١) وعنترة في احد عشر بيتاً (٢) يصبح عدد هذه القصائد الطوال عشر قصائد . وفي أول هـذا الكلام قلنا ان شعر الحرب ضم من المقطعات ما يزيد على تسعين ، واذن فقد ظهر لنا بعـد مابين المقطعات والقصائد : وهذه المقطعات بعضها القليل من عشرة أبيات وتسعة ابيات إلى سبعة . أمـا الغالبية العظمى وتقدر بثلاثة وستين مقطوعة ، نجـد تسع عشرة مقطعة منها من ستة أبيات ، وسبع مقطعات من خمسة أبيات ، وخمس عشرة مقطعة من اربعة ابيات ، وست مقطعات من ثلاثة ابيات واربع عشرة مقطعة من بيتين ، وتوجـد ثلاثة أبيات منفردة .

وهكذا اصبح واضحاً ان الظاهرة المميزة لهذا الشعر هي ظاهرة المقطعات وان لهذه الظاهرة أسبابها ، وأهم هذه الأسباب ان الرواة يوم نقلوا خـبر الحرب اختاروا من القصائد ما يفي بغرض اليوم او الحادثة كالاشارة إلى اسم ذلك اليوم او الحادثة أو اسم شخص معين وأهملوا من القصيدة أبياتها الأخرى ، وعدا الزمن على بقيتها فضيعها ولم يبق لدينا الا هذه الأجزاء المقتطعة من القصائد . ومن أسباب ضياع هـذه القصائد وبقـاء أبيات منها هو نسيان الرواة ، والنسيان آفة للعلم والراوية . فالراوية

(١) المفضليات ص ٨٢٣

(٢) الاعلم مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٤١

عندما يستشهد بالقصيدة يكون قد نسى منها الشيء الكثير ولم يعلق في ذهنه إلا أبيات قليلة .

وتوجد أسباب خفيــة منها ما يتعلق بالناقلين او النساخ ، غير أن ظاهرة المقطعات فى الحرب ليست غريبة عليها لما تطلبه من السرعة في القول والسرعة في ايصاله وعدم المبالغة والاسراف في الوصف وبث الروح المعنوية في نفوس القوم بأوجزعبارة . وذلك لان الموقف لا يحتاج إلى الاطالة . واخماد حماسة الخصم بتذكيره بهزائم قومه المعروفة . ففي هــذه الحالة تصبح المقطعة أكثر فائدة من الناحية العملية لكن التمييز بين المقطعة الأصلية والمقطعة المنتزعة من قصيدة طويلة أصبح أمراً متعذرا بعد أن ضاع كثير من الشعر الجاهلي وشعر هذه الحرب بصورة خاصة .

* * *

٣ ـ انعدام المقدمات والمطالع المصرعة :

هـذه الظاهرة او بالأحرى هاتان الظاهرتان ، « انعــدام المقدمات والمطالع المصرعة » هما النتيجة الطبيعية المعقولة للظاهرة السابقة ، وهي أن شعر هــذه الحرب شعر مقطعات وإلا فما النتيجة المرجوة لشعر بلغت مقطعاته سبعا وتسعين مقطعة ليس فيه من القصائد الطوال غير معلقتي زهير وعنترة وأربع قصائد

أخرى لها : أما الباقيات فهي قصائد قصيرة في ستة عشر بيتا إلى عشرة أبيات ، وللرقم الكبير الباقي لعددها بعد هذه العملية الحسابية فهو يخص المقطعات التى ذكرنا أنها جاوزت التسعين مقطوعة : وتتراوح أبياتها بين البيتين إلى التسعة أبيات . غير أن القصائد الطوال يتوافر في بعضها مايتوافر في الشعر الجاهلي من الظواهر الفنية كالمقدمات الطللية او الغزلية والتصريح . وقد وجدنا أن ثلاث عشرة قصيدة ومقطوعة فقط وضع لها شعراؤها مقدمات غزلية او طللية وخمس عشرة قصيدة فقـط جاء بها أصحابها مصرعة :

وعند معالجتنا لهـذه المسألة لاحظنا أن ثلاثا من القصائد المذكورة مبدوءة بالمقدمات الغزلية أو الطللية لزهير بن أبي سلمى وهو شاعر صنعة ولشعره طابع مميز . واذا ما أتينا الى القصائد العشر الباقيات نجد أن معلقة عنترة مصرعة أيضا لكن مطلعها غزل حقيقي وليس تقليديا مثل بقية القصائد الجاهلية حيث يتغزل بابنة عمه « عبلة » والمعلقة عند الأصمعي تبدأ بقوله (١) :

يا دارَ عبلةَ بالجواءِ تكلمى　　وعِمى صباحا دارَ عبلةَ واسلمى

وهو غزل حقيقي في أسماء لم يصطنعها أو وقائع يتخيلها : والعاطفة في هذه المقدمة صادقة ومن يدرى : ربما قيلت أبيات الغزل هذه في معزل عن أبيات القصيدة الأخرى ؟ على أن رواية

---

(١) الاغاني ٩ / ٢٢٢ .

الأصمعي المذكورة أزالت عن القصيدة طابعها التقليدى فلم يبق فيها أثر للصنعة :

على أن معاصرة هـذه الحرب لمدرسة الصنعة كان يحتم أن تبرز في شعرها بعض مظاهرها لكننا لم نجد صدى كبيرا لهـذه المدرسة في شعر الحرب لأنها بعيدة عن الصنعة التى من صفاتها التطويل والتزويق ، وان أحداث الحرب السريعة أبعدت الشاعر عن الالتفات الى هذا التزويق والاختيار :

أما التصريع فلم نجـد له اثرا في المقطعات لأنـه جزء من الاحساس بالموسيقى ، ورغبة الشـاعر في ادخال الرنة الموسيقية في القصيدة الجاهلية محاولة منـه في اعطائها نغما جديدا يضاف الى أنغام القافية ، وليست الحرب مجالا لهذا الفن المقصود بذاته ، وبعبارة أخرى ليس في امكان شاعر الحرب أن يلتفت لأية صنعة قديمة ولا يمكنه التفكير بجديد ، أما الذي يقع منه في شعره فهو عن عفو الخاطر أو تقليد يسير عليه . هذا الى أن شعر هــذه الحرب مقطعات منتزعة من قصائد كما قررنا في بدء حديثنا ؛ فمتى عثرنا على القصيدة نفسها التي انتزعت منها المقطوعة استطعنا أن نحكم على ظاهرة التصريع فيما اذا كانت موجودة أو منعدمة :

* * *

٤ - الروح القبيلية :

ويتميز شعر هذه الحرب بظاهرة أخرى هي تصويره للتماسك بين أفراد العشيرة الواحدة ، وهو أمر له مكانه المهم في تحقيق الانتصار : وظاهرة مثل هـذه حتمية في حرب امتـد لظاها الى جميع الأحياء من القبيلتين :

وقد رأينا في موضوعات الحرب أن جل فخرهم وحماستهم كانا منصبين على مدح قبائلهم والاشادة برجالاتها وانتصاراتهم ، فضلا عن المفـاخر التى كان يتغنى بها الأشخاص حين يعددون وقائعهم ولقاءاتهم الفردية . وهما موضوعان يكمل احدهما الآخر : وسوف نختـار من النماذج ما يدل على تمكين الروح القبلية التي كان القوم يتحلون بهـا آنـذاك : وهي رابطة يعولون عليها ويدخلونها ضمن ما كانوا يعدونه من الوسائل لبلوغ النصر :

ومظاهر هـذه الروح القبيلية في أشعارهم ليس لها حدود ولا صورة واحدة ، بل تتشكل مع نوع الغرض الذي يبغى الشاعر تأديته : فشريح بن بجيل الثعلبى مثلا يبدى اعتزازه بقومه الذين وقفوا للعدو وقفة ردت لشريح كرامته عندما حاول العبسيون ايذاءه والنيل منه : وذلك لأن قوم شريح ليسوا قوم سوء أذلة ، فردوا عنترة وغيره عن الغاية التي أرادها في انزال الشر بشريح : [١]

وهكذا أحرزت شريحا رماح قومه وحالوا دون عبس ودونه ، بل حالوا دون عبس والماء حتى كادوا يقتلونهم عطشا (١) :

ولـو أنَّ قــومى قــومَ سوءٍ أذلــةً
لأخرجنى عوفٌ وعوفٌ وعِصَيدُ (٢)

وعنترة الفلحــاءِ جــاءَ ملأمــا
كأنك فِنـدٌ من عَمــايةَ أســودُ (٣)

تُطيفُ بــه الحُشاشُ يبسٌ تلاعُــهُ
حجارُتهُ من قلة الخيرِ تَصلُــدُ (٤)

ولكــنَّ قــومى أحرزتنى رماحهُــم
فأبى وأُعطى الــودَ مَنْ يتــوددُ

اذا جـاء مرى جررنا برأسه الى الماء والعبسي بالنار يفأد (٥)

ومعقل بن عوف بن سبيع تبرز فيه الروح القبيلية فيرتفع بها

---

(١) ابو عبيدة ـ النقائض ١ / ١٠٧

(٢) عوف الأول المذكور في القصيدة ابن أبي حارثة والثاني ابن سبيع وعصيد لقب حصن بن حذيفة .

(٣) الفلحاء كل مشقوق الشقة ومنــه قولهم الحديد بالحديد يفلح والفلاح الأكار الذي يشق الأرض . وفند قطعــة من الجبل وعماية جبل .

(٤) الحشاش الذين يحتشون يقول لاخير فيهم . والصلد اليابس .

(٥) يفأد يشوى ، والفئيد الشواء

على القبائل من بغيض حتى أن الدماء التي طلت على غدير « قلهى » كانت بفضل منهم أي أنهم غضوا نظرهم عنها متفضلين ولو شاءوا لامتنعوا لكن طالما ان الحكم بأيديهم يحكمون مايريدون (١) : فهم يتفضلون على الناس :

نعمَ الحيُ ثعلبةُ بنُ سعـدٍ   اذا ما القومُ عضّهم الحديدُ
همو ردّوا القبائلَ من بَغيضٍ   بغيضهم وقد حمىَ الوَقُودُ
تُطَلُّ دماؤهم والفضلُ منـا   على قَلْهى ونحكمُ ما نُريـدُ

أما دختنوس بنت لقيط بن زرارة فقد كثر في شعرها ترديد أسماء القبائل ، وبخاصة تلك القصيدة التي تخاطب بها النعمان بن قهوس التيمي يوم فر في معركة شعب جبلة وترك لقيطا تقتله عبس وعامر . وكان النعمان حاملا لواء قومـه ومن سار معهم الى جبلة وهو أحد فرسان العرب وشجعانها . ولكن فراره أوقع حليفه لقيطاً في يـد أعدائه . ويبدو من قول دختنوس أنه جاء مناصرا غطفان وذبيان ضد العبسيين . وكانت تميم تضمر لعبس حقدا قديما لحروب مضت بينهم الا أن النعمان خسر تيماً وذبيان وغطفان وخسر نفسه (٢) :

فرَّ ابنُ قهـوسٍ الشُجـاعُ بكفـِ رمحٌ مِتَـلُّ (٣)

---

(١) ابو عبيدة ـ النقائض ١ / ١٠٧

(٢) المصدر السابق ٢ / ٦٥٦

(٣) المتل : الشديد

يعدو به خاظي البضيعُ كأنهُ سِمعٌ أزلٌ (١)

أنلكَ من تيمِ فدعْ غطفا نَ ان ساُروا وحلّوا

لا منلكَ عِدهمُ ولا آبا ك أن هلكوا وزلّوا

فخرَ البغيّ بحدجِ ربتها اذا الناسُ استقلّوا (٢)

لا حِدَجها ركبتْ ولا لِرَغالَ فيه مستظَلٌ (٣)

ولقد رأيتُ أباكَ وسطَ القومِ يَربقُ أو يحلٌ (٤)

متقلدا ربقَ الفُرارِ كأنه في الجيد غُلٌ

وبالروح القبيلية نفسها تتحدث معتذرة عن الاخفاق الذى أصاب قومها في معركة جبلة واضعة لذلك أسبابا تبرز فيها اخفاقهم. وهذا من دختنوس ولاء عظيم للقبيلة وحب كبير لها، وان التاريخ يخبرنا عن هذه المعركة أن دختنوس لم تكن راضية

---

(١) خاظي البضيع: ممتلىء اللحم . السمع ولد الضبع من الذئب. والأزل: الأرسح.

(٢) الحدج كالهودج تركبه النساء. وقال في اللسان «حدج»

فجر البغي بحدج ربتها اذا ما الناس شلوا

لكنه في مادة (رغل) يورد البيت والذي يليه على الوجه التالي:

فخر البغى بحدج ربتها اذا الناس استقلوا

لارجاعها حملت ولا لرغال فيه مستظل

(٣) رغال الامة، وانظر الفقرة السابقة.

(٤) يربق: يشد

أن يميز جيش قومها ليشارك في هـذه الحرب ، غير أنها وقد صدق حدسها لم تنكل بمن خالفها ، وظلت تدفع عن قومها عار الهزيمة ، وتنصف أعداءها بما أبدوه من ضروب الشجاعة حتى استطاعوا أن يحققوا النصر فقالت (١) :

لعَمرِي لأن لاقتْ من الشرِ دارمٌ
عنـاءً لقـد آبتْ حميـدا ضرابُها
فما جَبنوا بالشِعبِ اذ صبرتْ لهم
ربيعـةُ تُـدعى كعبُهـا وكلابُها
عَصوا بسيوفِ الهندِ واعتكرتْ لهم
بِرَكاءَ موتٌ لا يطيرُ غرابُهـا (٢)
أسـودُ شرىً لاقتْ اسودَ خفيـةٍ
سرابيلُهـا المـاذِيُّ غُلبٌ رقابُهـا

ونجد أحاديث القوم والعشيرة في شعر قيس بن زهير وشبيم ابن خويلد الفزارى يأخذ صورة العتاب وكأنهم يتحرجون من مخاطبة قومهم بما يسيء اليهم والى عشيرتهم على الرغم من أنهم يلقون من هؤلاء القوم عنتا وأذى ، أو يمسكون عن وصف قومهم بما يسيء اليهم على الرغم من أنهم يشعرون بالظلم الذى يلحقهم هم أو يلحق الآخرين على أيدي قومهم : قال قيس ابن

(١) ابو عبيدة نقائض ٢ / ٦٦٦

(٢) ركاء : واد بسرة نجد ـ معجم ما استعجم ص : ٦٦٨

زهير وقد شعر أن قومه يطمعون فيه (١) :

أظنُّ الحلمَ دلَّ عليَّ قومي ... وقد يُستجهلُ الرجلُ الحليمُ

وقال شييم يؤنب قومه على فعلتهم عندما قتلوا عبهيا بعد الصلح فخرقوا بنودا تعاهدوا عليها (٢) :

يا قومَنا لا تقرونا بمظلمَةٍ ... يا قومنا واذكروا الالاءَ والنعما

وشعر عنترة في القبيلة جدير بوقفة ، لأن هذا الفارس مع معاناته من النسب واللون لم يدخر وسعا في أن يتفاعل مع قومه ومجتمعه مغاليا في هذه الروح حدا جاوز المألوف من أشعارهم وهي ظاهرة عند الذين أحاطت بهم ظروف عنترة ليست بغريبة : وقد نلاحظ في غير عنترة من يناقض مجتمعه في عداء مستحكم مع كونه يحمل نفس ما يحمله عنترة من معاناة اللون والنسب :

وشعر عنترة القبلي انحصر في الأمجاد الحربية التي خاضتها قبيلته ، يعددها ويتطرق من خلالها الى الفخر بأمجاده وبطولته ، وعلى هذا فعنترة خير من وفق في هاتين الظاهرتين : الحديث عن القبيلة وعن نفسه . وربما كانت بعض قصائده مدحا خالصا لشجاعته وبعضها الآخر لقبيلته قال (٣) :

---

(١) المفضل الضبي ، ص ٣٥

(٢) المصدر السابق ص ٤٣

(٣) الأعلم : مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٤٧

ناديتُ عبساً فاستجابُوا بالقنـا

وبكـلِ ابيضَ صارمٍ لم يُنحَلِ

حتى استباحُوا آلَ عوفٍ عنوةً

بالمشرفي وبالوشيجِ الذبّـلِ (١)

اني امرؤٌ من خيرِ عبسٍ منصبا

شطرى واحمى سائرى بالمنُصلِ (٢)

وقال يفتخر بنفسه ويذكر قومه وقبيلته (٣) :

يقدمُه فتى من خيرِ عبسٍ ابوه ، وأمُه من آلِ حامِ

وقد توسع في فخره حتى أشرك جنسا من البشر .

وعندما تدخل عبس مع عامر في حلف ويحـلان أرضا واحدة تصبح الروح القبيلية عند عنترة ليست في عبس وحدها بل تمتد إلى الحليف وتظهر آثارها في شعره (٤) :

---

(١) عنوة : قهرا ، والمشرفي : السيف ، والوشيج : الرمح

(٢) أي ان نسبه من جهة ابيه معروف أما من جهة أمه فشجاعته تغنيه عنه .

(٣) الاعلم : مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٤٦

(٤) الاعلم ص : ٣٤٩

ومغيرةٍ شعواءَ ذاتِ أشلّةٍ
فيها الفوارسُ حاسرٌ ومقنّعُ (١)
فزجرتُها عن نسوةٍ من عامرٍ
أفخاذُهنَّ كأنهن الخُروعُ

وهو عندما يذكر قبيلته في أمجادها انما يعدد أيامها ومواقعها والملوك والأبطال الذين قتلوا على يدها قال (٢) :

فان بك عزٌ في قُضاعةَ ثابتٌ
فانَّ لنا برحرحانَ وأسقفِ (٣)
كتائبِ شهبا فوقَ كلِ كتيبةٍ
لواءٌ كظلِ الطائرِ المتصرّفِ (٤)

وقوله (٥) :

---

(١) (مغيرة) خيل تغير فى الضحا . (وشعواء) متفرقة (واشلة) جمع شليل . وهو الدرع . (وحاسر) ليس على رأسه مغفر ولا بيضة (ومقنع) متستر بمغفره ودرعه

(٢) الاعلم ص : ٣٤٣

(٣) رحرحان واسقف موضعان . وقضاعة قبيلة

(٤) المتصرف المتقلب . أي فوق كل كتيبة علم يخفق كظل الطائر المتنقل .

(٥) الاعلم : مختارات الشعر الجاهلي . (ص : ٣٥٢) .

وقد عَلِمتْ بنو عبس بأنّي
أهشُّ اذا دُعيت الى الطِعانِ
ونعمَ فوارسُ الهيجاءِ قومي
اذا عَلِقُوا الأعنّةَ بالبَنانِ
هم قتلوا لقيطا وابنَ حُجْرٍ
وأرْدَوا حاجبا وابنَيْ أبانِ

وقد عد شعر النابغة عموما شعرا قبيلياً ومقطعاته (١) في هذه الحرب كلها ذات طابع قبيلي ، فالظاهرة في شعره متميزة تماماً . ولا يعتبر شعر زهير قبيلياً لخروجه من قومه وحلوله في سواهم ، وأن قصائده أكثر ما يتردد فيها ذكر الرجال والممدوحين او المهجوين ، ولكن ظاهرة أخرى سماها النقاد « بالانسانية » برزت في شعر زهير ، وكانت فتحا جديدا في آفاق الشعر الجاهلي .

: : : . :

(١) المفضل الضبي ص ٣٨ وديوانه ص ٢١٤ و ٢١٦

خصائص مميزة

١ ـ اللغة :

شعراء هذه الحرب ينتسبون الى نجد ، ولغتهم لغـة أهل العالية ، وجميع وقائعهم وحروبهم جرت في عهد قريب من الاسلام ، حتى أن بعض المصادر ذكرت أن بنود الصلح الثاني عنـدما تجددت الحرب ، عقدت في السنة التي سبقت البعثة ، فلما جعلت دية « بيحان » مائتي بعير كان خارجة بن سنان دفع لأبي بيحان منها مائة وحط الاسـلام عنه مائة ، وذلك حيث يقول خارجة (١) :

أعتبتُ عن آلِ يربوعٍ قتيلَهمُ
وكنتُ أدعى َ إلى الخيراتِ اطوارا (٢)
أعتبتُ عنهم أبا بيحانَ أرسنَهـــا
ورداً وُدهماً كمثلِ النخلِ ابكارا (٣)

---

(١) المفضل بن سلمة ـ الفاخر ص : ٢٣٣ ـ ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ٣ / ٧١ والميداني مجمع الامثال ٢ / ٦٦

(٢) اعتبت ارضيت وارجعت الود الى سابقه

(٣) ارسنها شدها بالرسن والود الابل بعينها ودهما سودا

واذن فاللغة السائدة آنذاك هي اللغـة التي نزل بها القرآن الكريم ، وكانت أطراف شبه الجزيرة واجزاؤها الأخرى قـد توحدت بها خـلا لهجات القبائل المتباينة التي كانت تميز قبيلة عن قبيلة . غير أن اللغـة التي انتظم فيها شعر هـذه الحرب توسطت بين السهولة والصعوبة ، ولكنها لم تبلغ حد الاغراب في ألفاظها ومعانيها . فلم يوجد بين مفرداتها حوشي غريب ، ولا مستقبح : ولعـل مرد ذلك يرجع الى نشوب هـذه الحرب في فترة من العصر الجاهلي متأخرة جدا حيث بلغت اللغة نضجها وتطورها . وهو اعتقاد له ما يدعمه من الواقع ، فقـد رأينا أن الشعر الجاهلي يزداد غموضاً ووعورة كلما ابتعـدنا عن عصر القرآن : هذا وان كنا نعتقد أيضاً أن اوليات شعر الجاهليـة البعيدة لم تصل الينا وان الذى بين أيدينا يمثل عصرا متأخرا منها وسبب آخر جعل من لغة هذه الحرب سهلة قريبة الفهم هو في رأينا سبب مقصود لذاته من قبل شعراء الحرب أنفسهم ، فانهم كانوا يعرفون ما لشعرهم من قيمـة واثر في ايصال آرائهم وافكارهم وما يريدون ايصاله الى مجتمع شبه الجزيرة ، لذلك كانوا يعمدون إلى الابانة والسهولة ، معتبرين ذلك جـزاء من معاركهم وسلاحاً يصـل بهم الى النصر : خاصة وأن أبيات القصيدة كانت تمرق الى ارجاء شبه الجزيرة في سرعة تفوق انطلاق السهام .

والناظر الى شعر الشعراء الذين خاضوا الحرب بسيوفهم ، واقتحموا غمراتها بقصائدهم ، يجد ان شعرهم اكثر سلاسة واقرب فهما من اولئك الذين لم يكونوا فرسان هذه الحرب وانما شاركوا بشعرهم فقط ، لسبب شخصي او قبيلي في مدح او ذم ، والذي يتصفح روايات الاخباريين في المصادر القديمة التي تروى خبر الحرب يجد لغة الشعر فيها غاية في الوضوح اذا قيس للشعر الوارد في الدواوين ومجموعات الشعر الأخرى وكتب الاختيارات والأدب والمعاجم : على آن للروايات نفسها تختلف في لغتها من رواية لأخرى ، فالشعر الوارد في رواية المفضل الضبى (١) وابي عبيدة (٢) بصورة خاصة اكثر اعرابا من المصادر الأخرى : وربما كانت الأشعار المذكورة في خبر الحرب الذي يبسطه ابن الأثير (٣) اكثر وضوحاً من غيره ، وهو أمر طبيعي لأن ابا عبيدة رجل لغة ، وابن الأثير رجل تاريخ ويهمه أن يقرب الرواية من أذهان الناس ويوضح في شعرها ، وعلى هذا الاساس يتم اختياره للشعر . وعلى كل حال فان شعر هذه الحرب أميل إلى الوضوح منه الى التعقيد : وقد أدرك الشعراء أنفسهم مضاء هذا السلاح ، سلاح القصيدة حيث

---

(١) امثال العرب ، ص ٢٦ وما بعدها

(٢) نقائض جرير والفرزدق ١ / ٨١ وما بعدها

(٣) الكامل في التاريخ ١ / ٣٤٤ وما بعدها

يقول عنترة (١) :

سيأتيكم مني وان كنت نائيا
دخان العلندي حول بيتي مذود

قصائد من قيل امرىء يحتذيكم
بني العشراء فارتدوا وتقلدوا

وبعد الا يعتبر قول قيس بن زهير غاية في وضوح معناه وسلاسة ألفاظه وكأنه ليس من شعر الجاهلية وذلك عندما أوشكت الحرب على نهايتها ، فجعل يبدي ندمه على قتل الناس وولوغه في دمائهم حتى صار مثلا في الشؤم (٢) :

انَّ يومَ الهباءةِ اورثني الذلَّ فاصبحتُ ظالماً مظلوما
كان ظلمي قتلَ سراةِ بني بدرٍ فأصبحتُ بعدَهم مرحوما
فخضبتُ السنان من ثُغُرِ القومِ وكانوا للناظرينَ نجوما
كان ثأري لمالكِ بنِ زهير واحدا كان فيهمُ معلوما
فقتلتُ الجميعَ من حذرِ الثكلِ لقد كنتُ في الدماء نَهوما
كان ظلمي وكان ظلمُهم أمسِ عظيماً ورأيهُم موضوما
لطمَ القُوم داحسا حذَرَ السبقِ لقد كانَ داحسٌ مشئوما
ظلمونا بقتلِنا وظلمنا معشرا كان يومُهم محتوما

• • •

---

(١) الاعلم - مختارات الشعر الجاهلي ص ٢٥٨

(٢) ابو حاتم السجستاني - المعمرين ص ١٤٥

٢ ـ الأسلوب :

أما الاسلوب ، فهو اطار الفكرة وفي هذا الاطار يضع الشاعر معانيه ، وقد رأينا قبل قليل ، عند دراسة الظواهر الفنية لشعر هـذه الحرب ، ان بناءه الخارجي كان متميزاً بقطعات قصار لا قصائد طوال :

وكان من أثر هذه الظاهرة أن انعدم التصريح فيه ، وقد عزونا بعض هذه المقطعات الى أنها منتزعة من قصائد طوال او قصار ، لم تصل الينا بسبب اغفال الرواة لها ، او ضياعها مع ما ضاع من شعر العصر الجاهلي : وعزونا بعضا من هذه المقطعات الى كونها أصلية وضعت على نمط الحرب التى تحتم السرعة في التعبير وبلوغ الفكرة ، وان المقطوعة الصغيرة في الحرب ، أسرع بلوغا من القصيدة الطويلة . وكذلك من مظاهره انعدام المقدمات ، وهي الافتتاحيات التى توضع عادة في مطلع القصائد الجاهلية ، وتمتد في كثير منها الى أبيات عديدة بعد المطلع .

ولاحظنا أيضاً أن من مظاهر بنائه الخارجي تعدد الغرض واختلاطه ، فعلى الرغم من أن هـذا الشعر كان عاملا هاما قبل الحرب وبعدها ، غير أن قصيدة الحرب هـذه لم تكن تخلص له تماماً ، بل كانت تتخللها اغراض أخرى : وما اكثر

دخول أبيات غريبة بين الموضوعات المختلفة في القصيدة الواحدة مما توحي للقارىء أن هذه الأبيات لم توضع في مواضعها الصحيحة لاختلاف الرواية ولطبيعة القصيدة العربية نفسها .

وقد سجلنا لأسلوب الشعر في هذه الحرب بعض الملاحظات استنبطناها من مجموعتنا الشعرية :

أولا : أن أكثر قصائدهم مبدوءة بأدوات وحروف وأفعال، كانت بمثابة تقليد اتبعه الشعراء يفتتحون به قصائدهم ، وأكثر ما يريدون بها اقرار حقيقة أو ايصالها الى الآخرين من الأصدقاء أو الاعداء ، كالاستفهام بالهمزة (١) وهل (٢) ومن (٣) ، والتنبيه بألا (٤) ، والنداء بالاداة « يا » (٥) وأحيانا يفتتحون القصيدة

---

(١) زهير بن ابي سلمى ديوانه ص ١٣٥ والمعقر بن أوس النقائض ٢ / ٦٧٧ ومرداس السلمي النقائض ٢ / ٦٧٣

(٢) عنترة بن شداد العبسي - مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٩٤ .

(٣) زهير بن ابي سلمى ديوانه ص ٣٠٦ وقيس بن زهير العبسي - نقائض ١ / ٣٤٨ .

(٤) عنترة - مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٩٦ ودختنوس بنت لقيط - النقائض ٢ / ٦٦٦ والربيع بن زياد - ابن الاثير الكامل ١ / ٣٤٥ وعروة الرحال - نقائض ٢ / ٦٧٥ .

(٥) لقيط بن زرارة - نقائض ٢ / ٦٦٤ وحصين بن عمرو - نقائض ٢ / ٦٦٨ - والربيع بن ضبيع التيجان ص ١٢٩ .

بأداة تنبيه واستفهام مثل (ألا هل) (١) أو استفهام ونفي مثل «ألم» (٢) و «أما» (٣) ، ويفتتحون أيضا «بكم» (٤) العددية و «برب» أو «الواو» ويريدون بهذه الأدوات التكثير دون التفصيل :

أما القصائد المبدوءة بأفعال ، فهي اما مشتقة من صيغة التبليغ مثل «ألم يبلغك» (٥) أو «أبلغ» ، وكأنهم بذلك يبررون اذاعة أخبار البطولة والشجاعة فيمهدون لها بهذه الاشتقاقات . وتكثر هذه الظاهرة في شعر النابغة ، ولها مبرراتها ، لأنه بعيد عن قبيلته بين الغساسنة أو المناذرة ، ولما كانت الحرب تقع بعيدا عن الناس في أرض منعزلة فالشعراء يستعملون هذه الصيغة في التبليغ أيضا ؛

ويكثر استعمالهم أيضا لفعل الأمر «تعلم» (٦) أو «اعلم»

---

(١) عنترة - مختارات ص ٣٩٤ .

(٢) قيس بن زهير النقائض ١ / ٩٠ والحطيئة ديوانه ص ٦٠ والمفضل الضبي - أمثال العرب ص ٣٣ .

(٣) الحارث بن الأبرص - نقائض ٢ / ٦٧٢ .

(٤) حذيفة بن زهير - ابن هشام السيرة ١ / ٢٨٧ - عنترة مختارات ص ٣٦٣ .

(٥) قيس بن زهير المفضل الضبي - أمثال العرب ص ٣٣ والاغاني ١٧ / ١٣١ والنابغة ديوانه ص ٢١٥ .

(٦) قيس بن زهير . المفضل الضبي ص ٣٥ والاغاني ١٧ / ١٣٨ .

عندما يريدون مدحا أو ذما . ويبدأون أيضا بعبارات القسم أو الـذم مثل « لعمرك » (١) أو « لعمرى » أو لفظ الجلالة (١) أو « لحا الله » (٢) .

ثانيا : ان معاني معينة كانت تؤدى بأسلوب يشترك فيـه شاعران أو أكثر ، من شعراء هذه الحرب ، وهي صفة ليست مقصورة على شعر حرب داحس فقط ، وانمـا عمت كل شعر الحرب في العصر الجاهلي (٣) . فمن تلك المعاني وصف الفرسان وهم يلبسون الحديد في الليل والنهار زمـانا طويلا : حتى يعلو وجوههم وأجسادهم الصدأ :

والشعراء يبغون من وراء ذلك أن يعبروا عن اتصال حروبهم حتى لم يجدوا لهم متسعا من الوقت لينزعوه عنهم (٤) . واشترك

---

(١) سنان بن ابي خارجة ـ نقائض ٢ / ٦٧٥ وقيس بن زهير نقائض ١ / ٤٦٩ ودختنوس بنت لقيـط بن زرارة ٢ / ٦٦٦ ومرداس ٢ / ٦٧٣ .

(٢) قيس بن زهير المفضل الضبي ص ٣٩ والنابغة الذبياني المفضل ابن سلمة الفاخر ص ٢٣٠ وفى ديوانه ص ٢١٤ جزى الله عبسا .

(٣) على الجندى (دكتور) شعر الحرب ص ٣٦٣

(٤) عنترة العبسي مختارات الشعر الجاهلي ص ٢٤٩ والربيع بن زياد ـ نقائض ١ / ٨٩ والربيع أيضاً الخالديان الاشبـاه والنظائر ٢ / ١٤٤ والحماسة البصرية ١ / ٥٩ ،

شعراء عديدون في أداء معنى واحد باستعمال كلمة (تركت) أو (غادرت) أو (تركنا) و (غادرنا) فلانا يدمه طعاما للغير أو الوحش أو نحن تركنا أم فلان تجاوب النائحات آخر الليل (١) ، وهم يبغون اذلال قتيلهم وانقاص شأنه في لحظة مصرعه وفي الوقت نفسه ابراز صورة لشجاعتهم : وأكثروا من وصف السيف بالذكر (٢) ، وتحدثوا عنه وهو يزيل الهام أو يفلقها او يطيحها : ووصفوا عملية الضرب فقالوا ، جادت كفي او يداي او عاجلته بضربة او علوته بحسام (٣) . وربما ارتبطت عبارة (علوته) بالمعنى الحسي لهذه الكلمة لأنهم يشعرون ان الضارب في منزلة اعلى بالنسبة للمضروب ، او المعنى المادي لها عند الضرب ، حيث يرتفعون عن ظهر الفرس بشد ارجلهم على الركاب حتى يكون الضارب اعلى ليتمكن من انزال حد السيف في رأس ضحيته .

---

(١) قيس بن زهير الخالديان ٢ / ٢٠٨ وعنترة العبسي مختارات الشعر الجاهلي ٣٤٣ ونونيته ص ٣٦٣ وخراشة بن عمرو العبسي المفضليات ص ٨٠٣ والحارث بن زهير - نقائض ١ / ٩٦ .

(٢) عنترة العبسي - مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٦٣ والربيع بن زياد الخالديان ٢ / ١٤٤ ومالك بن حمار الفزاري - نقائض ٢ / ٦٧٤ .

(٣) عنترة - معلقته - شرح ابن الانباري ص : ٢٩٣ و ٢٩٤ وعمرو ابن الاسلع - العقد الفريد ٣ / ٧٠ .

وأكثروا كذلك من ترديد كلمة النفس (١) وشفائها بعد ادراك الثأر وبلوغ الغاية ، ووصفوا الشفاه (٢) وهي تتقلص عند الهول (٣) كناية عن شدة المعركه ، ووصفوا الخيل وهي تقذف أجنتها لشدهم عليها بغية ادراك العدو لما كانوا يمارسونه من عادات تتعلق بالثأر . وتحدثوا عن البكاء والنواح آخر الليل (٤) سواء كان الذي يبكونه صديقا تندبه نساء الحي أو عدوا فجعوا به أهله .

ثالثا : وجاء في قصائدهم تكرار لبعض الكلمات او انصاف الأبيات وكان غرضهم منه التأكيد على المعنى وتقويته ليكون اثره ابلغ في النفس ، كما فعل عنترة حيث كرر كلمة « أبينا أبينا » (٥)

---

(١) عنترة العبسى المعلقة (ابن الانباري) ص ٢٩٤ وفائيته مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٤٣ وقيس بن زهير حماسة ابي تمام (المرزوقي) ١ / ٢٠٣ .

(٢) عنترة - المصدر السابق ص ٢٩٤ الربيع بن زياد المفضل الضي ص ٤٨ .

(٣) قيس بن زهير المفضل الضي ٣٩ والربيع بن زياد النقائض ١ / ٨٩

(٤) قيس بن زهير - النقائض ١ / ١٠٢ وخراشة العبسي - المفضليات ص ٨٢٣ .

(٥) الاعلم - مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٤١

وقيس بن زهير حيث كرر «أخي والله خير من أخيكم» (١) ثلاث مرات في ثلاثة ابيات متعاقبة .

رابعا : وقد حاولوا ان يستعينوا بما حوته معرفتهم من اخبار التاريخ وقصصه ، فضمنوه اشعارهم منتفعين من الحكمة والموعظة المذكورة فيها ، ففي ابيات ابن عنقاء الفزاري ذكر لعرار وكحل وهما ثور وبقرة في بني اسرائيل عقر كحل فعقرت به عراعر فوقعت الحرب بينهم وكادوا ان يفنوا (٢) . وفي ابيات الربيع ابن ضبيع ذكر للاسكندر المعروف بذي القرنين وملكه الذي اراد له ان يكون مخلدا فلم يكن له ما أراد (٣) .

الصناعة الفنية :

كانت فصولنا المتقدمة قد أبرزت لنا عند دراسة الشعر ، انه اتسم فنيا بطغيان المقطعات على القصائد الطوال ، وهذه الظاهرة خلفت وراءها نتيجة طبيعية لها ، هي انعدام المقدمات للقصائد الحربية القصيرة ، وعدم الميل الى التصريع في غالبيتها العظمى ،

(١) المفضل الضبي ـ أمثال العرب ص ٣٩

(٢) المصدر السابق ص ٤٣ . والآمدى المؤتلف والمختلف ص ٢٣٧ قيس بن بجرة من بني شمخ بن فزارة احد فحول غطفان .

(٣) وهب بن منبه - التيجان ـ ص ١٢٥

وخصصنا الظاهرة الأخيرة بحديث أطول ، فجعلنا المقطعات ، وخاصة القصار منها نوعين ، الأول مقطعات منتزعة من قصائد ، وهذه القصائد وصل بعضها الينا ، وضاع بعضها الآخر مع مجموع الشعر الجاهلي الذي ضاع خلال رحلته الطويلة . وبالنسبة لهذا اللون من المقطعات أصبح الأمر سهل التعليل في انعدام المقدمات والتصريع . ولكننا وجدنا بعض المقطعات يبعث ظاهرها على الاعتقاد بأنها ولدت على صورتها الحالية ، وأنها متكاملة في المبنى والمعنى ، ومثلنا في موضع الكلام عنها على قسم من هذه المقطعات ، ولا يعسر على القارئ ملاحظتها في شعر هذه الحرب ، وازاء هذه الحالة أصبح الأمر يحتاج الى تعليل ، فعزونا ذلك الى طبيعة الحرب التي تطلب السرعة في التعبير ، والاختصار في أداء الغرض . وعدم حاجة الشاعر في ساعة الحرب الى اصطناع المقدمات التقليدية ، وتكليف نفسه مشقة التصريع واختيار الكلمات المقفاة الأمر الذي فسر لنا طبيعة شعر الحرب وعدم ميله الشديد الى صنعة متأنية وعمل منقح متقن .

لكننا اذا نظرنا الى واقع الحال ، وأردنا أن ندرس الموضوع بشكل أعم وأشمل ، برزت لنا بعض الصفات التي تقرر أن القوم مع ميلهم الى السرعة الفنية المتفقة مع طبيعة الحرب ، حملوا شعرهم ولغتهم ألوانا من الصناعة البديعية والبلاغية ، ما يؤكد أنهم كانوا متأثرين في هذه الناحية بما يتأثر به الشعراء الأخسرون في غير زمن

الحرب ، وهي مسألة ليست بخافية على الدارس ، بل يلمسها بوضوح في شعرهم ، لكن أمرها محتاج الى تعليل وتفسير سوف أجمل بيانه في النقاط الآتية ، ومن ثم استعرض بعض مظاهر هذه الصناعة معززة بأمثلة شعرية :

أولا :

لقد عاصرت هذه الحركة الشعرية مدرسة يعتبرها العلماء بدأت بأوس بن حجر ، وازدهرت على يد زهير بن أبي سلمى ، وكان لها من كعب والحطيئة وآخرين خير تلامذة عاملين . وقد عرفت واشتهرت باسم مدرسة الصنعة . وطبيعي أن موطن هذه المدرسة كان نجدا وهي موطن أوس وزهير وموطن حرب داحس في آن واحد معا ، ولقد كان لزهير شعر متداول في هذه الحرب : ومن هذه المعاصرة واهتمام زهير بالحرب وتنقل شعره بين الأقوام الآخرين ، كان طبيعيا أن يحدث شيء من التأثير أو التأثر ، بما عرف عن هذه المدرسة من سمات ، فكان أن ظهرت آثارها في أشعارهم ، لا سيما وأن هذه الحرب اندلعت ، ومدرسة الصنعة حديثة عهد بالانتشار . والناس منذ القديم مولعون بالجديد ، يتناقلونه ويظهر من فيضه على ألسنتهم . ولذا فان أي أثر من آثار الصنعة المتأنية في شعر هذه الحرب ، يمكن ارجاعه وتعليله

الى معاصرتها لهذه المدرسة .

ثانيا :

لم تكن الحرب متصلة خلال أعوامها كلهـا ، وقد كانوا يلتقون في موقعة أو موقعتين خلال عام واحد ، ثم يقعدون أعواما طوالا يشحذون سيوفهم ويعدون أنفسهم للقاء آخر جديد : وان هـذه المهلة أو الهـدنة التي يعقدونها لأنفسهم ، تمنحهم وقتا يتفرغون فيه قائلين أو مستمعين : لذلك يجد الشاعر نفسه في هذه الفترة يملك من حرية القول المتاحة له أكثر مما تتاح في ساعات الحروب الحرجة ، وعندئذ يستطيع أن يتـأنى في لفظه ومعـانيه وصياغتها : وهـذا يفسر لنا ما نلاحظه في أشعارهم من فروق كبيرة ، وبخاصة المقطعات ، حيث حوى بعضها صنوفا من البيان والبديع ، وحشدا من المحسنات ، في حين خلت ، أو كاد بعضها الآخر يخلو ، من هذه الظواهر . وما ذلك الا لأن الأولى قيلت في فترة كان الشاعر فيهـا أكثر اناة ، والثانية قيلت في ساعات حرجة ، تتطلب سرعـة تعبير وحضور بديهـة ، دون تردد أو انتظار : فاطلاع الشاعر على نتاجات عصره ، خلال هدنة القوم أو مهلتهم ، وظهور مـدرسة الصنعة في آفـاق الشعر الجاهلي ، وانتشارها ، جعلت شعر هذه الحرب ينفعل ويتأثر بها ، فتظهر

بعض آثار الصنعة الفنية المعروفة في الشعر الجاهلي ، وبخاصة المتأنية منها على ألسنة شعرائها .

ثالثاً :

ليست هـذه الصنعة التي تزعم ظهورها في شعر الحرب بجديدة على الشعر الجاهلي عامة ، بل هي فيه أعم منها في شعر هـذه الحرب ، أو أية حرب سواها ، وسوف يرى أن شعر الحرب استمد اصول صنعته من الشعر الجاهلي عموما في جميع مراحله ومختلف موضوعاته ، لكننا خصصناها بالذكر ، لأننا سبق أن قررنا حقيقة ، هي أن هذا الشعر نتاج السرعة التي تتفق وطبيعة الحرب ، وبسبب من هذه السرعة ، فان الشاعر مدعو الى اطراح الأناة جانباً ، واتيان للقول بما يستطيعه من سرعة الخاطر غير كلف بما يصطنعه الشعراء في أوقات الأستقرار ، لأنفسهم ، من اختيار وانتخاب لتعابيرهم وكلماتهم وألفاظهم : وعلى هـذا فان ظهور هـذه الصنعة بادرة يجب أن نجـد لها تعليلا . وقد رأينا ان اكثر الشعر الجاهلي المتسم بميسمها ، هو ذاك الذي قيل في اوقات الفراغ ، أي في أيام هدنتهم ، وهو شعر صبغته بلونها الصنعة الفنية في الشعر الجاهلي ، والتي ليس لشاعر منها خلاص ، وبدونها لا يكون الشعر شعرا ، ولا الشاعر

شاعرا ، فقد برهنت التجارب والخبرات ، الى جانب الدراسات المستفيضة من الأقدمين والمحدثين ، أن قوام بيت الشعر ليس في وزنه وقافيته ومعناه فحسب ، وانما تنضم الى هذه المحسنات اللفظية والبديعية وأساليب البلاغة والبيان ، فيكتمل للبيت كيانه ويغدو في نظر أرباب العلم والصنعة عملا فنيا ناجحا (١) .

واذن فأساس الصناعة الفنية موجود في الشعر الجاهلي عموما فاذا أتينا الى مدرسة الصنعة فان الأمر يغـــدو ايغالا اكثر في الصناعة من حيث التهذيب والتنقيح . وقد استعان شعر الحرب بالصنعة الجاهلية كلها في عمله الفني ، فبرزت فيه جميع سماتها وتأثر بمدرسة الصنعة لمعاصرته اياها ، وقد خص كبير المدرسة وهو زهير بعض شعره في أحداثها ، فكان أن ظهرت آثار الاتجاهين في شعره ، بشكل وان بدا مهموسا ، لكـــن يمكن سماعه ومعاينته ، بل اخراجه ودراسته .

* * *

ونحن اذا قلبنا دواوين الشعراء الجاهليين ، والمجموعات الشعرية المختلفة ، وجدنا أن هذا الشعر حافل بضروب التشبيهات وكأن الشاعر الجاهلي مولع بايرادها ليعقد بها مقارنات ومقايسات يخرج منها دائماً بنتيجة واحدة ، هي ابتغاء المزيد من ايضاح صورة المشبه ، وتقريب صورة حيـــة وطريقة للمشبه به ، ينال بها اعجاب السامع ، ويدخل بها الى سريرته ، ويفوز بنجاح

(١) عبد الله الطيب (دكتور) المرشد لفهم أشعار العرب وصناعتها

الصورة الشعرية ، وطبيعي أن التشبيه باب كبيرة تدخل منها الصورة الشعرية ، وهو فضلا عن ذلك يدخل في باب الصناعة الفنية في أشكالها المبسطة والتي لا تحتاج الى اناة وجهد كبيرين وهذا بخلاف الاستعارة التي يمكن وضعها في مصاف الصنعة المتأنية التي تطلب من صاحبها دقة في الفكر وجهدا في الصياغة وقد فطن الى ذلك بعض الباحثين عند دراستهم لجانب من اشعار الجاهلية (١) .

وهذان الموضوعان البلاغيان يضاف اليهما الكناية ، وان كانت الاستعارة تعوض عنها في البحث لشبه بينهما ، يمثلان بوضوح أثر الشعر الجاهلي وصناعته في شعر هذه الحرب وبخاصة التشبيهات العديدة في المعارك ، وأما الاستعارة فان كثرتها في شعر زهير ابن أبي سلمى تدل على كلف اصحاب مدرسة زهير بها ، وقد ظهرت منتشرة في نتاج هذه الحرب ايضاً :

والمتصفح للشعر الجاهلي يجد صورة تشبيهاته تختلف في تعقيدها وبساطتها وفي عمقها وسطحيتها من صورة لأخرى ، فلربما تعددت اجزاء الصورة حتى استغرقت من القصيدة ابياتاً متعددة ، او ربما كان التشبيه ببيت او بيتين : اما بالنسبة لصور التشبيه في هذه الحرب فهي مبسطة مختصرة ، تحاكى بساطة

---

(١) يوسف عبد القادر خليف (دكتور) - الشعراء الصعاليك ٢٨٦ وما بعدها لغاية (٣٠٥) .

الشعر نفسه وسهولته وصياغته ، اذ ليس في تشبيهاتهم أي أغراب ولا تعقيد . وحتى في حالة ورود تشبيهات غريبة ومعقدة ، فان الأمر لا يتعدى حدود الطبيعة والبيئة ، فما أن تنجلى الكلمات ، ويعرف الغرض من ايرادها ، وتفسر العبارات ، وتوضح ، حتى تصبح تشبيهاتهم في غاية السهولة ، وندرك . فهذا شريح الثعلبى نظر الى عنترة العبسي وهو قادم مثل قطعة من جبل « عماية » وهو جبل صخرته سوداء ، فتداعت الى خاطر الشاعر صورته ، فشبهه به ، وزاد في التشبيه ما يفيد الغرض في ذم القوم ، بأن جعل هذا الجبل ، وقد أطاف به الحشاش من كل جانب ، يحتشونه ، فصلبت حجارته وهو بذلك يريد أن يقول أنهم قوم لا خير فيهم (١) :

وعنترةُ الفلحاء جاء ملأَّما
كانكَ فِندٌ من عَمايةَ أسودُ (٢)
تُطيف به الحُشّاش يبسٌ تِلاعُه
حِجارُته من قِلّةِ الخيرِ تَصلُدُ (٣)

وربما أقام الشاعر طرفى تشبيهه ، ثم عاد الى الصورة ، فزاد عليها ما يوضحها ، ويعطيها أبعادا جديدة ، كما فعل مرداس ابن

---

(١) ابو عبيدة - نقائض ١ / ١٠٧

(٢) انظر شرح الأبيات ص ١١٩

(٣) انظر ص : ١١٩

أبي عامر ، وقد انتزع منه بنو أبي بكر بن كلاب مائة ناقة كان قد غنمها في حرب جبلة (١) :

تـداعتْ بنو بكرِ عليَّ كأنمـا
تـداعتْ عليَّ بالأحزّةِ بربَرُ (٢)

تـداعَو عليَّ ان رأونى بخُلـوةٍ
وأنتم بأُحدانِ الفوارسِ أبصرُ (٣)

وكقول نابغة بنى جعدة ، يعتذر عن هزيمة قومه ، ويشبه صعود عبس وعامر الجبل ، بصعود النسر الذي لا يبغي نزولا ، فوجدوا من شعب الجبل معقلا ، يمنعهم من جيش الأحلاف الذي عطف عليهم عطف الضروس (٤) :

ونحن حبسنـا الحىَّ عبسـاً وعامـراً
لحسانَ وابنِ الجـون اذ قيـل أقبلا

وقـد صعدت عن ذى بحـار نساؤهم
كأصعادِ نسر لا يرومون منزِلا (٥)

---

(١) ابو عبيدة - نقائض ٢ / ٦٧٣

(٢) الأحزة : موضع

(٣) احدان : الفارس بمفرده

(٤) ابو عبيدة - نقائض ٢ / ٦٨٥

(٥) ذى بحار : موضع

عَطفنا لهم عطفَ الضروسِ فصادفوا

من الهَضبةِ الحمراءِ عزا ومَعقلا (١)

فالتشبيهات منتقاة من صور مألوفة في عصر الشاعر ، واذا احتاجت الصورة الى فضل ايضاح لم يقصر عنه . فهذا عنترة على دأب الشعراء الجاهليين في تشبيهاته ، تتعدد عنده الصورة في التشبيه الواحد ، لكنها مع ذلك تبقى بسيطة مألوفة ، تستمد روعتها من بساطتها وألفتها (٢) :

وكأن فارةَ تاجرٍ بقسيمةٍ

سبَقتْ عوارِضَها اليك من الفم (٣)

أو روضةً أنفا تضمّنَ نبتُها

غيثٌ قليلُ الدِّمنِ ليس بمَعلَمِ (٤)

---

(١) الهضبة الحمراء شعب الجبل الذي دارت فيه الحرب

(٢) ابن الانباري - شرح القصائد الطوال ص٢٩٤ وانظر الأعلم - مختارات الشعر الجاهلي - معلقة عنترة .

(٣) (الفارة) وعاء المطيب (والتاجر) العطار (والقسيمة) المرأة الحسناء (والعوارض) الاسنان .

(٤) الانف : التي لم يرعها احد بعد (والدمن) جمع دمنة ، وهي السرجين (ومعلم) مباحة للناس والدواب .

جادتْ عليـــها كلُ عينٍ ثَـــرةٍ

فتركنَ كلَ قرارةٍ كالدِرْهَمِ (١)

وفي شعر عنترة استعارات كثيرة ، ومثلها موجود في شعر غيره من شعراء هذه الحرب ، لكن التشبيه أكثر أساليب البلاغة دورانا في أشعارهم : واذا كثرت التشبيهات في شعر عنترة كثرة ملحوظة ، فقد برزت الاستعـارة في شعر زهير بروزا ظاهرا : ولعل في هذا مصداق قولنا ، أن معاصرة الحرب لمدرسة الصنعة كان ذا أثر في شعرها : ولكنها ليست منها ، لبعد ما بين طبيعة الحرب وطبيعة هـذه المدرسة ، كبعد ما بين التشبيه من بساطة في التعبير ، وبين الاستعـارة من ايغـال في البلاغـة . وما أكثر أمثلتها في شعر زهير ، واذا مثلنا لها من شعره في حرب داحس فأقرب مثـل لهـا قـــوله في لاميته (٢) : حيث يأتى باستعارتين متتاليتين في بيتين متعاقبين يصف ممدوحيه وهم على متون خيلهم ، فيقول :

بخيــلٍ عليهـــا جنـــةٌ عبقريـــةٌ

جديرون يوما أن ينالوا ويستعلـوا

عليها أسودٌ ضـاريات لبوسهـــم

سوابغُ بيضٌ لا يخرّقهـــا النبـــلُ

---

(١) الثرة الكثيرة الماء (وكالدرهم) فى استدارتها وصفاء مائها .

(٢) ديوانه ص ٩٦ والاعلم مختارات الشعر الجاهلي

وقد كان في كليتهما مجودا ، عندما أجرى لكل حالة ما يناسبها من صور الاستعارة ، فالحالة الأولى معنوية ، هي النوال وبلوغ العلى . فاستعار لهم صفة الجن من عبقر . والثانية مادية ، تمثل الأبطال وهم يضعون على أجسامهم لباسا من دروع منسوجة لا يخرقها نبل ، فاستعار لهم صورة الأسود الضاريات : وفي كلتيهما توفرت القرينة المانعة : وشبيه من هذا في شعره كثير ، ليس هنا موضع استقصائه . وأبدى عنترة اهتماما باستعاراته ، وان لم تبلغ عنده المدى الذي بلغه التشبيه ، ولا المدى الذي بلغته الاستعارة عند زهير ، قال عنترة (١) :

فشككتُ بالرمحِ الأصمِّ ثيابَهُ

ليس الكريمُ على القنا بِمُحَرَّمِ

ولم يعدم هذا الشعر كنايات بارعة ترد بين الحين والحين مثل قول عنترة (٢) :

بَطَلٌ كأنَّ ثيابَهُ في سَرْحَةٍ

يُحْذَى نعالَ السبتِ ليس بتوأمِ (٣)

---

(١) ابن الانباري .. شرح القصائد الطوال ص ٢٩٤

(٢) المصدر السابق

(٣) اى بطل مديد القد جعلت الجلود المدبوغة بالقرظ نعالا له ، لأنه غني ولم تلد امه معه غيره ، وهذا اكمل لنمائه .

كنـاية عن طول البطل . ولزهير أيضا كنــاية عن طول ممدوحيه (١) :

اذا فَزِعوا طــاروا الى مستغيثهـم
طوالَ الرمـاحِ لا قِصارٌ ولا عُزلُ

وانظر الى قوله في هذا البيت حيث ضمنه طباقا بين كلمتى طوال وقصار ، وعزل ما يقابلها من كلمة رماح .

فاذا انتقلنا من ألوان البلاغة المشهورة : التشبيه والاستعارة والكناية ، وأخــذنا نمعن نظرنا في صنعة الألفاظ والكلمات ، وما صاغوا لها من المحسنات والبديع لتوشيتها وتزيينها ، لما عدمنا منها أمثلة كثيرة ، تدل على طول عناية وروعة انتقاء ، رفع من قدر شعرهم ، وادخله في مرتبة رفيعة من الفن الجميل : فظاهرة الجناس مثلا موجودة في شعرهم بشكل ليس كالذي نعهده في أشعار المتأخرين . فربما ورد ولم يفطن اليــه القارىء ببصره ، فاذا استقصاه في حسه ، ومن الموسيقى المنبثقــة من الكلمات ، وجده رائعا وقــد أضفى على البيت جمالا أخاذا (٢) فمن أمثلة الجناس غير التام في شعر عنترة قوله (٣) :

---

(١) ديوانه ص : ٩٦

(٢) عبد الله الطيب ـ المرشد لفهم اشعار العرب : « الجناس »

(٣) ابن الانبارى ـ المصدر نفسه

حُيِّيتَ من طللٍ تقادمَ عهدُهُ
أقوى وأقفرَ بعد أمِ الهيثمِ (١)

ولا يفوت قيس بن زهير أن يجانس بين الكلمات ، لكي تكون اوقع في النفس دون أن يتقصده او يتكلفه ، لاسيما وان التكلف والتقصد بعيدان عن طبيعة الحرب التي تطلب من الشاعر السرعة والوضوح ، وخير مثال على اهتمامه في الصياغة ، الكلمة « شفيت » يبدأ بها البيت « وشفاني » يختمه بها فيقول (٢) :

شفيتُ النفسَ من حَمَلِ بنِ بدرٍ
وسيفي من حذيفةَ قد شفاني

وقوله (٣) :

جزاني الزهدمانِ (٤) جزاءَ سوءٍ
وكنتُ المرءَ يُجزَى بالكرامة

وانظر الى كلمة جزى واشتقاقاتها ، كيف ترددت في البيت ، وأحدثت تجانساً بديعاً زاد من قوة معناه وبنائه .

وقوله (٥) :

---

(١) أم الهيثم .. عبلة عشيقته

(٢) ابو تمام .. ديوان الحماسة (المرزوقي) ١ / ٢٠٣

(٣) ابو عبيدة .. النقائض ٢ / ٦٧٠

(٤) الزهدمان : رجلان من بني عبس

(٥) ابن الاثير .. الكامل ١ / ٣٤٨

اسيرُ الى بني بدرٍ بأمرٍ　　همّوا فيه علينـــا بالخَيارِ
فان قَبِلوا الجوارَ فغيرُ قومٍ　　وان كَرِهوا الجوارَ فغيرُ عار

فبالاضافة إلى كلمات الجناس المحتشدة في البيتين ، نجد الطباق فيهما أيضاً في كلمتي قبلوا وكرهوا : وفي شعر قيس من هذا كثير نكتفي بالاشارة اليه في مواضعه ليرجع اليه من شاء ذلك (١)

وعند ملاحظة المفضلية البالغ عددها ثلاثة عشر بيتاً والتى مطالعها (٢) :

أبي الرسمُ بالجَوْنَتَينِ أن يتحوّلا
وقد زادَ بعدَ الحولِ حولا مُكَمَّلا

وهي لخراشة بن عمرو العبسي في يوم شعب جبلة ، نجد الفعل « يتحول » في البيت وقد عقدت منه مجانسة بديعة مع كلمة الحول المكررة تكرارا ينسجم مع الجناس وزاد في انسجامه الوقع الموسيقى لقافية اللام المقترنة بألف الاطلاق ، فأصبحت المجانسة وتكرارها والقافية «لا» كالشيء الواحد . فكأن الشاعر مايزال تحت تأثير هذه اللامات المتدفقة ، وقد أبى عليه حسه أن يترك أثر النغم يضيع

---

(١) المفضل الضبي .. امثال العرب ص ٣٢ البيت الأول ، والمصدر نفسه داليته حيث امتلأت بألوان المحسنات البديعية من جناس وطباق . والمفضل بن سلمة ، الفاخر ص ٢٢ وابن الاثير .. الكامل ١ / ٣٤٨

(٢) المفضليات ص ٨٢٣

دون أن يجد صداه في النفس مرة أخرى فأتمه في البيت الثاني من القصيدة :

وُبُدِّلَ من ليلى بما قد تحلُّهُ

نِعاجُ الملا تَرعى الدخُولَ فَحَومَلا

وهذا اللون من المجانسة كثير التردد في شعرهم ، وربما رافقه طباق يجرى على ألسنتهم في اصالة وعفو خاطر . وهي صنعة يدركون خطرها ، ويحسنون اداءها ، وقد وضحت في قول مرداس بن أبي عامر حيث قال ، بعد انصرافه من معركة جبلة (١) :

فان بأكنافِ البحارِ الى المَلا

وذى النَخْلِ مصحىً انصحوتَ ومَسكرا (٢)

واوعى من الأكلاءِ أثلا وحمضةً

وترعى من الألواءِ اثلا وعَرعَرا (٣)

وفي أبيات قيس بن زهير الآتية طباق في قوله « موالى القوم والقوم الصمم » و « عم وخص » (٤) :

---

(١) ابو عبيدة .. نقائض ٢ / ٦٧٣

(٢) البخار . والملا وذى نخل : كلها مواضع

(٣) (الاكلاء) و (الالواء) : موضعان

(٤) ابن الاثير .. الكامل ١ / ٣٥٣

أمامُ على الهباءةِ خيرُ ميْتٍ
وأشرُفُهُ حذيفةُ لا يريمُ
لقد فَجعتْ به قيسٌ جميعاً
موالى القومِ والقومُ الصميمُ
وخصَّ بهِ لمقتلهِ قريبٌ
وعمَّ بهِ لمقتلهِ صميمُ

وتدل الصور الكثيرة المنتشرة في شعر هذه الحرب على عناية الشعراء في انتقائها ، فهم يتعمدونها حِية منتزعة من واقع الحرب ، وتعبر عن صدق شاعريتهم وأصالة فنهم ، وأحسن ما نختاره مثالا لهذه الصورة ، تلك التي يرسم فيها أحد شعرائهم ببراعة صورة ابطل أصابه بسيفه فمات سائر جسده ، ولم يبق منه غير ساقين تتحركان ، فتمنع الطير أن تقترب منه لتنهشه ، فهو مسجى ، رجلاه ترفسان والطير تحجل حوله ، قال جحش بن نصيب يوم اليعمرية (١) :

وقِرنٍ تركتُ الطيرَ تحجُلُ حولَهُ
تحرّكُ رجلاه وقد ماتَ سائرُه

واذا تعقبنا هذه الصورة عند عنترة فانها مرسومة بايضاح أكثر ، وتفصيل أطول ، دون أن يقلل هذا الايضاح والتفصيل

(١) ابو تمام ، الحماسة الصغرى (الوحشيات) ص ٧٣

من قيمة الصورة (١) :

وقرنٍ قد تركتُ لدى مكرٍ
عليه سبائبٌ كالأرجوانِ (٢)
تركتُ الطيرَ عاكفةً عليه
كما تردي الى العُرسِ البواني (٣)
ويمنعهنَّ أن يأكُلنَ منه
حياةُ يدٍ ورجلٍ تركضانِ (٤)

• • •

الأوزان والقوافي

لقد استعمل شعراء هذه الحرب من بحور الشعر ، تلك التي اشتهرت وعرفت في العصر الجاهلي . ومن نافلة القول أن نعدد عيوب الوزن التي يزخر بها شعر الحرب ، لأنها نفسها التي عرفها الشعر الجاهلي ، من علل وزخافات ، وبحثها ذوو الاختصاص ،

(١) الاعلم ، مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٦٣

(٢) (القرن) المنازل فى الحرب ، (ومكر) مكان الكرو (السبائب) طرائق من الدم .

(٣) البوانى اللواتى يتقدمن العروس او يسبقن اليها

(٤) ويمنعهن أي يمنع الطير

لكننا نود أن ننبه الى أشهر الأوزان التي نظموا فيها ، وقد كانت على التوالي ، الطويل والكامل والوافر والمتقارب والبسيط والخفيف والسريع والرمل والرجز ، وهي بحور توافق مناسبات الحرب وتلائمها : فالطويل مثلا على الرغم من أشتهاره في أشعار الجاهليين عموما ، الا أن الشعراء ركبوه لطبيعته التي تتحمل الخلل الذي يصيبه في أحيان كثيرة . وأمثلته في شعر هذه الحرب وافرة ، لكنه مع ذلك لا تتأثر موسيقاه : وربما ظهر بعض خلله واضحا في السمع ، فضلا عن ذلك ، فان هذا البحر يصلح لغالبية عظمى من الموضوعات والأغراض ، وأكثرها صلاحا تلك التي اختصت بالحروب : أما الكامل ، فعلى الرغم من اتشاحه بطابع الجد فهو بعيد عن الهدوء والتأمل ، وهما صفتان منتفيتان عن الحرب ، لما عرفت به موسيقاه من جلجلة وصوت ، وهي صفات تتفق وروح المعارك . وتميز الوافر بتدفقه ورنته القوية ، الملائمة لروح الحماسة ، وتصوير الغضب ، والتعبير بقوة عن معاني الفخر والهجاء : وفي المتقارب دندنة وقدرة على سرد الاحداث ، ولذلك نجد شعراء حرب داحس جودوا فيه ، وأكثروا منه ، عند وصف معاركهم ، وبخاصة بعد فراغهم منها .

أما بقية البحور ، فحظها في شعر هذه الحرب أقل ، وتصلح لكثير من المواقف ، سواء كانت في حرب أو سلم ، لكننا نجد الرجز في ساعة القتال أكثر دورانا على ألسنة الشعراء ، لسهولته ،

ولأنه يقال ببداهة وسليقة ، فالعبارات القصيرة فيه ساعدت على انتقاله بين القبائل ، بسرعة أكثر من سواه ، وهو الى جانب هذا كله ، يؤدي مهماته عند الفخر والمنافرة في حرية وسهولة :

أما القوافي ، فقـد استعملوا منها في أشعار هذه الحرب مايقرب من نصف حروف الهجاء ، نوردها حسب كمية للشعر الذي وردت فيه وهي : الميم واللام والدال والراء والعين والنون والهاء والتاء والحاء والسين والقاف والياء والباء والفاء والكاف ومقطوعة واحدة مقصورة :

وفي شعرهم ظاهرة غير مقصودة لذاتها ، هي التي عرفت بعدئذ بلزوم ما لا يلزم ، يكثر انتشارها في مقطوعاتهم القصار ، وبخاصة عند قيس بن زهير ، حيث يختار قوافيه من روى يلتزم معه حرفين أو ثلاثة حروف (١) . وكذلك تفعل دختنوس بنت لقيط (٢) ، وأمثلة هذه الظاهرة كثيرة :

وتظهر عيوب القافية في أشعارهم ، على الشكل الذى نراه في الشعر الجاهلي عـامة ، وأشهر هذه العيوب الواردة في هذا الشعر ، الأيطاء ، والأقواء ، والتضمين . فمن أمثلة الايطاء تكرار

---

(١) المفضل الضبي ، أمثال العـرب ص ٣٩ وابو عبيدة النقائض ٢/٦٧٠ وابو تمام ديوان الحماسة المرزوقي ١/٢٠٣ ، والخالديان الاشباه والنظائر ٢ / ٢٦٨ .

(٢) ابو عبيدة ـ النقائض ٢ / ٦٦٦ و ٦٦٧ مقطوعتان

كلمة «جناح» في أبيات الربيع بن ضبيع (١) ، وكلمة «قديم» في قصيدة زهير الميمية يمدح الساعين في الصلح (٢) :

ومن أمثلة الاقواء ، ما وقع فيه قيس بن زهير ، حيث أقوى في بيتين متعاقبين من قصيدته التي يرثى بها قتلى جفر الهباءة ، فكسر حرف الروي ، وحركته الأصلية في القصيدة هي الضم (٣) .

أما التضمين فنختار له مثلا من قول عنترة (٤) :

فان يكُ عبدُ اللهِ لاقى فوارسا
يردّونَ خالَ العارضِ المتوقدِ (٥)
فقد أمكنتْ منكَ الأسنةُ عانيا
فلم تَجزَ اذ تَسعى قتيلا بمعبدِ

وقوله (٦) :

---

(١) وهب بن منبه .. التيجان ص ١٢٥!

(٢) ديوانه ص ٢٠٦

(٣) الاغاني ١٧ / ١٣٨!

(٤) الاعلم ، مختارات الشعر الجاهلي ١ / ٣٠٨ تحقيق السقا

(٥) الخال : اللواء ، والعارض : المتوقد ، الجيش اللامع لكثرة السلاح .

(٦) الاعلم ـ مختارات الشعر الجاهلي ١ / ٢٩٣ وانظر شرح البيتين ص ١٢٤ .

فان يلكُ عزٌ في قُضاعَة ثابتٌ
فان لنا برحرحانَ واسقفِ
كتائبَ شهبا فوقَ كل كتيبةِ
لواءٌ كظلِ الطائرِ المتصرفِ

* * *

اختلاط نسبة الشعر الى اصحابه

والى أكثر من شاعر

اذا قارنا بين هذا الشعر المختلط في نسبته ، والصحيح الذي خلصت نسبته الى شاعر واحد ، وجدنا ان الأول قليل ، يكاد يضيع بنسبته الضئيلة بين الصحيح الثابت . وقد أحصينا هذا المختلط ، فاذا هو مقطوعات قصار ، لا يزيد عددها على اثنتى عشرة مقطوعة ولا تتجاوز أطولهن خمسة أبيات ، وتقل حتى تبلغ البيت الواحد ، واكثر هذا الاختلاط وقع في نسبة القطعة او البيت لأكثر من شاعر ، ولدينا حالة واحدة فقط ، اختلطت فيها ثلاث مقطوعات مع بعضها ، بسبب اتحاد وزنها وقافيتها ونتجت منها مقطوعة جديدة ، نسبت الى شاعر رابع ، اضافه

الى الشعراء الثلاثة (١) ، وهذه كما قررنا ، حالة فريدة لم تتكرر وسوف نعالج موضوعها بردها الى أصولها ، كمـا وردت في مصادرها . أما الأبيات فهي (٢) :

١ ـ ولله عينـا من رأى مثل مالكٍ
عقيرةَ قـومٍ أن جـرى فرسـانِ

٢ ـ فانَّ الرباطَ النُكدَ من آلِ داحسٍ
أَبَيْنَ فما يُفاحنَ يومَ رهـانِ

٣ ـ جلبنَ باذنِ اللهِ مقتلَ مـالكٍ
وطرّحنَ قيسًـا من وراءِ عُمـانِ

٤ ـ لطمنَ على ذاتِ الاصادِ وجمعُكمْ
يَرونَ الاذى من ذلـةٍ وهـوانِ

٥ ـ سيُمنعُ عنكَ السبْقُ ان كنتَ سابقا
وتُقتلُ ان زلّت بكَ القدمـانِ

٦ ـ فليتهما لم يشربا قطَّ شربـةً
وليتهما لم يُرسلا لرهـان

(١) ياقوت ـ معجم البلدان ، مادة : (أصاد) نسب الأبيات لبدر بن مالك بن زهير يرثى أباه ، وفي مادة (هباءة) خلط بيتا من وزن آخر بثلاثة أبيات ، وردت في حماسة أبي تمام . شرح المرزوقى ١ / ٢٠٣ .

(٢) المصدر السابق .

٧ ـ أحلَّ بـه امسِ جنيدبُ نَذْرَهُ
فأيُّ قتيلٍ كانَ في غَطَفانِ

٨ ـ اذا سجعتْ بالرقمتينِ حمامةٌ
أو الرَّسِّ تبكي فارسَ الكُتفانِ (١)

وعند الرجوع الى المفضل الضبى (٢) ، صاحب أقدم مجموعة شعرية لهذه الحرب ، نجد أنه يورد أربعة أبيات منها : المطلع والسادس والسابع والثامن وينسبها الى ابنة مالك بن بدر الفزارى ، ترثى أباها ، يوم قتله العبسيون على يد جنيدب ، ومثله نقل أبو عبيدة (٣) وأبو الفرج الاصفهاني (٤) . أما المفضل ابن (٥) سلمة ، فقد أورد البيت الأول والسادس وابن عبد ربه (٦) والميداني (٧) ، أوردا البيتين نفسها منسوبين الى عنترة العبسى ، لكن الميداني أورد بعد ذلك البيت السابع والثامن ، ونسبها الى

(١) الرقمتان والرس : موضعان

(٢) امثال العرب ص : ٣٤

(٣) النقائض ١ / ٩٣

(٤) الاغاني ١٧ / ١٣٤

(٥) الفاخر ص ١٢٢

(٦) العقد الفريد ٣ / ٦٨

(٧) مجمع الامثال ٢ / ٥٨

ابنة مالك بن بدر (١) . أما ابن الأثير ، فقد أورد ثمانية أبيات منسوبة لعنترة ، ليس فيها ما يطابق الابيات المذكورة ، سوى بيتين ، هما الأول والسادس ، وزاد عليهما ستة أبيات (٢) .

والذي في مجموع الشعر الجاهلي للأعلم (٣) ، البيت الأول والسادس ، مضافا اليهـا ثلاثة أبيات ، فتكون القطعة من خمسة أبيات فقط هذا مع العلم أن الأعلم قال بأنها تروى لغيره .

والواقع أن هذه القطعة اختلطت بغيرها من الشعر ، فالبيت الأول والسادس لعنترة (٤) ، والبيت الثاني والثالث والرابع

---

(١) المصدر السابق ٢ / ٦٢

(٢) الكامل في التاريخ ١ / ٣٤٩ وأبياته هي :

فلله عينا من رأى مثلَ مالكٍ ... عقيرةَ قومٍ ان جرى فرسانِ
فليتهما لم يَطعَما الدهرَ بعدها ... وليتهما لم يُجمعا لرهانِ
وليتهما ماتا جميعا ببلدةٍ ... واخطاهما قيسٌ فلا يُريانِ
لقد جلبا جلْباً لمصرعِ مالكٍ ... وكان كريماً ماجدا لهجانِ
وكان اذا ما كان يومَ كريهةٍ ... فقد علموا أنيّ وَهُوْ فتيانِ
وكنّا لدَى الهيجاءِ نَحمى نساءَنا ... ونضربُ عند الكَربْ كل بنانِ
فسوفَ ترى ان كنتُ بعدَك باقيا ... وامكنني دهري وطولُ زماني
فأُقسمُ حقـاً او بَقيتُ لنظرة ... لقرّت بها العينانِ حين تراني

(٣) ص ٢ / ١٦٥ تحقيق عبد المنعم خفاجي

(٤) المصدر السابق والمفضل الضبي ص ٣٤

والخامس لبشر بن أبي العبسي (١) ، والبيت السابع والثامن لابنة مالك بن بدر الفزارى (٢) ؛ وعلى هذا ، لم يبق اختلاف في نسبة الأبيات ، وان بقى البيت الأول موضع تنازع بين عنترة وابنة مالك ، كما ذكر المفضل الضبي وأبو عبيدة والأعلم ، فالأولان نسباه لابنة مالك ، والأخير نسبه لعنترة ، وعقب على ذلك بقوله أنها تروى لغيره .

والمقطوعة الأخرى التي تنازعها عنترة والربيع بن زياد وقيس ابن زهير من ثلاثة أبيات ، ذكرها المفضل بن سلمة (٣) ، ونسبها الى قيس بن زهير ، وابن عبد ربه (٤) ، ونسبها الى الربيع بن زياد ، وعثرنا عليها في مجموعة الاعلم (٥) ينسبها لعنترة ، ويعقب عليها بقوله : وتروى للربيع بن زياد ، وقد رأينا أن سياق القصة وما تضمنته الأبيات من معنى يؤكدان أنها للربيع :

والمقطوعة الرابعة نسبها المفضل الضبي (٦) في كتابه أمثال العرب لشداد بن معاوية العبسي وهي في فرسه جروة : وكذلك

(١) ابو تمام ، الحماسة (المرزوقي) ١ / ٤٥٠

(٢) المفضل بن سلمة ، ص ١٢٢

(٣) الفاخر : ص : ٢٢٤

(٤) العقد الفريد : ٣ / ٦٨

(٥) ٢ / ١٥٤ تحقيق عبد المنعم خفاجي

(٦) امثال العرب ص ٣٤ .

نقلها ابو عبيدة (١) في النقائض وأبو الفرج (٢) في الأغاني . أما الاعلم (٣) في مجموعته فقد نسبها لعنترة وقال : وتروى لشداد ابن معاوية .

ومقطوعة خامسة نسبها المفضل الضبي (٤) لنائحة هرم بن ضمضم ، وكذلك أبو عبيدة (٥) ، ونسبها أبو الفرج في الاغاني (٦) لناجية أخت هرم بن ضمضم . واحتمال التصحيف كبير بين كلمتي نائحة وناجية :

والمقطوعة السادسة من ثلاثة أبيات ، لعقيل بن علفه المرى ، نعى على عويف القوافي حين هاجاه ، وردت صحيحة النسبة في الفاخر (٧) ، والعقد الفريد (٨) ، ومجمع الأمثال (٩) ؛ ولكن

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ١ / ٩٦

(٢) ١٧ / ١٣٦

(٣) ٢ / ١٦٤ شرح عبد المنعم خفاجي

(٤) ص ٣٤

(٥) نقائض جرير والفرزدق ١ / ٩٤

(٦) ١٧ / ١٣٤

(٧) المفضل بن سلمة ص ٢٢٨

(٨) ابن عبد ربه ٣ / ٧٠

(٩) الميداني ٢ / ٦٢

اختلاط نسبتها جاء في كتاب الحماسة الصغرى (١) ، حيث ذكرها بعد هذه العبارة المضطربة «زبان بن سيار الفزاري» في عويف القوافي هي لعقيل بن علفة يجيبه عن قوله في عقيل : وقد التفت الى هذا الخلط محقق الكتاب عبد العزيز الميمني واستدركه بقوله (٢) : « هما قطعتان في ثمانية ابيات مجموعتين : من البيت الأول الى الثالث لعويف القوافي ، ومن الرابع الى الثامن لزبان أو عقيل يجيب فيها» : والذى يخصنا هي الثلاثة الأولى ، وقد رأيت في الكتاب نفسه أبياتا من نفس وزن القصيدة وقافيتها والغرض ، لعلها من القصيدة نفسها ، لأن فيها هجاء لبني بدر وفخرا بنفسه (٣) :

والقطعه السابعة ، رجز في مدح هاشم بن حرملة ، لم ينسبها أبو الفرج (٤) ، والمفضل بن سلمة (٥) وابن عبد ربه (٦) ، لقائل معين ، لكنها وردت في بعض المصادر منسوبة لعدد من

---

(١) « الوحشيات » ص ٢٤٢

(٢) ينظر حقل الاستدراك في آخر الكتاب

(٣) ابو تمام / الحماسة الصغرى ص ١٧٤

(٤) ١٣ / ١٤٧

(٥) الفاخر ص ٣٣٤

(٦) العقد الفريد ٣ / ٧١

الشعراء (١) : ومثل هذه القطعة توجد قطعة رجز أخرى نسبها أبو عبيدة (٢) لأحد رجاز بني عامر ، ونسبها الميداني لأحد رجاز عبس وذبيان (٣) ، وقد قيلت يوم شعب جبلة :

وتوجد قطعة منسوبة لعبد الله بن همارق ، احد بني عبد الله ابن غطفان (٤) ، وشك موردها بأنها للنابغة ، وقد وجدت في ديوانه (٥) :

ويوجد بيت مفرد نسبه ابن هشام (٦) لحمل بن بدر الفزاري ، وابن الاثير (٧) لحميد بن بدر ، وليس في هذه الحرب من يحمل اسم حميد ولعله موجود ولم يصل الينا خبره أو انه تصحيف لاسم حمل بن بدر :

---

(١) المرزباني معجم الشعراء ص ٢٥ منسوبة لعمرو بن ذكوان وهو جاهلي . والبكرى معجم ما استعجم ، جاءت منسوبة لعامر ابن الخصفي .

(٢) النقائض ٢ / ٦٦١

(٣) مجمع الامثال ٢ / ٣٩٨

(٤) المفضل بن سلمة ـ الفاخر ص ٢٣٠ والميداني مجمع الامثال ٢ / ٦٤ .

(٥) ديوان النابغة ص ٢١٤

(٦) السيرة ١ / ٨٦

(٧) الكامل فى التاريخ ١ / ٣٥٠

يتضح لنا من كل هذا العرض أن أسباب الخلط جاءت نتيجة لتشابه الغرض أو الوزن أو الروى : وقد تتشابه بعض صدور المطالع ، ويرافقها اتفاق الوزن والقافية . وفي بعض الأحيان يحصل الخطأ عن سهو يقع فيه الرواة والنساخ ، وطبيعة الاختلاط الذي أوردناه وعالجناه ، ينحصر ضمن الأبيات المذكورة ، وهو ليس كثيرا اذا قيس الى مجموع شعر هذه الحرب .

الفصل الرابع

دراسة موضوعية لشعر هذه الحرب

موضوعات هذا الشعر وأغراضه : « الفخر والحماسة ، الرغبة في السلم وتبغيض الحرب ، رابطة الدم والرحم ، التهديد والوعيد ، شهوة الانتقام وحديث النفس » : مواكبته لأحداث الحرب ، مدى مطابقته للواقع التاريخي ، ضياع كثير من هذا الشعر كشأن الشعر الجاهلي :

الفصل الرابع

دراسة موضوعية

موضوعات شعر الحرب

الفخر والحماسة :

يضم هذا الموضوع بين دفتيه أكثر شعر الحرب ، بل اكثر الشعر الجاهلي عامة . لأن طبيعة المجتمع نفسه جددت ذلك ، بما عرف عن البداوة من حب للشجاعة والغارة والاهتمام بالنصب وهى أمور قوامها الفخر والحماسة .

لكننا لاحظنا أن شاعر الحرب اذا افتخر فان موضوعات فخره ليست تلك التي يفتخر بها شاعر القبيلة في حياتها الوادعة فكثير من تلك المفاخر ينطفىء بريقها وتخمد جذوتها بعد قليل :

ولذلك وجدناهم يحصرون اكثر فخرهم في أيام اللقاء ، ومقارعة الأبطال ، والوقوف فى وجـــه الغارة ، والامتناع على العـــدو امتناعاً مشرفا مهما كانت عواقبه ، وذكر الأيام التى انتصروا فيها على الأعداء وقبروهم . وليس في ديوان شعرهم الحربي هنا فخر بالأجداد وبالكرم او الشرف لأنها معان ليست

نافعة لهذه الحرب التي تدور بين الاخوة .

واذا ذكرت فانما هو تلميح سريع ، عندما تصبح الحاجة اليها مقصورة على أفراد ، يرددونها أحياناً في أبيات قليلة ، خلال قصائدهم الطوال كما يفعل عنترة ، أو في قصائد زهير ذات الصبغة السلمية ، عندما يمدح رجال بني مرة الداعين للصلح والساعين في السلم ، ولم أجد مثل هذه الأبيات في شعر سواهما من شعراء حرب داحس ، وان وجدت فهي قليلة ضائعة بين أشعار الفخر الكثيرة ، بحيث لا تلفت اليها النظر :

وقد جرت عادة شعراء الحرب ، أنهم عندما يفتخرون يضمنون معانيهم عبارات الحماسة ، فيصبح الفخر مع الحماسة شيئاً واحدا يتعذر فصله : ومن خلال هذه المعاني يبدأ الشاعر مسجلا أحداث الوقائع ، متطرقا الى وصف الحرب ولقاء الرجال وربما ضمن أبياته بعضا من اشاراته الى أسباب هذه الحروب ، كأن تكون غارة أو ثارا أوردا لغزو وغيرها ، ولذلك غلب على شعر الفخر والحماسة طابع خاص ، هو تفرقه خلال القصائد حتى أصبح على شكل مقطعات .

فالمعقر بن أوس البارقي (١) ، حليف بنى عبس وبنى عامر يوم « شعب جبلة » : يفتخر بالنصر في قصيدته التي عدتها ثلاثة وعشرون بيتاً ، جعل كل غرضها في الفخر ، خلا أربعة أبيات

---

(١) ابو عبيدة - النقائض ٢ / ٦٧٧

هي المطلع المصرع ، والثلاثة التي تليها جعلها الشاعر مقدمة غزلية للقصيدة ، يباشر بعدها وصف الجيش العظيم الذي جمعته ذبيان وأحلافها من القبائل الأخر ، مضافا الى جيش كندة ، يقوده بنفسه ملكها المسمى معاوية بن الجون الكندى . قال المعقر (١) :

معاويةُ بنُ الجونِ ذبيانُ حولَهُ
وحسانُ في جمعِ الربابِ مكاثرُ (٢)
فمروا باطناب البيوتِ فردَّهم
رجالٌ باطرافِ الرماحِ مَساعِرُ (٣)
وقد جمعوا جمعاً كأنَّ زُهاءَهُ
جرادٌ هوى في هبوةٍ متطايرُ
فباتوا لنا ضيفاً وبِتنا بنعمةٍ
لنا مُسمعاتٌ بالدفوفِ وسامرُ
فلم نَقرِهم شيئاً ولكنْ قصدَهُم
صَبوحٌ لدينا مَطلعَ الشمسِ حازرُ (٤)

(١) المصدر السابق ص ٦٧٨

(٢) معاوية بن الجون أحد ملوك كندة وحسان أخوه

(٣) الطنب واحد اطناب الخيمة فاستعاره للطرف او الناحية . والطنب حبل طويل يشد به البيت والسرادق

(٤) شبه الجيوش القادمة عليهم بالضيوف لكن طعامهم سيكون غارة مع الصبح . والحازر اللبن اذا حمض .

ويمضي من هذه الصورة ، صورة الضيوف والقرى حتى يصبحوهم عند الشروق بكتائب مغيرة تنهال عليهم كأركان « جبل سلمى » ، ولا هم لهذه الكتائب سوى ضرب صناديدهم ، فخاب ظنهم الذى ظنوه بأن عبسا وعامر لن تقاتل في السفح ، فلما أتتهم عبس وعامر وقاتلتهم لم ينج منهم مفاخر :

صبحناهُمُ عنــدَ الشروقِ كتائبــاً
كأركانِ سَلمى شَبْرها متـواترُ (١)

كأنّ نعــامَ الــدّوِ باضَ عليهـــم
واعيُنُهم تحتَ التَحبيكِ حواجرُ (٢)

من الضاربينَ الكبشَ يمشُونَ مُقدَماً
اذا غصّن بالريقِ القليلِ الحناجرُ (٣)

وظنّ سراةُ القومِ أن لن يُقتَلُــوا
اذا دُعيتْ بالسفحِ عبسٌ وعامــرُ

---

(١) أي أنهم طلعوا عليهم بكتائب تحكى فى تماسكها أركان جبل سلمى ، وتأتى متواترة ، اي متتابعة .

(٢) المعنى أنهم مقتولون تغطيهم بيضاتهم التي يلبسونها في رؤوسهم عند الحرب وهي تشبه بيوض النعام ، أما أعينهم فحواجر تحت الحبيك أي درع الحديد .

(٣) الكبش رئيس القوم الذي يحميهم

ضربنا حبيلك البيض في غمر لجة
فلم ينج في الناجين منهم مفاخر

ثم يقتبس لقصيدته من الحرب العظيمة صورة حية من صور الشجاعة العديدة التي تزخر بها هذه الحرب ، فيصف لنا كيف أن زهدما العبسي انقض كطير جارح على حاجب بن زرارة سيد تميم ليوقعه في أسره ، فراح كلاهما يظهر من ضروب الشجاعة ما يبهر الأنظار ، ولكن حاجبا كان ينوء بثقل يد زهدم التى التفت عليه من خلفه :

هوى زهدم تحت الغبار لحاجب
كما انقض أقنى ذو جناحين ماهر (١)

هما بطلان يعثران ، كلاهما
أراد رئاس السيف والسيف نادر (٢)

فلا فضل الا ان تكون جراءة
وذو بدنين والرؤوس حواسر (٣)

---

(١) زهدم وحاجب المذكوران هما زهدم العبسي وحاجب بن زرارة التقيا في حرب « شعب جبلة » وخبرهما مبسوط هناك .

(٢) يعثران ينسبان الى انهما بطلان ورئاس السيف الداخل في المقبض منه الدقيق . أي كل واحد منهما يطلب رئاس السيف لقتل صاحبه . وندر سقط .

(٣) البدن الدرع القصيرة ، وحواسر مكشوفة

ينوءُ وكفا زهدم مِن ورائِه

وقد عَلِقَتْ ما بينهنّ الأظافرُ

وقصيدة المعقر هذه ، وقفت ضمن القصائد الحربية التي افتخرت بالخيل ، وعقدب جانبا كبيرا من النصر بأصالتها ، واقدامها وصبرها ، فجاء بخير النعوت التى توصف بها الفرس ، وأروع الصور التي توضح صبرها . فشبهها بالمرأة التى تمهد لزوجها خشية الضرائر عندما لا تكون ولودا ، لأن العاقر أقل دالة على زوجها من المرأة الولود فهي تصنع له وتداريه . وكذلك الفرس بالنسبة لفارسها :

يُفرّجُ عنا كلَّ ثغرٍ تخافُه

مِسَحٌّ كسِرحانِ القَصيمةِ جاسرُ (١)

وكلُّ طموحٍ في العِنانِ كأنّها

اذا اغتمَسَتْ في الماءِ فتخاء كاسِرُ (٢)

لها ناهضٌ في المهدِ قد مهّدَتْ له

كما مهّدتْ للبعلِ حسناءُ عاقرُ (٣)

---

(١) القصيمة من الرمل ما اثبت الغضى والرمث . والسرحان الذئب والمسح الفرس كأنه يصب الجرى صبا .

(٢) الفتخاء والجمع فتخ أنثى العقاب

(٣) بهذا البيت سمى المعقر بن أوس . وانما خص العاقر لانها أقل دالة على الزوج من الولود فهى تصنع له وتداريه .

تخافُ نساءٌ يبتدِرْنَ حليلَها
محرَّدَةٌ قد حرَّدَتْها الضرائرُ (١)

وأمام هذا النصر للذي حققه تحالف عبس وعامر في وجه القبائل العربية ، وغنى به المعقر ينهض شاعر مناوىء ، يبرر الخسارة ، ويحيل الهزيمة فخرا يتغنى به أيضاً ، جاعلا من لجوء عبس وعامر الى شعاب الجبل ، وخلف الهضبة الحمراء سجنا لهم ، مع أنهم وجدوا في هذا السجن عزّهم ، ولولاه لكان الموت بهم لاحقا ، حيث عطفت خيل الحلفاء عليهم عطف الضروس (٢) :

ونحنُ حبسنا الحيَّ عبساً وعامرا
لحسانَ وابنِ الجونِ اذ قيلَ أقبلا
وقد صعِدتْ عن ذى بحارِ نساؤهم
كأصعادِ نسْرٍ لا يرومونَ منزلا (٣)
عطفنا لهم عطفَ الضروسِ فصادَفُوا
من الهضبةِ الحمراءِ عِزّاً ومَعقِلا

وبالروح نفسها ، تدفع دختنوس بنت لقيط بن زرارة

---

(١) الحرد : الغضب

(٢) ابو عبيدة ـ النقائض ٢ / ٦٥٨

(٣) ذى بحار موضع في نجد

نتيجةَ للحرب التى لم يكن في جانبهم ، فالشر الذي حاق بدارم قوم دختنوس لم يمنع دارما أن تضرب ولم تجبن . ولكن عبسا وعامرا ، والقبائل الأخرى الحليفة صبرت لهم ، فكانت الشجاعة من الجانبين المتقاتلين موضعَ اعجاب الشاعرة (١) :

لعَمري لئِنْ لاقَتْ من الشَّرِ دارمٌ
عَنَاءً لقد آبتْ حميداً ضِرابُها

فما جَبُنوا بالشِعبِ اذ صَبَرتْ لهم
ربيعةُ تُدعى كعبُها وكلابُها

وخراشة بن عمرو العبسي يسلك طريق المعقر بن أوس في قصيدته المذكورة ، حيث يبدأ بمطلع مصرع ، ومقدمة غزلية تستغرق أربعة أبيات ، ويفتخر بعبس وفعالها يوم « شعب جبلة » ثم يتطرق الى سياسة قومه وحلمهم وسؤددهم ، وتمضى قصيدته في الفخر حتى آخر بيت منها . ولم يتخلل غرضه هذا غرض سواه عدا أبيات المقدمة في الغزل (٢) :

فلا قومَ الا نحنُ خيرٌ سياسةً
وخيرُ بقياتٍ بقَينَ وأوّلا

---

(١) ابو عبيدة ـ النقائض ٢ / ٦٦٦

(٢) المفضليات ص : ١٠٠

وأطولُ في دارِ الحِفاظِ اقامةً
واربطُ احلاما اذا البَقلُ أجهلا (١)
وأكثر منا سيدا وابنَ سيدٍ
وأجدرُ منا أن يقولَ فيفعلا
قرومٌ نمتنا في فروعٍ قديمةٍ
بحيث امتناعِ المجدِ أن يتنقلا (٢)
حماةُ غداةِ الرّوعِ يأمنُ سربُنا
اذا دهمَ الوردُ الضعيفَ المذللا (٣)
مصاليتُ ضرابونَ في حومةِ الوغى
اذا الصارخُ المكروبُ عم وضللا
ونحن تركنا عدوةً أمَ حاجبٍ
تجاوبُ نوحاً ساهرَ الليلِ ثكلا

ويفتخر عنترة بيوم «الفروق» ، وهو يحذو حذو سابقيه في الغرض الواحد ، وهو الحماسة والفخر . ولكنه يخالفهم بمقدمته

(١) ومعنى البيت ، انهم يقيمون مدة طويلة في أي منزل او مكان . وهم معروفون بحلمهم عندما يقبل الربيع ، ويخضر البقل ، ويكثر الماء ، ذلك لأن حروبهم تكثر في هذه الأوقات ، حيث يبدأ البدوي في تذكر الثارات القديمة .

(٢) القرم السيد .

(٣) الورد بفتح الواو الاسد وبكسره الوراد الذين يريدون الماء

الطللية التي بدأها بمطلع مصرع ، وبيت يليه في معناه ، ثم ينتقل الى ذكر الحرب واصفا معركة «الفروق» حيث يغير عليهم عدوهم ، فيدفع العبسيون عنهم الغارة ويمنعون نساءهم أن ينالها سوء أو أذى . وكانت عبس قد أقسمت أن ينازلوا أعداءهم ، حتى يجعلوا المقاتلين منهم يملون الرماح ويكرهونها : والرماح ممتدة اليهم كالافاعي تهاجم الكلاب ، والكلاب تهرها . ولكن تجمعهم على الرماح الذي يشبه تجمع الأهل المسنة على كومة من العظام البالية ، لا يغنيهم شيئا عندما يستحر القتل قال عنترة (١) :

ونحنُ منَعنا بالفروقِ نساءَنا
نطرِّفُ عنها مشعلاتٍ غواشيا (٢)

حلفْتُ لكم والخيلُ تردِي بنا معا
نزايلكم حتى تَهِرّوا العواليا (٣)

عواليَ سمرا من رماحِ رُدَيْنَةٍ
هريرَ الكلابِ يتقِينَ الافاعيا (٤)

---

(١) الاعلم - مختارات الشعر الجاهلي ٢ / ١٣٠

(٢) نطرف نرد ، والمشعلات المنتشرات المتفرقة . والغواشي المحيطة بالقوم . والبيت في اللسان « فرق » والرواية فيه (نساءكم) .

(٣) الرديان ضرب من السير ويهر يكره . والعوالي جمع عالية الرمح ، وهي دون السنان والبيت في اللسان (هرر) .

(٤) ردينة اسم امرأة تنسب اليها الرماح ، وقيل هي جزيرة بالبحرين =

تفاديُتم أستاهَ نيبٍ تجمّعت
على رِمّةٍ من العِظام تَفاديا (١)

وهذا الفخر الرائع، الممزوج بالحماسة وبالصور الحية، ينقله الى ختام لأبياته يناسب معانيها وصورها فيمهد له بقوله :

ألم تعلموا أنّ الأسنّة أحرَزَتْ
بقيّتنا لو أنّ للدهرِ باقيا (٢)
أبينا أبيْنا أن تَضُبّ لِثاتُكم
على مُرشِفاتٍ كالظِباء عواطِيا (٣)

= ترزأ اليها السفن . وقوله (هرير الكلاب) اراد حتى تهر العوالي هرير الكلاب يتقين الأفاعيا .

(١) تفاديتم أي جعلتم بعضكم يتقى الرماح ببعض . والنيب جمع ناب ، وهي الناقة المسنة . وقوله « استاه نيب » ذلك أن الناقة اذا اسنت استرخت وسلمت كل حين . وقوله « تجمعت على رمة من العظام » فالابل تأكل العظام البالية وتجتمع عليها ، فيضرب بها المثل فى طلب مالا يعود بطائل .

(٢) احرزت ، منعت والمعنى انهم ذوو منعة وقوة ولو أن الدهر يبقى على احد لأبقاهم .

(٣) « أبينا أبينا أن تضب لثاتكم » أي منعنا نساءنا عنكم وابينا أن تسيل لثاتكم من شدة الحرص وغلبة الشهوة . وتشبيهه النساء بالظباء العواطي المرشفات أي طويلات الاعناق لانها مخضبة وذلك أتم لحسنهن .

ولا ينسى أن يعود الى ذكر «الفروق» في آخر القصيدة، ويعطى البرهان على أصالة العبسيين في الحرب :

فما وجدونا في الفروق أشابة
ولا كشفاً لكن وجدنا مواليا (١)

وانا نقود الخيل تحكى رؤوسها
رؤوس نساء لا يجدن فواليا (٢)

واذا أردنا أن نسترسل في تتبع كل شعر الفخر والحماسة، فاننا سوف نغادر كل صفحات البحث ولم ينته هذا الغرض ؛ ولكننا نؤثر أن ننتقل الى لون آخر من الفخر والحماسة، هو الذى قررنا في مستهل حديثنا، انه متسم بطابع فردى، ليس للقبيلة أو القوم فيه أثر ؛ ولكن أغلب هذا الشعر يأتي من خلال القصائد والمقطعات، ولا يشكل موضوعا قائما بذاته في القصيدة الواحدة : وربما ورد في بعض المقطعات فخر لشخص، ولكنه قليل، ومن مقطعات انتزعت من قصائد :

ولا ينحصر فخر هؤلاء في مناسبة معينة بذاتها، وانما هي مناسبات كثيرة، كبلوغ لثأر أو ابلاء في حرب، أو مقارعة

---

(١) الاشابة، الاخلاط أي لم يختلط بنا غيرنا . ولا كشفا أي لا نكشف عند اللقاء وغير مهزومين .

(٢) أي ان رؤوس خيولنا تشعثت لدوام الحرب كرؤوس نساء غريبات لا يفلين بالمشط .

لبطل ، وما الى ذلك من ضروب التفاخر أيام الحروب ، فهذا الحارث بن زهير يقتل حمل بن بدر ، ويسترجع منه ذا النون ، سيف أخيه مالك بن زهير ، وكان حمل بن بدر قد سلبه اياه يوم قتله : ولا ينهى الحارث أن يفخر بالحادثة ، مشيرا الى نفسه ، يوم أخذ السيف بعرقه وتعبه ، ولم يأخذه منه كرما أو عطفا فقال (١) :

تركتُ على الَهبـاءةِ غيرَ فخـرٍ
حـذيفةَ حوَله قِصَدُ العوالِـى

سُيخبرُ قومَـه حَنشُ بنُ عمـروٍ
اذا لاقاُهـو وابنـا بِـلالِ

ويُخبُرهم مكـانَ النونِ منّـى
ومـا أُعطِيتُـه عرقَ الخِـلالِ

وكان عمرو بن الأسلع ، أجهز في وقعة جفر الهباءة على بني بدر فقتل سادتهم ، وفي طليعتهم حذيفة بن بدر : فقال عمرو يسجل لنفسه هذه المأثرة ، ويضعها في فم الزمن (٢) :

انّ السماءَ وان الارضَ شاهـدةٌ
واللهُ يشهـدُ والأنسـانُ والبلـدُ

---

(١) المفضل الضبي ـ أمثال العرب ص : ٣٥

(٢) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ٣ / ٧٠ والنويري ـ نهاية الأرب ١٥ / ٣٦٢ .

انى جزيت بني بدر بسعيهم

على الهباءة قتلا ماله قود (١)

لما التقينا على ارجاء جمتها

والمشرفية في أيماننا تقد (٢)

علوته بحسام ثم قلت له

خذها حذيف فأنت السيد الصمد

ولم ينس شداد بن معاوية العبسي أن يفخر بفرسه في عداد فخره بنفسه (٣) : وأما عنترة ، فأكثر فخره بنفسه ، يحمل في ثناياه عقدة لونه ونسبه ، لذلك فهو يركز على أمجاد الحرب وانتصاراتها ، ليبعد ما في ذهنه من عقدة اللون والنسب هذه (٤) :

انى امرؤ من خير عبس منصبا

شطرى وأحمى سائرى بالمنصل

واذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت

ألفيت خيرا من معم مخول

وفي « وادي اليعمرية » يوم اشتد القتل على بني ذبيان ، عندما

---

(١) القود القصاص واقدت القاتل بالقتيل قتلته به

(٢) الجمة المكان الذي يجتمع فيه الماء

(٣) المفضل الضبي ص : ٣٥

(٤) الاعلم : مختارات الشعر الجاهلي ٢ / ١٣٧ تحقيق عبد المنعم خفاجي .

غدروا بالصبية الرهائن ، التقى الأقران ، فكان من حصة جحش ابن نصيب ، احد بني عبد الله بن غطفان ، حلفاء بني عبس ، قرن استطاع جحش أن يتركه والطير تحجل حوله ، لتحرك رجلاه وقد مات سائر جسده (١) :

ويومٍ بوادي اليَعْمُرِيَّةِ لم نَزَلْ
على الماءِ حتى اسلَمَ الماء غامِرُه
وقِرنٍ تركتُ الطيرَ تَحْجِل حَوْلَهُ
تحرَّكُ رِجلاهُ وقد ماتَ سائِرُه

وكان معقل بن عامر قد أمسك بعمرو بن حسحاس بن وهب يوم « الشعب » وهو خصمه ، فوجده جريحا فداواه وكساه واطلقه وكان في مقدوره الا يفعل ذلك ، لكنها يد كريم اسداها الى ابن حسحاس فقال (٢) :

يَدَيْتُ على ابنِ حَسحاسِ بن وهب
بأسفلِ ذِي الجِذاةِ يدَ الكريمِ (٣)
قصرتُ له من الدَّهماءِ لمَّا
شَهِدتُ وغابَ مَنْ لَهُ من حميمِ (٤)

---

(١) البحتري - الحماسة ص : ٧٣

(٢) ابو عبيدة - نقائض ٢ / ٦٦٧

(٣) وديت اعطيت وذى الجذاة موضع

(٤) منعته أن تصل اليه دهماء الناس عندما غاب عنه قومه .

ولو أنّى اشاءُ لكنتُ منه

مكانَ الفرقَدْينِ من النجومِ

أُخبّره بانّ الُجرحَ يُشوِى

وانّك فوقَ عِجلزةٍ جَمومِ (١)

ذَكرتُ تَعِلّةَ الفتيانِ يوما

والحاقَ الملامةِ بالمُليمِ

وقد افتخر خارجة بن سنان بعد الصلح ، عندما دفع الدية ، ايذانا بسلم تحقن فيه دماء القوم ، فكان ما اعطاه من مال وابل عاد عليه بالفخرِ مدى الدهر (٢) :

أعتبتُ عن آلِ يربوعٍ قتيلَهمُ

وكنتُ أُدعَى الى الخيراتِ أطوارا (٣)

أعتبتُ عنهم ابا بيحانَ أرسَنها

وُردا ودُهما كمثلِ النخلِ أبكارا (٤)

ولا يفوتنا أن نشير الى شعر الرثاء ، فانه صورة من شعر

---

(١) يشوى أى جرح غير قاتل . والعجلزة الفرس العظيمة . والجموم التي كلما ذهب منها جرى جاء جرى ولم تتعب .

(٢) المفضل بن سلمة ـ الفاخر ص ٦٦ والميداني ـ مجمع الامثال ٢ / ٦٦ .

(٣) اعتبت ارضيت وارجعت الود الى سابقه

(٤) ارسنها شدها بالرسن . والورد الابل بعينها . ودهما سودا

الفخر والحماسة في هـذه الحرب وليس في رثائهم من التفجع والتوجع للقتيل الا ما جاء على ألسنة النوائح أو نسوة القتيل من أهله كزوجته أو أمه أو شقيقته (١) :

• • •

الرغبة في السلم وتبغيض الحرب :

قد يبدو مثل هذا الموضوع غريبا بين شعر الحرب الحافل بالفخر والحماسة ووصف القتال ولقاء الابطال . ولكن واقع الحال يقرر ذلك ، وينفى عن الموضوع كل غرابة . ففى مجموعتنا من القصائد أو المقطعات والأبيات المنفردة ، ما يجعل هذا الاتجاه واضحا ملموسا بين الأغراض التى تناولها هذا الشعر : وكان لابد أن تتضح ملامح مثل هذا التيار في حرب داحس والغبراء ، وهي حرب بين اخوة يقتتلون تحت وطأة ظروف قاهرة متشابكة ، ظروف اقتصادية واجتماعية وتاريخية : وأمام هذا الشعور ، شعور القرابة ورابطة الدم ، كان طبيعيا أن تولد فكرة تبغيض الحرب وتزيين السلم بين الفريقين . وقد حدث هذا فانبعث من بين الحيين رجال يهدفون في شعرهم الى أن يصوروا الحرب في صور شائهة منفرة ، ورجال يصورون الصلح والسلم ويزينونه للناس ، وكل

(١) ينظر موضوع الثأر في اول الفصل الثاني

هؤلاء دخلوا الى موضوعاتهم في الحرب وفي السلم من زاويته المناسبة ، حتى تجمعت لدينا طائفة طيبة من هذا الشعر الانساني الذي قدم لنا الحيـــاة ، بوجهها الباسم المشرق ، على الرغم من مناظر الدماء التي حاولت أن تشوه ملامح الصورة :

ومنذ البـــداية ، يوم وقف الأسياد يتبارون في السباق ، ويكثرون من الرهان ، ويؤدى بهم اللجاج الى المنافرة ، برز لهم رجل من فزارة ، موبخا ومذكرا وناصحا . ولكن القوم صاح بهم صائح الحرب فلم يلتفتوا الى صوت أبي جعدة الفزارى ، الذى ضاع بين الأصوات العالية المنادية للحرب : وكان أبو جعدة قد حاول جاهدا رد حذيفة وصحبه عن لجاجه مع قيس فقال (١) :

آلَ بدرٍ دعوا الرهانَ فانّــا
قد مَللنا اللِجاجَ عندَ الرِهــانِ
ودَعوا المرءَ في فزارةَ جــارا
انَّ ما غــابَ عنكمُ كالعَيــانِ
ليتَ شعري عن هاشمٍ وحُصَيْنٍ
وابنِ عوفٍ وحارثٍ وسِنــانِ
حينَ يأتيهمُ لجاجُكَ قيســا
رأيَ صاحٍ أتيتَ أم نَشــوانِ

ثم يسقط أول قتيل من بني عبس ، وقد سبقه من ذبيان

(١) ابن الاثير ـ الكامل ١ / ٣٤٦

قتيل ، حتى شق ذلك على عنترة بما عرف من شجاعته وجلده ، فلم يشأ الا أن يبدى كرهه لهذه الحرب التى تبيد من غطفان العظيمة سراتها ورجالها فقال (١) :

فللّهِ عينا مَن رأى مثلَ مالكٍ
عقيرةَ قومٍ أن جرى فرسانِ

فليتهما لم يجريا قطّ غلوةً
وليتهما لم يُرسلا لرهانِ

وليتهما ماتا جميعا ببلدةٍ
وأخطاهما قيسٌ فلا يُريانِ

لقد جلبا حَيناً وحربا عظيمةً
تبيد سَراةَ القومِ مِن غَطفانِ

وصارت الفكرة عند الربيع بن زياد أكثر وضوحا ، عندما وجد نفسه مضطرا ان يخوض غمار هذه الحرب التي جفتها نفسه ، لكن بني بدر هم الذين أرثوا نارها وهاجوها مرارا حتى أصبح الى خوضها مضطرا . وكانت نفسه قبل ذلك تتوق الى الصلح ، ليتحد مع الذبيانيين لحرب هوازن قال (٢) :

---

(١) الاعلم : مختارات الشعر الجاهلي ٢ / ١٦٥ شرح عبد المنعم خفاجي .

(٢) المفضل بن سلمة - الفاخر ص : ٢٢٤ وابن عبد ربه - العقد ٣ / ٦٨ .

فانْ تلكُ حرُبكم امَست َعوانا فانّى لم اكن ِممّنْ َجناها
ولكن ولد سورةَ ارَثوها وَحشّوا نارَها لِمنْ اصطلاها (١)
فانّى غيرُ خاذلِكم ولكنْ ساَسعى الآنَ اذ بَلَغتْ َمداها

ويظل موقف الربيع على حالته في قبول الحرب كرها لا عن رغبة ، حتي وضعت الحرب اوزارها ، ولو لا أنفته من الضيم والخسف لما خاضها . وقد وضح هذا المعنى قوله (٢) :

ُكنْ مثلَ مولاكَ اذ قالَ الِمليكُ له
حذيفةُ الخيرِ قولا غيرَ تعذيرِ
الحربُ أحلى اذا ما خفتَ نائرةَ
من المقامِ على ذلٍ وتصغيرِ
َفأذنْ بحربٍ ُيغصُ الماءُ شارَبها
أو أن ندينَ على احدى التحاضيرِ (٣)

وعندما امتد أمد الحرب ، وطال زمنها ، وصارت عبس في حال تفرق وتشتت ، مضى قيس على وجهه ، يحمل ذكريات تاجه المحطم ، فلم يشأ الربيع بن زياد الا أن يعود مرة أخرى ، الى أن يندد بهذه الحرب وبقيس بن زهير الذي ضرمها ومضى ،

---

(١) ارثوها هيجوها

(٢) البحترى ـ ديوان الحماسة ص ٢٢

(٣) أى ان تقبل احدى المصيبتين الذل او الحرب

فقال (١) :

خَرَقَ قيسٌ عليَّ البلادَ حتى اذا اضطرمتُ أجذَما (٢)
جَنِيَّةُ حربٍ جناها فما تَفرَّجُ عنه ولا أُسلِما

وقيس بن زهير نفسه ، ليس أقل من الربيع ذما للحرب ، وترغيبا في السلم ، ويحدث له هذا أثر حادثة تهدر من قومه ، أو عند صفاء نفسه وسكونها ، حيث يعيد الى ذهنه ذكريات الأصدقاء القتلى فيقول (٣) :

لحا اللهُ قوما أرثوا الحربَ بيننا
سقَونا بها مُرا من الشربِ آجنا
وحرملةَ الناهيهمُ عن قتالنا
وما دهرَهُ الاّ يكونُ مُطاعنا

وكم من صرخة انطلقت بها حنجرته ، قبل أن يشتد القتل فذهبت أدراج للرياح ، فمن ذلك قوله ، يدعو الأقوام كلها من أبناء بغيض ، الى مراجعة السلم ونبذ الحرب (٤) :

فيا ابنَيْ بغيضٍ راجِعا السِّلمَ تَسلما
ولا تُشمتا الأعداءَ يفترقِ الشملُ

---

(١) المفضل الضبي - أمثال العرب ص ٤٠

(٢) أجزما اسرع بالهرب

(٣) المفضل الضبي - أمثال العرب ٣٩

(٤) المفضل بن سلمة .. الفاخر ص ٢٢٢

وان سبيلَ الحربِ وعرٌ مُضِلّةٌ

وانَّ سبيلَ السِّلْمِ آمنةٌ سهلُ

ويظل التعقل طابع شعرهم ، حتى ساعة خرق الهنود وتعرض الصلح للخطر ، وحين تلوح نذر الحرب مرة أخرى ، فيصدر الانذار على لسان حيان بن حصين العبسي : ولكنه انذار غلبت عليه الروية والحكمة (١) :

سالمَ اللهُ مَنْ تبرأ من غيظٍ ووَلِيَ آثامَها يربوعا

فقتلونا بعدَ المواثيقِ بالسُّحمِ تراهُنَّ في الدماءِ كروعا

ان تُعيدُوا حربَ القليبِ علينا تجِدُوا أمرَنا أحذَّ جميعا (٢)

وان الأمر ليغدوا أكثر اتجاها نحو تكريس هذا الكره ، وايقاظ الرغبة في صلح دائم ، ذكره الربيع بن ضبيع الفزارى حين قال (٣) :

حذارِ حروبَ الاقربينَ وانَّهُ

ليأتي افتلاتا وجهَ كلِ صباحِ

أخاكَ أخاكَ انَّ مَنْ لا أخاله

كساعٍ الى الهيجا بغيرِ سلاحِ

---

(١) المفضل الضبي - أمثال العرب ص ٤٢

(٢) أى اننا نجمع امرنا بسرعة كبيرة

(٣) وهب بن منبه - التيجان ص : ٤٢٥

وانَّ ابنَ عمِ المرءِ - فاعلمْ - جَناحُهُ
وهل ينهضُ البازى بغيرِ جَنَاحِ

وحديث عنترة الطويل في الحرب ذو شجون ، وحديث زهير في السلم والصلح أكثر شجونا ، ولنا اليها في الفصل القادم عودة :

* * *

رابطة الدم والرحم :

ذكرنا في الفصول السابقة علاقة القرابة بين الفريقين المتحاربين ، فكان لهذا النسب الواحد المنحدر من دوحة غطفان العظيمة ، ذات الفروع الكبيرة المتشعبة ، أقوى الأثر في توجيه حديثهم نحو فكرة قدمت لهم خدمة كبيرة وساعدت في الصلح وأعانتها في ذلك نار العصبية المتقدة في دم الأخوة المتقاتلين .

وقد عرفنا أن ذبيان نفسها ، كانت في حرب أخرى مع الغساسنة ، من أجل حدود مشتركة بينهما ، يعاونها حليفاها من أسد وتميم ؛ وكان من الخير لذبيان ، لو أن عبسا ذات القوة والمنعة كانت تقف الى جوارها في صد غارات الغساسنة : ولكن ظروفا شائكة ومعقدة حالت دون ذلك ، وقد أشرنا اليها في مواضعها : فكان الشعراء من طرفي النزاع ، يعيدون الى الأذهان

روابط القرابة والرحم ، بعضهم يذهب الى تأنيب قومه لخسرانهم هذه القوة العظيمة ، ومن ذلك أبيات النابغة الى قومه يؤنبهم فيها على ترك عبس لأرضها ، وانضمامها الى بنى عامر حيث جبال « الدماخ وأظلم » فلم يبق لذبيان بعدهم أخ ، وأى اخ ، انهم جمع هائل يبدون على البعد مثل جبل ابيض الحجارة ترف على جانبيه روحان عظيمان ، روح زهير ملك غطفان الراحل وروح أخيه حذيم : وهم يقفون في انتظار الموت للقائه عندما يكون في ورود الموت عز وكرامة (١) :

أبلـغْ بنى ذبيانَ الاّ أخا لهم
بعبسٍ اذا حلّوا الدماخَ فاظلما
بجمعٍ كلونِ الأعبلِ الجَوْنِ لونُه
ترى في نواحيه زُهيرا وحِذْيَمَا (٢)
همُ يَرِدُونَ الموتَ عنـدَ لقائه
اذا كان ورد الموتِ لابدَّ اكرما

وتتجلى فكرة الأخوة بشكل أعظم وأروع ، بل وأوضح ، في المقطوعة التي بلغت ثمانية أبيات ، قيلت في هذا الغرض الذي ذكره النابغة ، غير أن قائل الأبيات هو الربيع بن ضبيع الفزارى ، من ذبيان أيضا :

(١) ديوانه ص ٢١٤

(٢) الاعبل الجون : جبل أبيض الحجارة

وقد اشتهر من بين الساعين في الصلح . وقال أبياته مخاطبا الحيين وجها لوجه بخلاف النابغة حيث بعث بها من مكان بعيد ، وهو يخاطب عبسا باسم قبيلته ذبيان ، ويعبر عن فداحة الغرم الذى يلحق بذبيان عند فراقهم ، ويحذر من هذه الغارات التي تأتي افتلاتا عند كل صباح ، وهم اخوة . ويخاطب بنى عبس فيقول : « وان حربنا معكم يعنى تركنا نذهب لملاقاة أعدائنا بلا أخوة ، والذاهب الى الحرب بغير أخ كالساعي اليها بغير سلاح ، وان الأخ جناح أخيـــه ، فهل ينهض البازي بغير جناح » ، ثم يمضي في مواعظه وعبره يستلهمها من الماضي مقرونة بالأمثال ، فيقول (١) :

على حَرجٍ يا عبسُ أضحى أخوكُمُ
وبتُّ على أمــرٍ بغير جَنَــاحِ

ويستمر في أبياته الى أن يقول :

لنا عِظَةٌ في الذاهبينَ وعِبــرَةٌ
تُفيدُ ذوِى الألبابِ أمرَ صلاحِ

أما قيس بن زهير ، فهو الآخر يضرب على وتر القرابة من جانب يخالف ما رأيناه قبل قليل : فهو لا يعاتب قومه كما فعل النابغـة الذبياني ، ولا يجامل خصومه كما جاء في مقطوعة الربيع ابن ضبيع ، وانما يهاجم سنان بن أبي حارثة من مرة ، وهو

---

(١) وهب بن منبه - التيجان ص ٢٢٥

الذي ما انفك يؤلب فزارة على عبس ليتقاتلا ، ثم لا يلبث قيس أن يذكر الأطراف المتحاربة من عبس وذبيان بوحدتها ووجوب العودة الى السلم حتى لا يشمتوا خصومهم (١) :

يَوَدُّ سِنانٌ او يحاربُ قومَنا
وفي الحربِ تمزيقُ الجماعةِ والأزلُ
يدِبُّ ولا يَخفَى ليُفسدَ بيننا
دبيبا كما دبّتْ الى حِجرِها النملُ

ويلاحق غلاق بن مروان الطرفين ، ويحملها مسئولية قطع الأرحام ، ويعـير العبسيين بولاة رئيسهم للأعاجم ، وذبيان بسقوطها من عزها فراحت لاهمَّ لها سوى ضرب الجماجم ، وقد ساءت مقالتهم بين العرب ، حتى صار أبناء زهير بن جذيمة لا يدعون إلا الأشائم (٢) :

همو قطعوا الأرحامَ بيني وبينَهم
وأجروا اليها واستحلّوا المحارما
فياليتَهم كانوا لأخرى مكانها
ولم تَلدي شيئاً من القومِ فاطما
فما تَدعي من خيرِ عدوةِ داحسٍ
فلم تَنجُ منها يا ابنَ وبرةَ سالما

(١) المفضل بن سلمة ـ الفاخر ص ٢٢٢

(٢) ابو تمام ـ الحماسة (المرزوقي) ١ / ٤٥٤

شأمتم بها حيّي بغيض وغربت
أباك فأودى حيث والى الاعاجما
وكانت بنو ذبيان عزا واخوة
فطرتم وطاروا يضربون الجماجما
فأضحت زهير في السنين التي خلت
وما بعد لا يدعون إلا اشائما

ويتطرق شبيم بن خويلد الفزارى ، بعد انتكاس الصلح ، الى تأجيج عاطفة القرابة التي ما تزال متقدمة في النفوس ، ثم يعنّف قومه ، ويشتد باللوم عليهم ، ويدعوهم الى تذكر القرابة والجوار والآلاء والذم ، لأن القتيل ابنهم وجارهم ، ومقتله فعلة شنعاء شيبت الأصداغ واللمم (١) :

يا قومنا لا تغرّونا بمظلمة
يا قومنا واذكروا الآلاء والذمما (٢)
في جاركم وابنكم اذ كان مقتله
شنعاء شيّبت الأصداغ واللمما
عنّى المعهود بها والعائدون فلم
يوجد لها غيرنا مولى ولا حكما

ثم يختتم أبياته ، مؤنبا قومه في حصين بن ضمضم ، الذى

---

(١) المفضل الضبي - أمثال العرب ص ٤٣ وابو عبيدة .. النقائض ١٠٦/١

(٢) أي لا تخدعونا وتجرؤنا على الظلم

بسبب فعلته ، تحاول عبس وذبيان أن تملئا الآفاق دما ، ثم يأمر قومه من ذبيان أن يؤدوا ما ترتب بذمة حصين ، وينذرهم ان هم لم يفعلوا شيئا ، بأن حربا ستحرق الجــزل والضرم ، وسوف تندلع بينهم :

إنْ أجــارَ عليكم لا أبا لــكمُ
حصنٌ تقطّرُ آفاقُ السّماءِ دَما

أدّوا ذِمامةَ حصنٍ او خذوا بيدٍ
حربا تَحشُّ الوقوَدَ الجزلَ والضَرما

ويدخل النابغة الذبياني الى الموضوع من زاوية أخرى ، عندما أسرفت عبس في القتل ، وأمسكت ذبيان بالقتله فقتلتهم ، فردا بفرد ، وبيتا ببيت . وألقى تبعة تمزيق الرحم على العبسيين لأنهم ، قبل غيرهم ، فرطوا فيها ، فلم يعرفوا للقرابة حقها (١) :

صبراً بغيَض بنَ ريثٍ انهــا رَحِمٌ
حُبتم بهــا فانا ختكمُ بجعجاعِ (٢)

والى جـانب هـذه القصائد والمقطعات ، ترد أبيات مفردة تشير الى هــذه الفكرة . وسأكتفي بالاشارة الى مواضعها التي وردت فيها (٣) :

---

(١) ديوانه ص ٢١٤

(٢) تنظر الابيات فى المصدر السابق

(٣) المفضل الضبي ص٤٣ والابيات لمعقل بن عوف و ص ٤٢ والأبيات =

التهديد والوعيد :

هذا الغرض كثير الورود في الشعر الجاهلي ، وعلى الأخص شعر الحرب ، ويكاد لا يخلو منه شعر شاعر ، حتى أنه أصبح من تقاليد الحرب ، أو خصومات الأفراد بنوع خاص : وهو يأخذ صورا وألوانا بحسب الحالة التى يرد فيها ، وبموجب الطابع الذي يتصف به شعر الشاعر ، فهو تهديد مباشر أحيانا من الخصم الى مناوئيه ، أو من القبيلة الى أعدائها ، وأحيانا من زعيم أو حكيم الى أبناء قبيلته أو قومه . وأكثر ما يقترن هذا التهديد بقسم : وقد يكون التهديد والوعيد موضوعا قائما بذاته في قصيدة أو مقطوعة . وربما يتوزع بين أبيات القصيدة مستقلا عن أغراضها الأخرى . وكل تهديدهم ينحصر في توعد الجاني بمصير يشبه المصير الذي أوقع فيه المجنى عليه أو بعاقبة أسوأ منها :

في يوم « شعب جبلة » عندما سقط لقيط بن زرارة قتيلا ،

= لابن عنقاء الفزاري ، وورد فى حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي ١ / ٢٠٣ أن قيسا ندم على فعلته عندما قتل حذيفة واخاه حملا وهما من نسبه قال :

شفيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفانى

فان اك قد بردت بهم غليلي فلم أقطع بهم الا بنانى

جعلت بنو عبس تمر عليه بفرسانها يضربونه وهو ميت فقالت دختنوس ابنته (١) :

ألا يا لَهـا الويلاتُ ويلةُ مَنْ بكى
لضربِ بني عبسٍ لقيطا وقد قضى

لقـد ضربوا وجهـا عليـه مهـابةٌ
وما تحفلُ الصُّم الجنـادلُ من رَدى

وتظل ماضية في وصف هذا المشهد حتى تصل الى تهديدهم فتقول :

فانْ تعقبِ الايـامُ من عامرٍ يكنْ
عليهم حريقـا لا يُرامُ اذا سمـا

ليَجزيهُمْ بالقتلِ قتـلا مضعَّفـاً
ومافي دماءِ الحمسِ يا مالُ مِنْ بوا (٢)

ولو قتلتنا غـالبُ كـان قتلهـا
علينـا من العـارِ المجـدعِ للعَلى

لقد صبرتْ للموتِ كعبٌ وحافظتْ
كلابٌ ومـا أنتم هنـاكَ لِمَنْ رأى

وتبقى هذه الصورة من التهديد جماعية تصدر من فرد باسم

---

(١) ابو عبيدة .. نقائض ٢ / ٦١٦

(٢) الحمس بنو عامر ، وبوا من باء الدم يبوء بالدية ، تقول : ان دماء الحمس يا مالك لن تبوء بدية بل بقتل مثله .

قبيلته الى للقبيلة المعتدية ، كما عند الربيع بن زياد يوم قتلوا مالك ابن زهير فيقول (١) :

ما ان أرى في قتله لذوي الحجا الا المطي تشد بالاكوار

ويصف مساعير الحروب ، يعتلون ظهور خيولهم مجدين في السعي لادراك دم مالك حتى يصل به القول الى التهديد :

يا رب مسرور بمقتل مالك ولسوف يصرفه لشر محار

ويحافظ قيس بن زهير على الصورة نفسها ، فينطلق تهديده الى فزارة ، باعتباره الممثل الرسمي لقبيلة عبس ، والمتحدث باسمها في كل المواضع والمجالات (٢) :

ان الهمادة لا هوادة بيننا
الا التجاهد فاجهدن فزارا
الا التزاور فوق كل مقلص
يهدى الجياد اذا الخميس أغارا

وهذا حنش بن عمرو يتوعد الحارث بن زهير العبسي ورهطه الذين تولوا قتل حذيفة وأخيه بعداوة لا تزول فيقول (٣) :

سيخبرك الحديث به خبير
يجاهدك العداوة غير آل (٤)

---

(١) المفضل الضبي - أمثال العرب ص ٣٠

(٢) المصدر السابق ص ٣٩

(٣) المصدر السابق ص ٣٥ (٤) الآل التعب

هُداتُها لقرواشِ بنِ عمروِ
وأنتَ تَجُولُ جوَلَكَ في الشمالِ (١)

وكان الحارث بن زهير قد افتخر عليهم بقتله فرسان ذبيان يوم « جفر الهباءة » (٢) :

وربما كان تهديدهم ووعيدهم متخذا أسلوب التذكير بوقائع سبقت لهم . ذلك ما فعل حيان بن حصن ، عندما قتل حصين ابن ضمضم أحد العبسيين ، فتجمعت القبيلتان للحرب فجعل حيان يذكرهم بحرب « القليب » وهو يوم « جفر الهباءة » الذي أصابت عبس فيه من ذبيان مقتلة عظيمة ، فقال (٣) :

ان تُعيدُوا حربَ القَليبِ علينا تَجِدُوا أمرَنا أحَدَّ جميعا

بعد هذا النوع من التهديد ، ذى الطابع القبيلي نأتي الى ذكر التهديد المنطلق عن أفراد ، وهو كثير يكاد يلازم كل قصيدة حماسية أو قصيدة رثاء . وغالبا ما يكون بعد رثاء القتلى الذين أبلوا في الحرب وجاء شاعرهم يرثيهم . فعندما أصاب الجزع عبسا على أثر مقتل مالك بن زهير ، وقفوا فأنشدهم عنترة مرثيته فيه ، وختمها مقسما أنه سوف يثأر له ثأرا تقر له عين مالك نفسه

---

(١) اى ان قرواش هو الذي قتلهم أما أنت فترسك بشمالك تجول به ولا تغنى شيئاً .

(٢) المفضل الضبي - أمثال العرب ص ٣٤

(٣) المصدر السابق ص ٤١

حين يراه (١) :

فسوفَ ترى ان كنتَ بعدكَ باقيا
وأمكنني دهـري وصولُ زمـاني

فأقسمُ حقـا لو بقيتُ لنظـرةً
لقرّتْ بهـا عينـاكَ حينَ تراني

وأسلوب القسم هذا يكاد يصبح صفة ملازمة لأغلب شعر التهديد في العصر الجاهلي . ولم يذكر عنترة المقسم به في أكثر شعره ، ففي البيت السابق ذكر الفعل أقسم وأحيانا الفعل « حلف » ومثل قوله (٢) :

حلفتُ لكم والخيلُ تردي بنا معا   نزايلُكم حتى تهرّوا العواليـا

لكنهم قد يغالون في قسمهم ، فيكثرون من أسماء الآلهة ، بعـد ذكر الله ، كما أقسم مهددا حصين بن عمرو ، وهو يرثي اخاه زهير بن عمرو ويتوعد عبسا وعامرا اللتين قتلتاه في معركة « الجبل » (٣) وقـد جمع الفعلين « أقسم » و « حلفت » :

أقسِمُ باللهِ بما حجّتْ بلِـي
وما على العزّى تعزّهْ غنِي (٤)

---

(١) ابن الاثير .. الكامل ١ / ٣٤٩

(٢) الأعلم : مجموع الشعر الجاهلي ٢/١٣٠ تحقيق عبد المنعم خفاجي

(٣) ابو عبيدة النقائض ٢ / ٦٦٧

(٤) بلي وغني قبيلتان عربيتان

وقد حلفتُ عندَ منحرِ الهدي

أُعطيكُمُ غيرَ صدورِ المشرفي

فليسَ مثلي عن زُهيرٍ يغني

هو الشُجاعُ والخطيبُ اللوذعي

والفارسُ الحازمُ والشهمُ الأبي

والحاملُ الثقلَ اذا ينزلُ بي

وفي شعر الحرب وعيد ، كالذي نراه في الشعر الجاهلي عندما يهـدد الشاعر مهجوه بقصائد تعلق به ، فيشتهر بها في العرب فمن ذلك قول عنترة (١) :

سيأتيكمُ مني وان كنتُ نائيا

دخانُ العلندَى حولَ بيتيَ مِذْودُ

قصائدُ من قيلِ امرىءٍ يحتديكُمُ

وأنتم بجمسي فارتدوا أو تقلدوا

وبعض الشعراء يبتغون من وراء وعيدهم لقومهم ، أو لغيرهم ، اعادة الأمن الى البلاد وتذكيرهم القوم بالتعقل والحلم كما فعـل شبيم بن خويلد الفزارى ، عندما خرق قومه بنود الصلح ، فطلب منهم أن يؤدوا ما بذمة القاتل ، وإلا فليأذنوا بحرب لا تبقي ولا تذر فقال (٢) :

---

(١) الاعلم ـ مجموع الشعر الجاهلي ٢/١٥٠ تحقيق عبد المنعم خفاجى

(٢) المفضل الضبي ـ أمثال العرب ص ٤٣

الان أجارَ عليكم لا أبا لكُـمُ
حصنٌ تقطّرُ آفاقُ السماءِ دَمـا

أدّوا ذِمامةَ حصنٍ او خذوا بيدٍ
حربا تَحشُ الوقودَ الجزلَ والضّرما

ولم نسهب في تقصى كل موضوعات هـذه الحرب خشية أن نطيل فنكثر . وقد حوت هذه المجموعة من أحاديث الحرب وما يتعلق بها من وصف المعارك والسلاح والخيل الشيء الكثير وفيها رثاء للقتلى ، يدخل في غالبيته ضمن شعر الفخر والحماسة واذا أردنا الحديث في الأغراض الشعرية التقليدية ، من هجاء ومدح وغزل وحكمة ، فان وجودها القليل لا يشجع على عقد موضوع خاص لكل منها ، وبخاصة الغزل ، فانه يكاد يكون في حكم المفقود ، الا ما ذكر في مقدمات القصائد وافتتاحياتها ، وهو غزل تقليدي : متكلف ، وأما غزل عنترة ، فالذي منـه في المجموعات الوثيقـة قليل لا تؤهله قلته أن يكون موضوعا وحده ، ولذلك لم نكترث له :

واذن ، فقـد تطرقنا الى الموضوعات الأكثر دورانا على ألسنتهم ، وفي أشعارهم : ولم نجد للاغراض التقليدية كالهجاء والمدح نصيباً نذكره : وحتى في حالة وجودها ، فهى أبيات قليلة جدا ، كما تشير بذلك مجموعتنا في شعر هذه الحرب :

* • *

شهوة الانتقام وحديث النفس :

لقـــد كانت حرب داحس والغبراء ، منـــذ نشوبها حتى ساعات الصلح الأخيرة ، سلسلة متصلة الحلقات من عمليات انتقامية ، فردية وجماعية . وكان الحقـــد الأعمى هو الدافع القوى لهذا القتل في أشكاله وصوره .

ويمكن القول أن الطرفين المتحاربين كانا تحت تأثير حالة نفسية معقدة ، ساهم في خلقها وانمائها عوامل كثيرة ، بعضها ذاتية ، والبعض الآخر اجتماعية ، بلغت ذروتها حدة وضراوة فانطلقت من عقالها مثل وحش كاسر يريد ان يدمر كل شيء يعترض سبيله . فمن أمثلة العوامل الذاتية ، ذلك الشعور الدفين في أعماق الأسياد من القبيلتين ، حول الزعامة والسيادة ، وقـــد ظل هذا الشعور متوارثا في الآباء والأبناء ، وظل الزمن ينميه ويعمقه ، حتى وجد متنفسه في نزاع تافه على فرسين متسابقين .

ولم تكن العلاقات التقليدية بمظاهرها الكاذبة توقف هذا الشعور أو تخنقه ، بل كان مستقرا في العقـــل الباطن او في اللاشعور ولا خـلاص لهم منـــه . وطبيعي أن هـــذا التحاسد والتباغض ، وشعور الحقد لم يكن لينهى أمره لقاء ودى مصطنع لأن السكوت على الخلافات ، ودفن جذورها دون اقتلاعها ،

يجعلها تنمو وتكبر مع الزمن ، وتصبح شرا وبيــلا يقود الى كارثة عظيمة ، وهو الأمر الذى وقع فيما بعد :

وأما العوامل الاجتماعية التى ساعدت على تنمية هذا الشعور فهى تتلخص في طبيعة العلاقات البدوية ، وما يهيمن عليها من عرف وعادات ، يقف على رأسها الثأر ، وألوان الصراع المستمر في صحراء شبه الجزيرة العربية من أجل الماء والغذاء :

والمجموعة الشعرية التي بين أيدينا لهـذه الحرب ، صورت حالتهم النفسية المعقـدة تصويراً واضحا ، مما يدل على أنهم لم يتركوا موضوعا من موضوعات هـذه الحرب الا تطرقوا اليـه وذكروه في شعرهم ، على الرغم من قلة هذا الشعر وضياع أكثره :

ولقـد ظهرت شهوة الانتقام في أشعارهم في صور مختلفة ، بحسب تناول الشاعر لها ، أو تلبسه بلبوسها . فهي عند الربيع بن زياد ، تأخذ طابع العتاب ، المتضمن أسلوب التهديد والوعيد ، فالعتاب موجه الى قيس بن زهير ، عندما صرف الربيع عن حرب ذبيان في « اليعمرية » ، والوعيد موجه الى الذبيانيين : : . وأى وعيد ! ؟ انه افناء تام ، حتى أنه لا يريد أن يبقى على أحد منهم : قال الربيع (١) :

---

(١) المفضل بن سلمة ـ الفاخر ـ ص ٢٢٥ وابن عبد ربه العقــد ٣ / ٦٩ والميدانى الامثال ٢ / ٦٠

أقــولُ ولم أملِكْ لنفسي نصيحــةً
أرى ما ترى والله بالغيــبِ أعلمُ
أتبقى على ذبيــانَ في قتــلِ مالكٍ
فقد حشَّ جاني الحربِ نارا تضرمُ

وكأنما اطلقت أبيات الربيع لسان قيس من عقاله ، فمضى بعد ذلك مرددا كل معاني الانتقام يرهب بها عدوه (١) ، حتى ان الربيع بن ضبيع أعطى الصورة المفزعة له ، يوم خاطب حمل ابن بدر الفزاري محملا اياه جناية قيس وولوغه في الدماء (٢) :

ألا ترى قيسا تأطتْ أسهمُهْ
يقتُلُ ذا الظلمِ ومَنْ لا يظلمُهْ

أما الرغبة في الانتقام عند عنترة ، فهي تأخذ صورة يتميز بها أسلوب الشاعر ، وربما كانت شجاعة هذا الرجل عاملا في رسم أسلوب انتقامه على هذا النحو الذي تصوره أبياته (٣) في المعلقة :

---

(١) انظر قصائده ومقطعاته في المواضع الآتية : المفضل الضبي - أمثال العرب ٣٩ - ٤٠ وابن عبد ربه العقد ٣ / ٦٩ والتبريزى على شرح الحماسة ٣ / ٢٤ والميداني - الامثال ٢ / ٦٠ الحماسة البصرية « باب الهجاء » .

(٢) وهب بن منبه - التيجان - ص ١١٩

(٣) شرح القصائد السبع الطوال - ابن الانبارى ص ٢٩٤

ولقد خشيتُ بأن أموتَ ولم تدُر
للحربِ دائرةٌ على ابني ضمضمِ
الشاتمَي عِرضي ولم أشتمْهما
والناذرَيْنِ اذا لم القَهُما دمي

وليس في وعيد دختنوس بالانتقام صورة جديدة ، مع أن انتقامها سوف يكون بالموت قتلا وبالفناء حرقا ، وما أظن أن وراء هذا الموت موت ! قالت (١) :

فان تُعقِبِ الأيامُ من عامرٍ يكن
عليهم حريقا لا يُرام اذا سما
ليجزيَهم بالقتلِ قتلا مضعفاً
وما في دماءِ الحمسِ (٢) يا مالُ مِن نوا

ولا أريد أن اطيل في ايراد النصوص ، فالأمثلة على ذلك كثيرة ، لكنني أريد أن أخرج الى النصف الآخر من هذا الموضوع ، لأنه متصل به اتصالا لازما ، وهو حديث النفس بعد اشباع شهوتهم من القتل والتدمير : ذلك أنني لاحظت أنهم بعد أن أدركوا غايتهم وقتلوا من شاءوا ، أصابتهم حالة نفسية أخرى تناقض الحالة الأولى :

ولعل هذه الحالة جاءت من تأثير عامل القرابة والنسب

(١) ابو عبيدة - نقائض ٢ / ٦٦٦

(٢) الحمس ، بنو عامر ، سموا بذلك لتشددهم فى أمر دينهم

الواحد. ولا غرابة في الأمر ، حيث أن التاريخ يحدثنا عن حالة خالدة يمكن أن نشبه بها كل الحالات المماثلة ، ألا وهي قصة قابيل وقتله هابيل أخاه ومن ثم اشفاقه عليه : وقد حدث مثل هذا « الاشفاق » في نفوس الاقوام المتقاتلة ، بعد أن روت غليلها من الدماء ، فانثنت تحدث النفس حديثا مؤلما نستشف منه ندما وحزنا عميقين :

وقد حفل شعرهم بهذا الحديث ، فانطلق شعراؤهم يذكرونه في اشكال متعددة تناسب المقام الذي قيلت فيه :

فعنترة مثلا مريض بعلة تدعى « الانتقام » وقد عثر لها على علاج يشفيها يوم قال له صحبه ساعة الهياج « أقدم » فقال (١) :

ولقد شفَى نفسي وأبرأ سُقمَها
قيلُ الفوارسِ ويكَ عنترَ أَقْدِمِ

لكن عنترة المنتقم يتشكك في شفاء نفسه أحياناً (٢) :

ألا هل أتاها أنّ يومَ عُراعِرٍ
شفَى سقما لو كانت النفسُ تَشتفِي

الا أن حالة الاشفاق هذه وشفاء النفس من مرضها بعد ارواء عطشها الى الدماء ، تظهر واضحة في شعر قيس بن زهير

---

(١) شرح القصائد الطوال ، ابن الانبارى ص : ٢٩٤

(٢) مختارات الشعر الجاهلي - الاعلم (تحقيق خفاجي) ٢/ ١٣٢ .

في قوله (١) :

شَفيتُ النفسَ من حَمَلِ بنِ بدرٍ وسيفي من حذيفةَ قد شفاني
فان أكُ قد بَردتُ بهم غليلي فلم أقطعْ بهم الا بَناني
قتلتُ باخوتي ساداتِ قومي وهم كانوا لنا حَلْيَ الزمانِ

وانظر الى قول عوف بن المنتفق بعد أن قتل لقيط بن زرارة في حرب « شعب جبلة » على زعم بني جعفر ، كيف انه ينتقم بسيف ابنه الذي قتلته تميم قبل اليوم فتصيبه حالة الشفاء فيقول (٢) :

ظلّتْ تلومُ لما بها عِرسي جهلا وأنتِ حليمةٌ أمسِ
ان تقتلُوا بكري وصاحبَهُ فلقد شفيت بسيفه نفسي
فقتلتُه في الشِعبِ أولَ فارسٍ بالشرقِ قبلَ تَرَجّلِ الشمسِ (٣)

وظلت هذه الحالة الجديدة في نفوس القوم ، تتكرر في أشعارهم (٤) ، حتى غدت مرضا جديدا خلف المرض السابق

---

(١) ابو تمام - ديوان الحماسة - شرح المرزوقي ١ / ٢٠٣

(٢) ابو عبيدة - النقائض ٢ / ٦٤٥

(٣) ترجل الشمس ارتفاعها

(٤) سوف اكتفي بالاشارة الى القصائد والمقطعات التي يكثر فيها ورود هذا الغرض ومن شاء فليرجع اليها : المفضل الضبي أمثال العرب ص ٣٨ والابيات المذكورة فيها منسوبة الى النابغة يرد بها على قيس بن زهير ، وليست في ديوانه ، والسجستاني كتاب =

وهو الانتقام ، ويمكن تسمية هذا المرض الجديد « بالاشفاق » او « الندم » : ولم يشفهم منه الا ارساء شروط الصلح بين الفريقين واطفاء ديات القتلى ، وعودة الحيــاة الى مجاريها الطبيعية :

وقبل أن نختتم الكلام في هـذا الموضوع الحيوى ، نود أن نبين ان طبيعة هـذه الحرب كلها بنيت على هذين الأساسين ، وهما الشهوة العارمة في الانتقام ، والندم الشديد على الاندفاع وراءها . وهما حالتان مرضيتان جديرتان بدراسة نفسية موسعة :

وقد اشتملت كلمة الحرب على هذه المعاني من ثأر وانتقام واقتتال اجماعي ، كما اشتملت كلمــة السلم على كل معاني الاشفاق ، والندم والصلح واطفاء ديات القتلى من جميع الأطراف :

• • •

مدى مواكبة الشعر لأحداث الحرب :

ظهر لنـا من مناقشة قصــة الحرب في الفصل الثانى ، أن الشعر الوارد فيها يقوم بمثابة تثبيت لأحداثها المختلفة ، وللرواة

= المعمرين ص ١٤٥ وابن الاثير الكامل ١/٣٥٣ وابن هشام السيرة ١ / ٢٨٧ ديوان الحماسة - ١ / ٢٠٣ والبكرى سمط اللآلىء ص ٥٨٣ والزمخشرى المستقصى في أمثال العرب ٣١٢ وابو على القالى - الأمالى ١ / ٢٦٢

يدللون به على صحة ما يزعمونه ، حتى انهم ليعمدون الى البيت من القصيدة ، يأتون به ، وفيه اسم الموضع من جبل أو ماء كان الطرفان اقتتلا قريبين منه ، او اسم الشخص الذي قتل او اسر فجعل شاعر القبيلة يفتخر على أعدائه بقتله او اسره .

ولم يكن للرواة من هم غير تقوية روايتهم بهـذا الشعر ، ولم تكن القصيدة او الشعر نفسه غايتهم بدليل أنهم كانوا يهملون مالم يكن له مع موضوعهم أية علاقة .

ولما لم يؤثر عن هـذه الأيام ديوان ، يجمع شعرها ، ولا كتاب يحفظ قصصها وأخبارها ، فضلا عن ضياع أكثر الشعر الجاهلي ، فقد أصبح عسيرا علينا أن نحصل على مكملات القصائد الناقصة ، او الأبيات ، والمقطوعات المذكورة في خبر الوقائع الحربية : والرواة معذورون عندما لم يذكروا القصيدة كلها ، مكتفين بالشاهد أو موضعه ، ذلك لأنهم لو فعلـوا ، لبلغت مصنفاتهم المجلدات الكبيرة ولم يغادروا من الأيام الا بضعة وقائع نظرا لوفرة الشعر فيها :

هذا بالاضافة الى أن متممات هذه القصائد والمقطعات التى أهملوها ، ولم يذكروها ، كانت موجودة ومألوفة ومتداولة زمن رواية الخبر . ولو عرف الرواة أن هذه القصائد في طريقها الى الضياع ، لكان موقفهم من شعر هذه الحرب مختلفا : وقد حاولت أن أعود الى جميع الـدواوين ، والكتب التي ضمت المجموعات

الشعرية ، فلم أظفر بطائل سوى بعض قصائد لعنترة في مجموعته الشعرية ، وبعض أبيـــات تزاد على بعض القصائد في قسم من الروايات ، وهي زيادة لا تغني شيئا . وقد فسرت لنا هذه الظاهرة أسباب ذيوع المقطوعة في شعر الحرب واريد بها ظاهرة الاستشهاد من جهة ، وضياع الشعر من جهة أخرى :

وظهر لنا أيضا من مناقشة الشعر ومصادره وتوثيقه ، أننا استطعنا أن نحصر مجموعتنا الشعرية في دائرتين : وبتعبير آخر ، أننا جمعنا شعر هذه الحرب من مظانه عن طريقين ، الأول قصة الحرب ، وأمرها ميسور ، لا يحتـاج الى كبير عنـاء ، والآخر كتب المجموعات المختلفة ، في الثقـافة العربية القـديمة ، وخاصة الدواوين وشروح القصائد ، وهو الذي احتاج الى عناء كبير : وطبيعي أننا لم نكن نأخذ البيت أو المقطوعة أو القصيدة ، دون اشارة صريحة من راويها أو متن القصيدة نفسها ، أنها قيلت في الواقعة الفلانية أو في أسر فلان أو قتله . وكم من القصائد تركنا لأن الاشارة فيها غير صريحة . ولكننا اعتبرنا القصيدة في الحرب على الرغم من عدم نص الراوية على ذلك ، اذا ظهر لنا في متن القصيدة أشخاص ، أو مواضع أو معارك تخص هذه الحرب :

ومع قلة هذا الشعر ، واهمال رواة القصة لأكثره ، وندرته في المجموعات الشعرية والأدبية واللغوية وغيرها ، فاننا استطعنا أن نسد بعض ثغرات الرواية : وبقي قسم كبير من الأحداث ،

يعوزه الدليل الشعري أو يفتقر اليه . ولكننا لم نتعسف فنعتبر أن مالم يرد فيه شعر ليس من الواقع التاريخي بشيء . وذلك لأن ادانتنا له مردودة بضياع شعر الجاهلية ، وقد يكون هذا مع الضائع من شعرها . فاذا كان ذلك كذلك ، فان الشعر المواكب للأحداث لم ينل لدينا درجته القطعية من الحكم ، لأن براءته مشوبة بالشك الحائم حول بعضه . وهو السبب الذى من أجله عقدنا الفصل الثالث ، حيث ناقشنا المصادر المختلفة والروايات العديدة ، ووثقنا الشعر الوارد فيها .

والحقيقة التي انتهى بنا البحث اليها ، وينتهي اليها كل متتبع لشعر هذه الحروب الأهلية في الجاهلية تؤكد مواكبة الشعر للحرب ووقائعها منذ البدء حتى ساعة الصلح ، وان ظلت آثارها على ألسنة الشعراء حتى بعد الاسلام ، عندما قامت العصبيات القبلية من مقابرها في أول حكم الامويين ، لتكون مبعثا لخصومات نتيجة هجاء أو ذم بين أفراد معدودين . لكن هذه المواكبة الشعرية لحرب داحس كانت تشتد أحيانا وتضعف أحيانا .

ولسنا نرد ذلك الى تصاعد الحركة الشعرية أو الأدبية في مرحلة من مراحل الحرب وهبوطها في مرحلة أخرى . ذلك لأن شعراء الحرب واكبوها طوال أعوامها الأربعين ، ولا يعقل أن عواطفهم كانت تخمد مرة واحدة وتلتهب مرة واحدة . ولكننا نرد تفاوت الشعر ومواكبته الى الرواية والرواة حيث كثرت

رواية شعر في يوم معين وقلت في يوم آخر :

وقد رجح عندنا أن أول أبيات وصلت الينا في قصة هذه الحرب تلك التي خرج بها أبو جعدة الفزاري على القوم ساعة الرهان وأول السباق وابتداء اللجاج على السبق حيث تجاريا وصار كل طرف يزعم لنفسه الحق في السبق فقال (١) :

آلَ بدرٍ دَعوا الرهانَ فأنّا قد مَلَلْنا اللجاجَ عندَ الرهانِ
ودَعوا المرءَ في فزارةَ جارا انَّ ما غابَ عنكمُ كالعَيانِ

وعندما اشتعلت الحرب كانت كلما حمى وطيسها حمى أوار الشعر فيها واشتد اتقاده ، قال قيس بن زهير وكان حمل بن بدر لطم فرسه (٢) :

وما لاقيتُ من حَمَلِ بنِ بدرٍ واخوتهِ على ذاتِ الأَصادِ
هموا فخروا عليَّ بغيرِ فَخرٍ وردّوا دونَ غايته جَوادي

وكثر القول في هذه الحادثة حتى سقط من القوم أول قتيل وهو مالك بن بدر فرثته ابنته بقولها (٣) :

اذا هتَفَتْ بالرَقمتين حمامة أو الرّسِ تبكى فارسَ الكُتفانِ
أحلَّ به أمسِ الجُنَيدبُ نَذْرَه وأيُّ قتيلٍ كانَ في غَطَفانِ

ثم تثأر ذبيان لمالك بن بدر ، فتقتل به مالك بن زهير العبسي ،

---

(١) ابن الاثير ـ الكامل ١ / ٣٤٦

(٢) المفضل الضبي ـ ص : ٣٢

(٣) المفضل الضبي ص ٣٣

فيرثيـه أخوه قيس ، ويرثيـه عنترة ، ويرثيه الربيع بن زيـاد العبسي (١) . وعلى الطرف الآخر ، تبرر ذبيان القتل على شريعة للثأر السائدة في الجاهلية ، والتي تلقى رهبة من الجميع واحتراما فقال شاعرهم (٢) :

قَتلنَا بعوفٍ مالكا وهو ثأرُنا فان تَطلُبو مِنا سوى الحقِ تَنَدمُوا

وتنطلق قافلة الشعر بسير ركبها مع ركب الحرب : وحادثة مالك بن زهير العبسي أعطت الدليل على نشاط حركة الشعر في هذه الحرب ، ومواكبتها لأحداثها : وفي القصة ، حاول الرواة والمؤرخون أن يسلسلوا الاحداث ، وأن يستشهدوا لكل واقعة بما يوافقهـا ويوثقهـا من شعر ، فحالفهم التوفيق في أكثرها ، واختلفت الأحداث في بعضها : ولكن الملاحظة العامة أن أكثر وقائعهم رافقها شعر ، وهذا الشعر يتفاوت في كثرته وقلته من واقعـة لأخرى : في يوم «جفر الهباءة» أوردت المصادر أكثر من قصيدة قالها الشعراء في مواقف مختلفة من هذه المعركة (٣) ،

---

(١) المصدر السابق ٣٩ وابو عبيدة ـ النقائض ١ / ١٠٢ والأعلم : مختارات الشعر الجاهلي ٢ / ١٤٥ شرح عبد المنعم خفاجي .

(٢) ابن هشام السيرة ١ / ١٨٦ وابن الاثير ـ الكامل ١ / ٣٤٩ . وعند ابي عبيدة النقائض أن القتيل مالك بن بدر ١ / ١٠١ والمفضل الضبي ص ٣٤ :

(٣) المصادر السابقة

ولم يرد عن وقعة «شعواء» مثلا شعر يذكر :

والواقع أن للقول في مواكبة الشعر لأحداث الحرب أمر يكاد الحكم فيه يكون ضربا من الأحكام التي لا تخلو من سرعة لأن في شعر الحرب ملاحظة يجب أن نلتفت اليها لكي نتحاشى السرعة في تثبيت الحقائق التاريخية ، غير المستندة الى الواقع من جهة ، والى التحقيق العلمي من جهة ثانية :

وهذه الملاحظة ، أن هذا الشعر ربما يكون قد قيل في غير مناسباته ، وربما يكون مواكبا للمناسبة وفي حينها : ولكن الذي لا نشك فيه ، أن هذا الشعر كان مع الحرب منذ بدئها حتى يوم الصلح واستتباب السلم . وقد مثلنا ليوم الرهان وأول ثأر يُدرك وسوف نرى أن كل موقعة حربية ، لها ما يسندها من الشعر ، عند الكلام عن الواقع التاريخي والشعر ، في السطور القادمة . وقد تحدثت عن واقعـة « جفر الهباءة » وكثرة الشعر فيها ، واعود اليها فأقول ، انني أحصيت لهذه الواقعة احدى عشرة مقطوعة غير التي قيلت في زمان متأخر عنها (١) .

---

(١) ابو عبيدة - النقائض ١ / ٩٦ ابن هشام السيرة ١ / ٢٨٧ المفضل ابن سلمة ابو تمام الحماسة المرزوقي ١ / ٢٠٣ الفاخر ص ٢٨٨ البحتري ديوان الحماسة ص ٢٣٣ الاغاني ١٧ / ١٣٩ السيد المرتضى الامالي ١ / ٥٣٠ ابن عبد ربه ٣ / ٧٠ السجستاني المعمرين ص ١٤٥ الميداني مجمع الأمثال ٢ / ٦٢ ابن الاثير - الكامل ١ / ٣٤٦ .

على أن الصفة الغالبة في هذه الحرب ، هي مواكبة الشعر لأحداثها حتى النهاية ، حيث انطلق صوت زهير بن أبي سلمى يبارك بشعره هذه النهاية الرائعة في اطارها الانساني : وذلك عندما انتصرت صيحة الحق ، وعادت الحياة الى طبيعتها في هذه الرقعة من ارض العرب بعد صراع دموي دام أربعين عاما :

* * *

مطابقة شعر الحرب للواقع التاريخي :

عنينا بالواقع التاريخي ، مجرى الأحداث في اطار القصة التى جاء بخبرها الرواة والمؤرخون ، ومع أن الرواية والمؤرخ ، يحاولان أن يطابقا بين الحادثة والشعر . إلا أننا جعلنا نبحث من خلال الوقائع عن أخبار عسى أن تناقض الرواية ، فلم أجدها الا قليلة نادرة ، ولعل السبب أن حرب داحس اعتبرت من الأيام التى جاء خبرها كاملا ، او شبه كامل ، وتسلسلها منتظم تقريبا ، وان كانت مختصرة كما في الفصل الثاني :

هذا الى جانب ان الراوية يبغى من مطابقة الشعر للحادثة تثبيت خبره ، لأن الشعر كالبينة في يد الراوي ، فاذا ما حاولنا مطابقة الشعر للواقع التاريخي ، فانما نفعل شيئاً حاوله الرواة من قبل وحـذا حذوهم المؤرخون : ومانفعله نحن الآن ليس إلا

تمحيص اعمالهم .

وقد مر بنا في « مواكبة الشعر للحرب « ان الحادثة كانت تقع ، فيرتفع لهـا صوت الشعر مؤججا روح الحماسة أو داعيا الى التعقل والحلم : ولكنه في كلا اتجاهيه كان مؤرخا ، فحفظ للغة مفرداتها وللتاريخ بعض احداثه ، ولا عجب فانه « كان علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » :

لكن الشعر مهما بلغت وفرته او ندرته ، لا يستطيع أن يحدد للاحداث تاريخاً بصورة ثابتة ودقيقـــة ، وان استطاع ان يثبت واقعها التاريخي ، وما أكثر اختلاف المصادر حول زمن الحادثة المعينة : واقرب مثل الينا في حرب داحس ، اختلافهم في اول وقعة للقوم ، حيث يذكر المفضل الضبى (١) ، ان اول وقعـــة لهم « يوم المعنقـــة » ، قتل فيها عوف بن بدر ، ويذكر ابياتاً نسبها لابنة عوف ، ومثل هذا الخبر عند ابي عبيدة (٢) وابي الفرج الأصفهاني (٣) :

وأما ابن الاثير (٤) فقد أطلق على أول يوم لهم اسم « يوم العنق » قتل فيـه عوف بن بدر ، ولم يثبت واقع روايته بشعر :

---

(١) أمثال العرب ص ٢٣

(٢) النقائض ١ / ٨٣

(٣) الاغاني ١٧ / ١٢٣

(٤) الكامل ١ / ٣٤٣

وأما المفضل بن سلمة (١) ، فان أول وقعة لهم عنده ، هي وقعة « ذي المريقب » ومثل هذا عند ابن عبد ربه (٢) ، ودعما روايتيهما بقول عنترة :

ولقد علمتَ اذا التقتْ فرسانُنا بذي المريقبِ ان ظنلكَ أحمقُ

لكننا بالرجوع الى الأعلم في مجموعته للشعر الجاهلي (٣) ، نجد رواية البيت على هذا الوجه :

ولقد علمتَ اذا التقتْ فرسانُنا بِلوى النُجيزةِ أنّ ظنكَ أحمقُ

وهي رواية الاصمعي وآخرين : ومع أننا لم نعثر خلال دراستنا لهذه الحرب على يوم فيها باسم « لوي النجيزة » لكن كلام المفضل بن سلمة وابن عبد ربه في اعتبار أول يوم باسم « يوم المريقب » أصبح موضع نظر . فاذا قلبنا صفحات ديوان الحطيئة عثرنا على مقطوعة بخمسة أبيات ، قال الشارح عنها أنها قيلت « يوم قرابين » وهو يوم قتل فيه عوف بن بدر وكان أول قتيل قتل في حرب داحس (٤) :

سالتْ قرابينُ بالخيلِ الجيادِ لكم مثلَ الأتيّ زفاهُ اليمُّ فانفعما (٥)

---

(١) الفاخر ص ٢٢٤

(٢) العقد الفريد ٣ / ٦٩

(٣) مختارات الشعر الجاهلي - الاعلم ٢/١٥٥ شرح عبد المنعم خفاجي .

(٤) ديوان الحطيئة ص ٦٠

(٥) زفاه : استخفه . فانفعما : امتلأ . والآتي السيل الغريب يأتي الأرض ولم يصبها مطره .

حتى حَطَمنا بأولى حَدِّ شَنبكها

عوفَ بنِ بدرٍ فلا عوفٌ ولا إرَما (١)

وهـذا يعني ، أن الشعر ، وان جاء مثبتا للواقع التاريخي ومطابقا له ، لم يحدد لنا مراحل الحرب بحسب تطورها الزمني : ونحن لا نملك الا أن نستقرئ الحوادث وفاق ورودها في المصادر لكي نقر حقيقة ما ، بعد طول تتبع وأناة .

والواقع أن أكثر أيام الحرب وردت مشفوعة بالشعر : وقد مضى الحديث عن أول الرهان في الصفحات السابقة ، والحديث عن أول وقعة . ولم يبق الا أن نورد من الشعر ما طابق الواقع ، خلال قصة الحرب المبسوطة في المصادر ، ثم نحاول أن نأخذ من المصادر التي لم تورد القصة بل اكتفت بنتف من أخبارها ، أسماء الأيام الواردة فيها ، لنسد فراغ القصة من الشعر ، لكي تستقيم لنا الوقائع مع أشعارها .

بعد أول وقعة لهم ، وقعت معركة « ذي حسى » وهي في جميع المصادر بهذا الاسم ، واتفق الرواة على أن الغلبة فيها لذبيان على عبس ، لكننا لم نعثر لها على ذكر في أشعارهم : أما الوقعة التي أعقبت وقعة « ذى حسى » فهي « اليعمرية » وكانت عبس قد أدركت الذبيانيين ، وهم يقتلون الصبية الرهائن ، وقد ذكرها في شعره أحد حلفاء عبس من بني عبد الله بن غطفان ،

(١) يقول ذهب عوف كما ذهب إرَمَ

وقد أورده البحتري في حماسته (١) . وجاءت معركة « جفر الهباءة » المشهورة وقال الشعراء فيها وأكثروا (٢) ، و « ذات الجراجر » ولم يؤثر فيهـا شعر مـذكور لكننا نجـد في الوقعـة التـالية قول عنترة (٣) :

ألا هَل أتاها أن يومَ عُراعِرٍ شفى سقمًا لو كانت النفسُ تَشتفي

وكان النصر في هـذه الوقعة لعبس على كلب وذبيـان ، بخلاف ما ذكره ابن الاثير ، حيث زعم أن النصر كان لفزارة (٤) : واتفق المؤرخون على تحديد تاريخ هذه المعركة ، فجعلوها بعد وقعة « جفر الهباءة » عندما أجلت الحرب عبسا عن أرضها في غطفان . والحروب كثيرا ما تجلي القبائل عن أراضيها الى مناطق أخرى من شبه الجزيرة ، الأمر الذي كان له أثره في توحيد لغة العرب ، وخاصة لغـة الشعر . والذي اختلفوا عليـه هو النصر والخسارة : فقد ذكر المفضل الضبي ، أن الوقعة كانت على ماء لقبيلة كلب يدعى « عراعر » (٥) وكانت ذبيـان أعانت كلبا ، ولكن عبسا قتلت من كلب زعيمها مسعود بن مصاد الكلبي الذي

(١) مختارات الشعر الجاهلي .. الاعلم شرح عبد المنعم خفاجي ص ٧٣ .

(٢) تنظر الصفحة ١٠٨ من هذا الفصل

(٣) الاعلم : مختارات الشعر الجاهلي ٢ / ١٣٧ شرح عبد المنعم خفاجي .

(٤) الكامل ١ / ٣٥١

(٥) امثال العرب ص ٣٥ ـ ٣٦

ذكره عنترة في القصيدة نفسها :

وَغادَرْنَ مسعوداً كأنَّ بِمَنْحِرِهِ شقيقةَ بُردٍ في يَمانٍ مُفَوَّفِ

وانتصرت عبس . أما ابن الأثير فيقول ، وكانت الخسارة في عبس ورجعت ذبيان سالمة (١) ، واذن ، فالتاريخ الذي يدونه المفضل الضبي مؤيد بالشعر الثابت ، حيث جاءت تسمية المعركة وفاق ما جاء في شعر عنترة :

وشبيه من هذا قول ابن الأثير حيث سماها « بعرير » (٢) وهو ماء :

وفي وقعة « الفروق » يقول عنترة أيضا (٣) :

ونحنُ مَنعَنا بالفَروقِ نساءَنا نذبُّ عنها مسبلاتٍ غواشيا

وفي حرب « جبلة » يزداد الشعر اقترابا من الأحداث التاريخية ، ويكثر ، لأن القبائل التي شاركت في هذه الحرب متعددة ، فتناقل الناس الأشعار عن أطراف مختلفة في هذا النزاع : وفي أخبار أبي عبيدة (٤) فيض من هذا الشعر ، يتردد فيه اسم هذه الحرب كثيرا ، والملاحظ على ابي عبيدة عندما يورد شعراً في هذا اليوم أنه كان يتثبت من روايته ، فلم يكن يثبت القصيدة مالم يمحصها

---

(١) الكامل ١ / ٣٥٤

(٢) المصدر السابق

(٣) الاعلم : مختارات الشعر الجاهلي ٢ / ١٣٠ عبد المنعم خفاجي .

(٤) نقائض جرير والفرزدق ١ / ٦٥٤ الى ٥٧٨

فان وجد فيها شكا نبه اليه ، كما فعل في شعر القبائل التي ادعت قتل لقيط بن زرارة ، فكان يرده ، ويقول ان شريحا هو الذى قتله وما زعمته القبائل في شعرها مردود (١) :

واذا أردنا أن نسير مع الأحداث ، ونقرنها بأشعارها ، طال بنا للبحث ولا جدوى منه . لذلك رأيت أن مثالا واحدا يغني عن جميع الأمثلة ، في مطابقة الشعر للواقع التاريخي في يوم « جبلة » . وذلك حيث قال رجل من بني أسد يرتجز (٢) ، مخاطبا لقيط بن زرارة وأصحابه حين سخروا من عبس وعامر ، عندما اتخذوا لهم من الجبل معقلا ، ومن الابل سلاحا :

زعمتَ أن العِيرَ لا تُقاتِلُ   بلَى اذا تقَعقَعَ الرحائِلُ
واختلفَ الهندىُّ والذوابِلُ   وقالتِ الأبطالُ مَنْ يُنازِلُ
بلَى وفيها حَسَبٌ ، ونائِلُ

ويكاد أبو عبيدة في هذا اليوم لا يخط سطرا من خبره ، إلا وجاء بما يطابقه من الشعر فرفع بذلك روايته .

ويظل الشعر مقترناً بأحداث التاريخ ، حتى عقد الصلح ، فلم يترك الشعر هذه المناسبة تفلت ، فانطلقت قصائد زهير وآخرين تترجم لهذه المرحلة الجديدة :

وعلى أن المؤرخين يختلفون في اسناد الشعر الى خبره احيانا

---

(١) المصدر السابق

(٢) المصدر السابق

وذلك عندما لا تذكر الموقعة في الأبيات . ولكنه اختلاف نادر مثل الذي فعلـه المفضل بن سلمة ، حيث ذكر أبيات عنترة التي منها (١) :

سائِلْ حذيفةَ حينَ أرّثَ بينَنا حربا ذوائِبُها بموتٍ تَخفِقُ
واسألْ عميرةَ حيثُ حلّتْ جَمعَها
عِندَ الحروبِ بأيِّ حيٍ تَلحَقُ (٣)

وقال ان مناسبتها يوم « ذى حسى » . ولكن الميداني ذكرها في مناسبة أخرى وهى وقعـة « اليعمرية » (٤) ، وجعلهـا ابن عبد ربه في يوم « المريقب » ، وأورد البيت الأخير منها على هذا الوجه (٥) :

ولقد علمتَ اذا التقَتْ فرسانُنا يومَ المُريقِبِ ان ظنكَ أحمَقُ

في حين أن الأعلم رواها في يوم آخر وهو « لوى النجيزة » (٦) :

---

(١) الفاخر ص : ٢٢٦

(٢) عميرة حى من فزارة . وحلت جمعها أي بجمعها (أسقط الخافض فتعدى الفعل) او هى بدل من عميرة .

(٣) التأريث والتحريش تهييج الشر . الذوائب هنا الروايات . بموت تخفف تتحرك بالموت .

(٤) مجمع الامثال ٢ / ٦١

(٥) العقد الفريد ٣ / ٦٩

(٦) مختارات الشعر الجاهلي ـ الاعلم ٢١ / ١٥٥ تحقيق خفاجي

فلتعلمن اذا التقت فرساننا بِلِوَى النُجَيْرَةِ أن ظنك أحمق

• • •

ضياع كثير من هذا الشعر :

ليست مسألة ضياع الشعر الجاهلي بجديدة على الباحثين ، وقد لقيت لدى القدماء اهتمامهم ، وأثر عنهم فيها اقوال كثيرة حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه (١) قال « ان الشعر كان علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » . ويتحدث ابن سلام عن تشاغل الناس بالاسلام وبالجهاد والغزو ولهوهم عن الشعر وروايته ، فلم ينتبهوا الا وقد هلك بالموت والقتل خلق كثير من العرب ، فذهب من الشعر الجاهلي مقدار كبير ، والذي حفظوه أقل ذلك (٢) : .

ثم يبدأ بالحديث عن الشعر والشعراء ، فاذا مر على شاعر عرف عنه أنه قال شعرا وسقط فلم يصل ، نبه اليه ، ثم يورد قول ابي عمرو بن العلاء « ما انتهى اليكم مما قالته العرب الا اقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » :

وتابع ابن قتيبة ابن سلام في هذا الحديث فقال (٣)

(١) ابن سلام - طبقات الفحول ص ٢٣

(٢) المصدر نفسه (٣) الشعر والشعراء ١ / ٤

« والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والاسلام اكثر من ان يحيط بهم محيط ، او يقف من وراء عددهم واقف ، ولو انفد عمره في التنقيب عنهم واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال »

ولا احسب احدا من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر الا عرفه ، ولا قصيدة الا رواها « وحسب القارىء أن يرجع الى كتب القدماء ، فيصدم نظره اسم ديوان او كتاب في اشعار القبائل العربية ، ولم يجد له اثرا في مكتباتنا او مخطوطاتنا اليوم (١) : وهذه الاشارات القليلة ، دلالات واضحة على هذه الظاهرة التي عمت الشعر ، فأدركها القدماء وعالجوها :

وحرب داحس التى جمعنا لها من الشعر قرابة الف بيت تمثل هـذه الظاهرة تمثيلا واضحا ، اذ ليس ممـا يقبلـه القيـاس المعقول ، أن يبقى لنا من الشعر هذا المقدار الذى أحصيناه ، في حرب دامت أربعين عـاما كما يـذكر المؤرخون ، وكـان من شعرائها عنترة وزهير والنابغة والحطيئة وقيس والربيع وغيرهم من الشعراء الذين يزيد عددهم على خمسين شاعرا . فشاعر مثل عنترة رافق الحرب أعواما طوالا ، ليس كثيرا عليـه أن يقول فيها من القصائد والمقطعات، عشرا فقط ، بل انه أقل من القليل ؛ وشـاعر مثـل قيس بن زهير نعثر لـه على سبع عشرة قصيـدة

(١) الآمدى ـ المؤتلف والمختلف ص ٨٣ وابن النديم ـ الفهرست ص١١٧

ومقطوعة ، كان لا بد أن يقول أكثر منها ، وبخاصة أن قيسا كان فارس الحرب وشاعرها ، وكان قائد عبس وهو لا يقل عن عنترة شأنا ، قوَّةَ أسرٍ في الشعر كما سترى في الفصل الأخير ، وشدة بطش في الحرب كما رأينا في الفصل الثاني .

واذا كان النابغة أحاط نفسه بظروف خاصة أبعدته عن هذه الحرب ، فهو لم يمنع نفسه أن يقول فيها خمس مقطوعات وردت في شعره ، ومقطوعة أخرى أوردتها المصادر الوثيقة (١) ، ولم ترد في الديوان ، وفي هذا ما يدل على اهتمام النابغة بهذه الحرب الى جانب اهتمامه بالمشاغل الأخرى المتعلقة بقبيلته . هذا بالاضافة الى قصيدتين لهما مع هذه الحرب صلة مباشرة ، يأتي الحديث عنهما في الفصل القادم . وظل الحطيئة يذكر الحرب بشعره ، ويذكر عبس وذبيان حتى عام ارتدادهما وانضوائهما تحت لواء المرتدين .

واذا كان الفخر والحماسة من الأغراض البارزة في شعر هذه الحرب ، فمرد ذلك يعود لأسباب يتعلق بعضها بالروح العربية ، ويتعلق بعضها الآخر بالظروف المحيطة فيما بعد ، والتي حجبت جانبا عظيما من هذه الأغراض . ولكن هذا الفخر وهذه الحماسة

---

(١) المفضل الضبي - أمثال العرب ص ٣٨ ، ٩ وديوان النابغة رواية السكري ابو عبيدة نقائض ١ / ٦٦ ، ١٠٠ والمفضل ، الفاخر ص ٣٠ ، و ٢٣٢ والميداني .. الامثال ٢ / ٦٣ و ٦٤ .

لم يصلا الينا بالشكل الذي كانا عليه يومئذ ، وانما أتت صروف الدهر على القصائد ، فأحالتها مقطوعات قصارا .

وبعد هذا نريد أن نقرر أن ظاهرة المقطوعة في شعر الحماسة والفخر لهذه الحرب ، لم نجد لها تفسيرا أرجح من أنها قصائد لم يروها ، أو يستشهد بأبياتها كلهـا العـلماء والمؤرخون ، وانما اكتفوا بما يفي بغرض الخبر : وربما عثرنا على مكملات القطعة في الكتب الأخرى ، أو ربما لم نعثر . على أن المقطوعة المستقلة والتي لم تخرج من قصيدة يمكن تمييزها : وكـذلك يمكن تمييز المقطوعة المنتزعة من قصيدة ولنا الى هذه المسألة عودة : على أن العلماء الأقدمين وفروا لنا بعض العناء ، وأعطوا الدليل الصريح واغنونا عن البحث وراء النصوص : فابن هشـام يورد البيت والبيتين ثم يعقب عليهما بما يؤيد زعمنا : ومن مثـل ذلك قول حمـــل بن بدر يوم قتلت قبيلته ذبيانُ مالك بن زهير العبسي :

قَتَلْنَا بعوفٍ مالكا وهو ثُأرَنا فان تَطلُبوا مِناسَوى الحقِ تَندَموا

قال ابن هشام : « وهذا البيت في أبيات له » (١) :

وفي بيت الربيع بن زياد :

أفبعدَ مقتـلِ مالكِ بن زهيرٍ ترْجو النساءُ عواقبَ الأطهارِ

قال : « وهذا البيت في قصيدة له » (٢) :

---

(١) السيرة ١ / ١٨٦

(٢) المصدر السابق

وأورد بيت الحارث بن زهير :

تركتُ على الهباءة غيرَ فخرٍ حذيفةَ حولَهُ قصدُ العوالي

ثم قال : « وهذا البيت في أبيات له » (١) :

وأورد بيتي حذيفة بن زهير بن جذيمة يرثي حذيفة بن بدر :

كم فارسٍ يُدعى وليسَ بفارسٍ وعلى الهباءةِ فارسٌ ذو مَصدَقِ

فابكوا حذيفةَ لن تُرثّوا مِثلَهُ حتى تَبيدَ قبائلٌ لم تُخلَقِ

وذكر « ان هذين البيتين في أبيات له » (٢) :

وجاء بيت من قصيدة قيس بن زهير ، التي يرثي فيها قتلى « جفر الهباءة » :

على أنَّ الفتى حملَ بنَ بدرٍ بغى والبغيُ مرتعُهُ وخيمُ

وقال : ان هذا البيت في أبيات له (٣) :

ولدى الرجوعِ الى كتبِ الأدب واللغة والتاريخ ، تظهر لنا الحقائق التالية :

فيما يخص البيت الأول الذي ذكره ابن هشام ، لحمل بن بدر ، في مقتل مالك بن زهير لم نعثر له على بيت آخر ، بينما قال عنه انه في قصيدة له ، وهذا يعني ان ابن هشام قد اطلع عليها ، وان القصيدة كانت ما تزال حتى زمانه موجودة (٤) في

---

(١) و (٢) المصدر نفسه

(٣) السيرة ١ / ١٨٦

(٤) توفي ابن هشام في ٢١٨ هـ

مطلع القرن الثالث الهجري .

والبيت الذي أورده للربيع بن زياد ، في رثاء مالك أيضا ، عثرنا على قصيدته . وهي طويلة تفرقت في المصادر المختلفة ، أخذ منها اصحاب الشواهد قسما ، ورموا بالقسم الأعظم فضاعت مع ما ضاع من شعر العصر الجاهلي . والذي عثرنا عليه منها نتف في اغراض متعددة .

وأما بيت الرثاء الذي أورده للحارث بن زهير ، فقد عثرنا على ثلاثة منها في النقائض (١) ، وذكرها ايضاً صاحب الاغاني (٢) واثنين من هذه الثلاثة اوردها صاحب سمط اللآلى (٣) .

ولم أعثر على تتمة بيتي الرثاء اللذين يرثى بهما حذيفة بن بدر ، وعثرنا على قصيدة قيس بن زهير في رثاء قتلى « جفر الهباءة » (٤) .

وتتمثل هذه الظاهرة عند التبريزى في شرحه على ديوان الحماسة (٥) ، حيث يشير أيضاً الى ضياع قصائد هذه الحرب ، فيذكر العداء بين قيس والربيع ، بسبب المساومة على الدروع

---

(١) ابو عبيدة ١ / ٩٦

(٢) ١٧ / ١٣٧

(٣) ص ٥٨٣

(٤) ابو عبيدة ١ / ٦٥

(٥) شرح ديوان الحماسة ـ التبريزى ٣ / ٢٤

ثم لجوء قيس الى الربيع بعـــدها يطلب الصفح والصلح ، ليخلو معه لحرب ذبيان ، فيكون جواب الربيع في قصيدة يذكر منها التبريزي هذا البيت :

واكرهُ أن أقرَّ برأى قيسٍ ... وأكرهُ أن اسوءَ بني زيادِ

ثم يكتفى بأن يقول : وهي طويلة .

وتتمثل هذه الظاهرة عند ابن الاثير أيضاً ، فيورد أبياتاً من قصيدة ثم يعقب عليها فيقول : وهي طويلة . كما فعل مع قصيدة قيس بن زهير التي سبقت الاشارة اليها ، وهي في رثاء قتلى « جفر الهباءة » حيث أورد ثلاثة أبيات منها (١) ، وهي في النقائض (٢) تسعة أبيات فقـــط ، وجميع المصادر (٣) أوردتها موافقة لأبي عبيدة :

ونستطيع أن نتلمس آثار الضياع هذه في اشارات الشعراء والرواة والمؤرخين الذين يتحدثون عن المناسبات التي قيلت فيها هذه القصائد : فهـــذا عنترة يهجو حزيما وزبان ابني سيار بن عمرو بن جابر وبدر بن حوار ، حين بلغه ان حزيما وزبان يعينان بدرا ويرويان شعره في عنترة . وعند البحث والتنقيب

---

(١) الكامل ١ / ٣٥٣

(٢) ابو عبيدة ١ / ٩٦

(٣) ينظر على سبيل المثال لا الحصر التبريزى - شرح ديوان الحماسة ١ / ٢٢١ والمرزوقي ١ / ٤٢٨ والميدانى - الامثال ٢ / ٦١

لم أعثر على شعر بدر هذا . ولكن عنترة في مقطوعته يشير صراحة الى قصائد مشهورة ، كدخان العلندي سوف تملأ عليهم الأفق وتبدأ المقطوعة بذكر قرواشَ بن هنى العبسي (١) ومدحه عندما كان أسيراً لديهم وقتلوه :

هَديـّكمُ خـيرٌ أباً من أبيكُمُ
أعفُّ وأوفَى بالجِوارِ وأحْمَدُ (٢)

واطعنُ في الهيجا اذا الخيلُ صدَّها
غداةَ الصباحِ السمهرىُّ المُقَصَّدُ (٣)

فهلا وَفَى الغوغاءُ عمروُ بن جابرٍ
بِذمّتِه وابنُ اللقيطةِ عِصْيَدُ (٤)

سيأتيكمُ عنى وان كنتُ نائيا
دخانُ العلنَدى حول بيتى مِذودُ (٥)

(١) الاعلم - مجموع الشعر الجاهلي ٣٠٦/١ تحقيق (د . م السقا) المقطوعة ١٤ وانظر المجموعة نفسها تحقيق (ع . خفاجى) والخبر مع الأبيات .

(٢) هديكم : أسيركم وهو قرواش بن هنى العبسي

(٣) السمهرى المقصد : الصلب المستقيم الذي لا ينثنى والصباح تروى الصياع أيضاً .

(٤) عصيد لقب حصن الفزاري

(٥) العلندى : جبل وقيل شجر كثير الدخان اذا احترق . ومذود يدفع . يريد قصائد مشهورة كهذا الدخان .

قصائدُ من قِيلِ امرئٍ يجتديكمُ
بني العشراءِ فارتدوا أو تقلّدوا (١)

فأين شعر بدر بن حذار المذكور واين قصائد عنترة فيه وفي قومه؟ وكنا في فصل الدراسة الفنية لهذا الشعر، ذكرنا أنه شعر مقطعات، وان هذه الصفحة طاغية على أغلبه. وقلنا أن بعضا من هذه المقطوعات لم تكن في الأصل على هذه الصورة، بل ان ظاهرها يدل على كونها خرجت من قصائد: وليس أدل على ذلك من البيت الوارد في الجمهرة (٢)، وقد نسبه للربيع بن زياد العبسي:

فانْ طِبتمُ نفسا بمقتلِ مالِكٍ   فنفسي لَعمري لا تَطيبُ بذلكا

ولم نعثر له على أبيات أخرى، وهو واضح الدلالة على أنه لم يكن بيتا بمفرده على صورته الحالية: على أننا غالبا ما نعثر في مواطن مختلفة، على مكملات الأبيات، مثل قول زبان بن سيار في هجاء بني بدر يوم «جفر الهباءة» (٣):

فانّ قتيلا بالهباءةِ في استِه   صحيفَتُه انْ عادَ للظلمِ ظالمُ
متى تقرؤها تهدِكم مِنْ ضلالِكم   وتُعرَفْ اذا ما فُضّ عنها الخواتِمُ

(١) يجتديكم يتبعكم. ويروى يجتديكم

(٢) ابو زيد القرشي ص: ٤

(٣) المفضل - الفاخر ص: ٢٢٨، وابن عبد ربه - العقد الفريد ٣ / ٧٠ والأمثال ٢ / ٦٢ (بلا عزو).

فان تسألوا عنها فوارس داحسٍ يُنبئْكَ عنها من رواحة عالِمُ

ثم نجدها في المفضليات ثمانية أبيات منسوبة لزبان بن سيار ابن عمرو المري (١) :

ومثل ذلك أبيات عقيل بن علفة المري في حذيفة وصحبه يوم قتلوا في « جفر الهباءة » أيضا : فقد وردت في الحماسة الصغرى (٢) في ثمانية أبيات ، بينما لم تكن في المصادر التي أوردت خبر الحرب الا ثلاثة أبيات : وهذا يوضح لنا أن أكثر المقطوعات التي خرجت من قصائدها لم يعثر على مكملاتها ؛ وان كانت بعضها تبدو وكأنها خرجت بصورة كاملة ، ولا يبدو عليها أنها منتزعة من قصيدة ، لأن اكتمال معناها ووحدتها ، يدلان على هذا الكيان المستقل فيها ، وان كنا لا نجزم به ، لأن الدليل على ذلك غير ثابت ، ويأتي الحكم من وضعها الخارجي

---

(١) المفضل الضبي ـ المفضليات ص ٦٩٣

(٢) ابو تمام « الوحشيات » ص ٢٤٢ ذكرها بعد هذه العبارة المضطربة (زبان بن سيار) « الفزارى » ؟ في عويف القوافي « الفزارى هى لعقيل بن علفة عن قوله في عقيل « واستدركها محقق الكتاب عبد العزيز الميمنى فقال : هي قطعتان جمعت فى قطعة واحدة ثم فصلها . وزبان مرى وليس فزاريا بدليل هجائه لفزارة بسبب حربها لمرة والصحيح ما ورد في المفضليات .. المصدر السابق .

فقط : مثل قول عمرو بن الاسلع (١) ، أو مثل قول مرداس ابن أبي عامر عندما انتزع منه بنو ابي بكر بن كلاب مائة ناقة، غنمها في «شعب جبلة» فانتهى الى . يزيد بن الصعق ليعينه على ردها (٢) :

لعَمرك ما ترجو معدٌ ربيعَها رجائي يزيدا بل رجائي أكثرُ
يزيدُ بنُ عمروٍ خيرُ من شدَّ ناقةً باقتادها اذ الرياحُ تُصرصِرُ (٣)
تداعتْ بنو بكرٍ عليَّ كأنما تداعت عليَّ بالأحزةِ بربرُ (٤)
تداعوا عليَّ أنْ رأوني بخلوةٍ وأنتم بأحدانِ الفوارسِ أبصرُ (٥)

فهذه الأبيات يدل معناها وظاهرها أنها كاملة ولم تنتزع من قصيدة :

وخلاصة ما ذكرناه ، أن شعر هذه الحرب ضائع مع الشعر الجاهلي ، وقد دل على ضياعه اعتراف القدماء أنفسهم ، وافتقادنا للقصائد التي انتزعت منها المقطوعات التي وصلت الينا ، واشارات المؤرخين الى هذه القصائد بصورة صريحة :

---

(١) ابن عبد ربه - العقد ٣ / ٧

(٢) ابو عبيدة .. النقائض ٢ / ٦٧٣

(٣) الاقتاد خشب الرحل تشد اليه الناقة

(٤) الاحزة : موضع

(٥) احدان : الفارس المفرد

الفصل الخامس

. . .

أهم الشعراء في هذه الحرب

أهم الشعراء الذين شاركوا في الحرب . قيس بن زهير شاعر الحرب وفارسها . موقف النابغة من هذه الحـــرب : دراسة لدور عنترة وزهير بن أبي سلمى في هذه الحرب من حيث أنهما يمثلان اتجاهين متقابلين : اتجاها نحو الحـرب واتجاها نحو السلام .

. . . . .

الفصل الخامس

أهم شعراء هذه الحرب

الشعراء الذين شاركوا في الحرب :

أولى المؤرخون ونقاد الأدب الشعر الجاهلي عناية خاصة ، ومنحوه جانباً كبيراً من اهتمامهم ، لا لشيء الا لأنه الثروة الأدبية الوحيدة التي وقعت في أيديهم ، ويمكن الاطمئنان اليها مع تحفظ ونظر :

وأما سواه من فنون الأدب الأخرى ، فالحكم بموجبها يرافقه كثير من التحرج ، لان ما وصل الينا منه قليل جدا . وهو على ندرته ، كان هدفا صالحا لزيادة او نقص في تركيبه او معناه وبخاصة النثر الجاهلي ، فهو فن لم يجزم بنقائه احد : بل ان الأمثال ، وخطب الكهان ، وكلام أهل الحكمة ، هذه كلها اصبحت غرضا للتغيير والاختلاط ، على الرغم من قصر عبارتها وامكان حملها كما يحمل الشعر .

لكن الشعر على الرغم من تصدى المسيئين اليه منتحلين او وضاعين ، استطاع أن يحفظ جوهره : لصفة متميزة فيه وبجهد رواته الثقات ، وعلمائه وأرباب صنعته ، واستطاع كذلك أن

ينفض عنه كل غريب ومنتحل وموضوع ، قاطعا الدرب الطويل وقد استغرقت رحلته على شفاه الرواة ، وفي حافظة الرجال ، وبين دواوين القبائل فترة طويلة ، جد العلماء بالبحث عنها ، وكانت بالنسبة لهم الحلقة المفقودة :

ان هذا الشعر أنجز مهمة عصره ، يوم قاله أربابه . وظل يقدم للباحثين في مختلف العصور العطاء الطيب الغزير ، وكأنه بهذا يحاول اتمام مهمته وانجاز مهمة أخرى غيرها لاصالته وصدقه فأفاد منه رجل الدين ، واللغة ، ليستشهدا بصحة لفظة او توضيح عبارة ، وكذلك الأديب ، وهو يترجم لأصحاب الطبقات من الشعراء ، والمؤرخ ، وهو يكتب تاريخ العصر الجاهلي . وحتى القارىء ، فانه يستمتع بهذا النتاج . ولو أنصفه الرواة والمؤرخون وعرفوا لهذا التراث قيمته فلم يبعثروه او يفسدوا بعضه ، لكانت دراسة عصره من جميع الوجوه أيسر تناولا واكثر وضوحا :

واذا كان هذا شأن الشعر الجاهلي ، فما أحرانا ونحن نتصدى لدراسة جانب من جوانبه أن ندرس قائليه حيث هم الممثلون الحقيقيون لهذه الثروة ، بما تنطوى عليه حياتهم من احداث متباينة تضافرت لتخلق لهذه الطاقة الشعورية . فالشعر نتاج قرائحهم وعواطفهم المنفعلة في خضم حياتهم القبلية ، وما يسود هذه الحياة من أبعاد . وانه لفخر لهم ان نسجل اليوم لجهدهم اسمى آيات الاعجاب لنجاحهم في ان يخلفوا لنا أدبا ترتسم فيه

الجوانب النابضة من حياتهم : هذا الى اخضاع شعرهم لمتطلبات المعركة والمصير ، وتسخير طاقاتهم الفكرية والجسدية بصورة واعية وذكية في رسم خطط النجاح :

وشعراء هذه الحرب ليسوا نمطا واحدا ، وانما هم انماط مختلفة ، أو مجموعات وطوائف تعمل على نحو مستقل . فكل مجموعة تنطق عن رغبة فيها وفي قومها ، وتدفعها المشاعر الخاصة بشعرائها ، باعتبارهم بشرا يعانون قسوة البيئة والحروب ، ورجالا تربطهم بقبائلهم روابط متشعبة لا يستطيعون منها فكاكا . وليس فيهم من يريد أن يبتعد عن هذه الروابط شبرا بل يجد المتعة العليا في أن يفنى من أجل واحدة منها . فهو يموت بسبب كلمة واحدة تمس نسب قومه ليدحض كذبها ، أو يقتل من أجل شبر من أرضه يقتطعه غريب ، أو يثور بدافع الغيرة لعرض يهان :

ومن هنا جاء العامل الهام الذي جعل للشعر الجاهلي شعر قبيلة ، أو مجتمع ، بل شعر أمة ، يتميز بهذا الطابع القومي العتيد الذي افتقر اليه شعر العصور التي تلته ، برغم تجويد المجودين وابداع المبدعين :

وقد آثرنا أن نحصر تلك الطوائف في مجموعات ثلاث ، القصد منها ايضاح ما ليس من ايضاحه بد ، اذ ليس كل من قال شعرا في هذه الحرب يعد فارسها . وذلك لأننا وجدنا من شعرائها من لم يتنسم ذرة من غبارها ، ومع هذا فله فيها شعر

كثير ، ومقابل ذلك وجدنا من شعرائها الفرسان ما ليس له في الأخبار الطوال أو القصار الا القصيدة الواحدة ، أو المقطوعة الواحدة : وما أكثر عثورنا على البيت والبيتين لكثير من الشعراء :

وان حصر الطوائف المتعددة في مجموعات ثلاث ، هو حصر للموضوع تيسيرا لأمر دراسته : فدراسة شعراء حرب داحس وفق الطوائف المتعددة متعذر لسببين : احدهما ندرة الشعر لكثير من شعرائها ، والآخر قلة ما في أيدينا من المصادر التى تفى بغرض البحث ، والتي تكاد من غموضها وتعذر استنطاقها أن تثبط عزم الدارس وتصرفه عن غايته .

المجموعة الأولى :

يدخل في دائرة هذه المجموعة ، كل الشعراء الذين اقتحموا الحرب بأشعارهم وسيوفهم والذين نصطلح على تسميتهم بـ « الشعراء الفرسان » : وهي تسمية يسبغها عليهم واقع حالهم ولم تأتهم اعتباطا .

لقد سخر أفراد هذه المجموعة شعرهم لمصلحة الحرب ، وانجاح أمر القبيلة بالسبل الكفيلة به : وعمل هؤلاء دائب دائم في كل الظروف والمناسبات . وليست لديهم ساعة صمت أو توقف ، فهم قبل اللقاء يمهدون لحرب نفسية ، مما تبثه قصائدهم

التي تفعل فعلها في نفوس الأعداء ، من تثبيط الهمة وفقدان الثقة بالنفس ، ثم يبثون بألسنة من نار ليهيجوا الحماسة في دماء قومهم . فقبل الحرب يمهدون ، وخلالها ينشدون ويرتجزون ، وبعد النصر يغنون ويفتخرون : ولكنهم لا يخرجون عن نطاق متعارف عليه ، لأنهم يتحركون داخل اطار عام من وحي العادات البدوية والعرف القبيلي .

وللشعراء الفرسان من الميزة ما ليس لغيرهم من شعراء الحرب الآخرين الذين سوف يرد ذكرهم في المجموعتين الاخريين ، وهي ميزة تمليها عليهم طبيعة المعركة التي يخوضون ، واون الحياة التي يعيشون : وبالتالي فانهم يتحسسون الأمور بشعور يختلف عمن سواهم من شعراء القبيلة الذين لا يحاربون ، لسبب أو لآخر : فقد تميزت قصائدهم برنة الصدق في حماستهم وفخرهم ، وحرارة العاطفة في مدحهم ورثائهم ، واجادة التعبير في هجائهم وذمهم ؛ ثم انهم بعد ذلك يتناولون موضوعاتهم بسهولة ويسر ، كأنها في متناول أيديهم : فالربيع بن زياد العبسي لم يكن ليقتحم الحرب مع قومه وهو مشاحن لهم دون أن يجد المبرر المناسب : ولكنه عندما اتضح له ظلم الذبيانيين لاخوتهم العبسيين وتماديهم في القتل والغارة ، وجد المبرر القوى لخوضها وهم الذين اشعلوها . وجاء وصف ذلك على لسانه ينساب انسيابا (١) :

(١) المفضل بن سلمة ـ الفاخر ص ٢٢٤ وابن عبد ربه العقد الفريد ٣ / ٦٨ .

فانْ تلكُ حربُكم أمستْ عوانا   فانى لم أكنْ ممن جناهـا
ولكن ولد سودةَ ارثوهـا   وحشّوا نارَها لمِن اصطلاها
فانى غيرُ خاذِلكم ولكـنْ   سأسعى الآن اذ بلغتْ مداها

ويشتد سعيره على ذبيان في مقتل مالك بن زهير ، فيحكم العقل فلا يجد مفرا من شد الأحزمة على بطون الخيل بقوة ، واجهادها لادراك الثأر ، حتى تقذف مافي بطونها من الأجنة ، يحثها من فوق ظهورها مساعير الحرب الكماة الذين يلبسون الحديد في الليل والنهار ، فيصدأ على وجوههم التى تبدو وكأنها طليت بالقار . ان هذه الصورة خير ما يمكن تقديمه لقتلة مالك والمسرورين بموته ، فكانت تنثال من فمه انثيالا ، وكأنه لا يفكر بها وانما وضعت على لسانه فتخرج من غير أعياء (١) ؛

ويعطينا قيس بن زهير صورة المحارب المؤمن بقضيته ، انه بعد مقتل أخيه مالك وآخرين بعده لم يتهاون في حرب فزارة بل يتوعدها بالجيوش المغيرة (٢) :

ان الهوادةَ لا هوادةَ بيننا   الا التجاهدُ فاجهدنْ فزارا
الا التزاورُ فوقَ كلِ مقلصٍ   يَهدى الجيادَ اذا الخميسُ أغارا

ويعرض أمام أنظارهم ملاحم الحرب التي تنتظرهم في بلادهم

(١) المفضل الضبي = امثال العرب ص ٣٠ والاغاني ١٧ / ١٢٩ وأبو تمام - الحماسة (المرزوقي) ٢ / ١٩١ .

(٢) المفضل الضبي - أمثال العرب ص ٣٣ وابو عبيدة - نقائض ١ / ١٠٢

وفوق أرضهم :

حتى تزور بلادكم وترى بها · منكم ملاحم تخشع الأبصارا

وكان قيس لا يألوا جهدا في بعث الحماسة في عروق الربيع ابن زياد لحرب بني بدر (١) :

أينجو بنو بدر بمقتل مالك · ويخذلنا في النائبات ربيعُ

وكان زيادٌ قبلهُ يتقى به · من الدهر ان يومٌ ألمّ فظيعُ

ثم تشتد الحرب ، ويشتد معها شعرها ، من وصف وفخر وحماسة ، يأخذ ألوانه وأشكاله من وقع الأحداث . فهذه ذبيان تثأر لحذيفة من قاتله قرواش بن هنى ، فتذكر عبسا بصلة الرحم التي فرطت بها ، فكان أن تتبع الذبيانيون كل مطلوب بثأر من العبسيين ، فقتلتهم واحدا واحدا . وربما نكبت عائلة ثارا لعائلة ، عينا بعين وسنا بسن ، كما وضح ذلك شعراؤهم في مناسبات عديدة (٢) . ولم يشأ عنترة الا أن يرد عليهم دعواهم ، ليرفع من شأن قرواش فيقول (٣) :

هديكمُ خير أبا من أبيكمُ · أعفّ وأوفى بالجوار وأحمدُ (٤)

---

(١) ابن الاثير ـ الكامل ١ / ٣٤٨

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص ٢١٤

(٣) الاعلم : مختارات الشعر الجاهلي ٢ / ١٥٠ (عبد المنعم خفاجى) .

(٤) الهدى : الأسير

وأحمى لدى الهيجا اذا الخيلُ صدّها
غداةَ الصباحِ السمهريُّ المقصدُ (١)

ورثاه قيس بن زهير بصوت مختنق حزين فقال (٢) :

مالى أرى ابلي تحنُّ كأنَّهـا   نوحٌ تجاوب موهِناً أعشارا (٣)
لن تهبطى ابدا جنوبَ مويسل   وقنا قراقرَ تينِ والامَوارا (٤)

وتمضي أمثلة هذه الطائفة على هذا الأسلوب المتدفق ، لكن الملاحظ في هؤلاء أن فيهم شعراء ، على الرغم من اقتحامهم الحرب وتحمسهم لها وانشادهم فيها ، الا أنهم لم يألوا جهدا في بث دعوة الصلح والعودة الى السلم . وقد كانوا يتحينون كل سانحة تسنح ، ليعيدوا الى الأذهان أواصر القرابة ، ويرددوا بصوت مرتفع عبارات الشتم والذم للحرب قال قيس بن زهير (٥) :

فيا ابنَي بغيضٍ راجعا السّلم تسلما   ولا تشمتا الأعداءَ يفترقِ الشملُ
وانّ سبيلَ الحربِ وعرٌ مُضِلّةٌ   وانّ سبيلَ السلمِ آمنةٌ سهلُ

ولم يتردد عنترة ، وهو يبكى صديقه الحميم مالك بن زهير ،

(١) السمهري المقصد الرمح الصلب المستقيم

(٢) المفضل الضبي - مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٩

(٣) نوح : نساء ينحن والاعشار جمع عشر ، وهو أن يرد الماء في اليوم التاسع والموهن صدر من الليل .

(٤) جنوب مويسل وقنا قراقرتين والاموار كلها مواضع

(٥) ابو عبيدة النقائض ١ / ١٠٢

أن يبدي بغضه لهذه الحرب التي قتلت سراة غطفان (١) :

لقد جلبا حينا وحربا عظيمةً تبيدُ سراةَ القومِ من غطفانِ

بل أنه ليبعد في هذا التفكير حيث يلتمس العذر لكثير من الناس الذين يخوضون غمرات الوغى بغير ذنب أو جناية فيقول (٢) :

حالتْ رماحُ ابنَيْ بغيضٍ دونَكم
وزَوتْ جواني الحربِ مَنْ لم يُجرِمِ

أما حِيان بن حصين العبسي ، فقد بلغ به تحفظه وتمسكه بشروط الصلح ، وحب السلم أنه أظهر توجعه ، لما خرقت ذبيان الشروط ، وقتل حصين بن ضمضم رجلا من عبس ؛ ولم يكن الشاعر يريد اثارة الأحقاد ، كما لم يكن يريد أن يفرط في قبيلته ؛ وهي حادثة نجمت عن رجل موتور ، قتل أبوه وأخوه وأقسم الا يغتسل مالم يقتل بهما رجلا مثلهما . فقال حيان متوجعا لقتل صاحبه ، ومذكرا القوم بالمواثيق ، ومعيدا الى الاذهان أيام « جفر الهباءة » لكى تتعظ ذبيان فتنزل عن تعنتها (٣) :

---

(١) الاعلم مختارات الشعر الجاهلي ـ ٢ / ١٣٠ شرح عبد المنعم خفاجي

(٢) المصدر السابق (المعلقة) وقال ابن قتيبة في المعاني الكبير « ابني بغيض عبس وذبيان يعني قتالهم في حرب داحس . وزوت أي نحت . والمعنى « لم يقدر أحد أن ينفرد عن عشيرته او اهله واصله مخافة أن يقتل وان لم يكن له ذنب » .

(٣) أبو عبيدة ١ / ١٠٥

سالمَ اللهُ من تَبرّأ من غيظٍ ووليّ آثامَها يَربوعا
قتلونا بعد المواثيق بالسُحم تُراهُنّ بالدماءِ كُروعا
ان تُعيدوا حرب القَليب علينا تَجدُوا أمرَنا أحذّ جَميعا (١)

وأقرب من هذا قول الربيع بن ضبيع الفزارى ، يؤنب حملا على فعلته التي فعلها يوم السباق ، وما بدر منه من ظلم تجاه اخوانه العبسيين ، ويحمله ايغال قيس بن زهير في قتل « ذوى الظلم » وغيرهم (٢) :

يا حملُ هل تعلمُ مالا أعلمُهْ سديتَ غزلا لا تطيقُ تلحَمَهْ
والظلمُ للظالمِ حتما يُلجِمُهْ ألا ترى قيسا تأطّتْ أسهُمُهْ
يقتلُ ذا الظلمِ ومَنْ لا يظلمُهْ

* * *

المجموعة الثانية :

وفي دائرة هذه المجموعة ، يدخل الشعراء الذين ساهموا في حرب داحس بشعرهم فقط ، ولم يقتحموها مقاتلين ، وهم طائفتان : الطائفة الأولى تدعو الى الحرب والقتال ، ولم يؤثر عنها أنها رغبت في سلم اودعت اليه ، وان كان بعضهم ينشد

(١) انظر تفسير الأبيات في الصفحة : ١٦١ من الفصل السابق

(٢) وهب بن منبه - التيجان ص ١٢٩ .

شعره في الحرب فان جنحت القبيلـة الى السلم جنح معها الى السكوت ، ويصعب الحكم على طبيعة هذه الطائفة ، لأن الشعر الذي يمثلهم قليل ، ولم يصل الينا مايمكن عقد دراسة له .

ومن أمثلة هذه الطائفة النابغة الذبياني الذي كان واقفا لعبس بالمرصاد ، يرميهم بسهام شعره النافذة الى أعماق القـوم ، حتى أنه في بعض شعره أفسد عليهم حلفهم مع بعض القبائل (١) : على أن موقف النابغة كان منبعثا من مصلحة القبيلة ، يحارب في حربها ويسالم في سلمها ، لكنه كان موقف السياسي الموجه ولم يكن تابعا :

ومثل النابغة أشعار دختنوس بنت لقيط ، التي لم تسهم في هذه الحرب بساعدها ، لكنها لم تقصر بشعرها ، حتى أن قصائدها في عبس كانت أشد عليهم من وخز الرماح ، وبخاصة قصيدتها التى احتقرت فيها عبسا ، فلم تعتبر قتلهم لأبيها ثأرا لأن قاتليه من بنى عامر ، فالثأر في عامر ، ولو أن عبسا هي التى قتلتـه لكان قتلهم له « من القتل المجدع للعلى » (٢) .

وفي القصيدة الثانيـة عرضت بالعبسيين وشهرت بهم بين القبائل ، يوم فعلوا بلقيط فعلتهم النكراء بعـد أن قتله شريح الغامري ، وراحت عبس تمر به وتضرب وجهه بسيوفها وهو

(١) يلاحظ موقف النابغة فى الفصل الخامس

(٢) ابو عبيدة - النقائض ١ / ٦٥٩

ميت (١) ، فكان هذا من اوقع الشعر في النفوس : واضم الى هذه الطائفة اشعار النساء عامة ، لأنه شعر تفجع وتوجع ومناحات او شعر دعوة واثارة واحقاد .

أما الطائفة الثانية فهي التي تضم شعراء الدعوة السلمية الذين جعلوا منها ديدنهم ، فكان همهم وقف القتال والسعي في رأب الصدع : فهم يقفون مجدين مع كل عمل فيه حقن لدماء القوم ، وانقاذ للحرث والنسل . ويتمثل ذلك بصدق في شعر زهير بن أبي سلمى (٢) ، ومثله الربيع بن ضبيع وشبيم بن خويلد الفزاري ، الشاعر الذي تمسك بالسلم والصلح ، ولم يحد عنه حتى عندما فعل حصن بن ضمضم فعلته بخرق بنود الصلح ، وهبت عبس للقتال مرة أخرى : فانه يعترف بالظلم ويحث قومه الا يقروا حصنا بهذه المظلمة ، ويذكرهم بالقسم الذي أقسموه ، وبالذمم التي أخذوها على أنفسهم : ويدعوهم أن يزيلوا عن نفوس القوم ما أحدثته يد المعتدي ، وينذرهم أن حربا ذميمة تأكل الجزل والضرم تنتظرهم (٣) :

يا قومَنا لا تغرّونا بمَظلَمةٍ يا قومَنا واذكروا الآلاءَ والذِمما
في جارِكم وابنِكم اذ كان مقتَلُه شنعاءَ شيّبتِ الأصداغَ واللِمما

(١) المصدر السابق

(٢) انظر حديثنا عنه في الفصل الخامس

(٣) ابو عبيدة ـ النقائض ١ / ١٠٦

عنِّ المسود بها والسائدون فلم تعرف لها غيرنا مولى ولا حكما

الى أن يقول :

أأن أجارَ عليكم لا أبا لكمُ حصنٌ تقطّر افاقُ السماءِ دما

أدّوا ذمامة حصنٍ أو خذوا بيدٍ حربا تحشُّ الوقودَ الجزلَ والضرما

* * *

المجموعة الثالثة :

شعراء هـذه المجموعة ليسوا محاربين ، ولا دعاة سلام ، ولكنهم أخلاط من عشائر القبيلتين ، وبطونها ، لا هم لهم سوى أن يعير بعضهم البعض الآخر . وأكثر ما يعيرون قومهم لنزاع داخلي . وربما اشترك في هـذه المجموعة شعراء القبائل الأخرى التي شاركت في هذه الحرب . ولا يخفى أن هذا الشعر كان له أثره السيء في ادامة الحرب واستمرارها .

فاذا تهاجى شاعران من فزارة نفسها مثـلا عير أحدهما الآخر بعجزه عن ادراك ثأره لأحد أفراد بيته في يوم من أيام داحس . وقـد يحمل هـذا الهجاء الشاعر الى أن تتأجج في نفسه نار فتنة جديدة . وربما استمرت هذه الحالة والاسلام قائم . قال زبان بن سيار يهجو بني بدر ويعيرهم بيوم « الهباءة » وهم قومه (١) :

---

(١) المفضليات ص ٦٩٣ وابو عبيدة - النقائض ١ / ١٠٦

ألم يَنه أولادَ اللقيطةِ علمُهم بزّهانَ اذ يهجُونَهُ وهو نائمُ
يطيفون َبالأعشى وصُبّ عليهم لسانٌ كصدرِ الهندُواني صارمُ
وان قتيــلا بالهباءةِ في استهِ صحيفتُه ان عادَ للظــلم ظالمُ
متى تقرؤهاتَهدكُمْ من ضلالِكمْ وتُعرفْ إذامافُضّ عنهاالخواتمُ

وظل الشعراء الهجاؤون يؤدون هذه المهمة التي من شأنها أن تثير الاحقاد ، فقال عقيل بن علفة المري يعير بنى بدر أيضاً بيوم « الهباءة » والمريون حلفاء الفزاريين ومن قومهم (١) :

ويوقدُ عوفٌ للعشيرةِ نارَها فهّلا على جفرِ الهباءةِ اوقدا
فان على جفر الهبــاءة هامةً تنادى بني بدر وعارا مخلّــدا

وينهض شاعر آخر من عبس ، يعير بنى جذيمة بعار اللطمة التي أصابت الفرس على ذات الأصاد ويذكرهم بالأذى والهوان ومنع السبق عنهم (٢) :

وان الرباطَ النكدِ من آلِ داحسٍ
لُطِمنَ فما يُفلحْنَ يومَ رهــانِ
جلَبنَ باذنِ اللهِ مقتــلَ مالكٍ
وطرّحنَ قيسا من وراءِ عُمــانَ
لُطِمْنَ على ذاتِ الاصادِ وجمُعكمْ
يرونَ الأذَى من ذلّــةٍ وهوانِ

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد ٣ / ٧٠

(٢) ابو تمام - ديوان الحماسة (المرزوقى) ١ / ٤٥٠

سيُمنعُ منكَ السبقُ ان كنتَ سابقا

وتُقتلُ ان زلّتْ بكَ القدمانِ (١)

ان الشعراء الذين شاركوا في هذه الحرب كثيرون ، غير أننا نتناول بالدراسة منهم من عثرنا لهم على مجموعة طيبة ، بقيت من شعرهم . اما غيرهم ، فسنقتصر على النماذج الشعرية التى وجدناها لهم وذكرت في الدراستين الفنية والموضوعية :

* * *

---

(١) إن بين لطمة الفرس في ذات الاصاد وتطويح قيس في عمان أربعين عاماً كما يقول التاريخ ، فلابد أن قول الشاعر هذا متأخر والظاهر انه قيل بعد ذهاب قيس الى عمان ومفارقته لقومه

قيس بن زهير

هو قيس بن زهير بن جذيمة بن رواحـــة العبسي ، يكنى أبا هند (١) ، شاعر ، فارس ، عرفت منه الشجاعة في كل موقعة حربية فجعلته عبس رئيسا لها بعد مقتل أبيه . وهو أحد طرفي النزاع مع حذيفة بن بدر ، رئيس ذبيان ، عند بدء الرهان ، وآخر السباق ، حتى وضعت الحرب أوزارها . وقد اشتهر بجودة الرأي ، حتى سمي بقيس الرأي . فقـــاد قومه في حروبهم وغاراتهم . وكان داهية في التخطيط الحربي ، حتى ضرب به المثل فقيل : « أدهى من قيس » (٢) . وقد بلغ من دهائه وجودة رأيه أنه مر ، ومعه الربيع بن زياد ، ببلاد غطفان ، فلم تغره ثروتها وعددها فقال له الربيع : « أيسوؤك ما يسر الناس » فقـــال قيس : « لا ولكن مع الثروة التحاسد والتباغض ، ومع القلة التعاضد والتآزر » . ومواقفه التاريخية في القيادة الحربية جعلته معدودا في الخالدين . ففي حرب « جفر الهباءة » لجأ الى خدعة أنقذته وأنقذت قومه ، يوم تجمعت ذبيان وأحلافها ، فمزق تجمعهم واكتسب النصر : ذلك أنه عمـد الى المال والنساء فسرحهم جميعا ، وسرح معهم

---

(١) الزمخشري - المستقصى من أمثال العرب ١ / ١٢١

(٢) ابن قتيبة - عيون الأخبار ٤ / ١١

من لا يقدر على حمل السلاح ، ثم سيرهم بعيدا ، وأبقى الرجال والمقاتلين . فلما أقبل العدو أخذ طريق المال ، فلما انشغلوا في سلبه وتمزقت وحدتهم ، أعمل قيس فيهم السيف ، حتى ناشدتهم ذبيان وأحلافها البقية ، فاسترجع قيس ماله ، وسبى ، وأسر ، وغنم . وهو صاحب المشورة ، يوم «شعب جبلة» ، عند قدوم ذبيان وأحلافها ، فاستجاروا بالجبل وأحكموا الخطة ، حتى اذا أقبل العدو انطلقت الجمال من أعالى الجبل نحو العدو ضاربة بخفها وهي تنحدر ، كل حجارة أو صخرة . والمقاتلة من ورائها ، تضرب من تمر بهم ، حتى كانت الهزيمة نكراء في ذبيان وحلفائها . فالجبل حصن منيع ، والقائد الذكي يستطيع أن يتخذ منه وسيلة لنصر محقق . وقد سبق في قصة الحرب ذكر هذا كله ولا داعي لتكراره :

وفي صفة قيس ، ذكر القدماء ، أنه كان «أحمر : أعسر : أيسر : بكر بكرين» (١) ، وكانت العرب تتشاءم من هذه الصفات . ولم يؤثر ذلك في شخصية قيس : فالحروب التي خاضها لم تكن من صنع يديه ، انما هي مرحلة حياة كان لها أسبابها ، وقد مر بها عرب الجاهلية ، وهي التي أملت عليهم هذا اللون من الحياة ، فضلا عن طبيعة النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي كان البدوي يعيشه ، وكذلك الحضاري على حد

---

(١) المرزباني معجم الشعراء ١٩٧

سواء. ولعل قيس بن زهير خفف كثيرا من آلام قومه ، بسبب حكمته ، ودرايته ، وحسن تدبيره . ولو لم يكن قيس على مسرح الأحداث لكان سواه ، ولكانت حياتهم مع غيره أكثر معاناة .. . الم تكن القبائل في كل أرجاء الجزيرة تتطاحن في حروب وأيام مستمرة ، وكانت حرب داحس من أشدها ضراوة ؟ !

وقيس ابن زعيم ، دانت له غطفان كلها ، اجتمعت عليه ، ولم تجتمع على أحد قبله ولا بعده في جاهلية ولا اسلام (١) ؛ وكان أبوه زهير أبا لعشرة ، وأخا لعشرة ، وكانت له علاقة حسنة بملوك الحيرة حتى أنه زوج أخته لأحدهم ، والتي اشتهرت فيما بعد «بالمتجردة» وقد قتل على يد خالد بن جعفر بن كلاب العامري (٢) .

وكان قيس فخورا ، بلغ من فخره ، أن قريشا أجارته ، عندما التجأ اليها في مشاحنته للربيع بن زياد العبسي ، بسبب الدرع التي غلبه الربيع عليها : فكرهت قريش مفاخرته ، ومل هو ذلك ، فتركهم مستجيرا بفزارة قبل حربه معهم ، فأجاره حذيفة بن بدر وظل في جوارهم ، حتى تفاخرا في الخيل وتجاريا ووقع النزاع فنشبت الحرب :

---

(١) المصدر السابق

(٢) ابن الأثير الكامل ١ / ٥٥٦ ، ٥٦٥ بيروت .

واشتهر قيس بحزمه ، حتى ان الحطيئة كان يعادله بألف حازم ، عندما سأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه : كيف كنتم في حربكم ؟ قال الحطيئة : كنا ألف حازم ، قال كيف ؟ قال : كان فينا قيس بن زهير ، وكان حازما ، ولا نعصيه ، فكأنا ألف حازم ، وكنا نقدم باقدام عنترة ، ونأتم بشعر عروة (١) .

« وفي كتب الأمثال طائفة من أقوال قيس ، ذهبت مثلا بين الناس ، قالها في مناسبات متعددة خلال حربه وسلمه » .

واختلف الرواة في نهاية قيس ، والثابت أنه عاصر الحرب منذ البداية حتى يوم أشار عليهم بالصلح ، والرجوع الى أرض غطفان . وانطلق الى قوم النمر بن قاسط وتزوج فيهم . وانجب ولدا سماه « فضالة » وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وعقد له على من معه من قومه وكان تسعة هو عاشرهم . وقد اغترب قيس في حياته كلها اغتراباً مؤلماً ، قال التبريزي : « غربة كغربة قيس بن زهير والحارث بن مضاض ، وهي اشد غربة واطولها » (٢)

---

(١) المرزباني ص ٨٤

(٢) ابن حجر - الاصابة ٣ / ٢٦٦ رد على غلط الرواة بأن قيسا مات في خلافته عمر وذكر أنه مات قبل البعثة . ابن الاثير الكامل ١ / ٣٥٥ والتبريزي في شرحه لديوان أبي تمام تحقيق محمد عبده عزام طبع مصر دار المعارف . وجاء قوله المذكور عندما فسر قول أبي تمام في البيت الآتي :

غربة تقتدي بغربة قيس بن زهير والحارث بن مضاض

ومن أقواله ، عندما أراد مجاورة قوم النمر : « اني قد جاورتكم واخترتكم فانظروا لي امرأة قد أدبها الغنى ، وأذلها الفقر في حسب وجمال » ثم قال : « ان فيَّ خلالا ثلاثا ، اني غيور ، واني فخور ، واني أنف ، ولست أفخر حتى أبدا ، ولا أغار حتى أرى ، ولا آنف حتى أظلم » « . ولما أراد الرحيل عنهم قال لهم : » اني موصيكم بخصال وناهيكم عن خصال ، عليكم بالأناة ، فان بها تنال الفرصة ، وتسويد من لا تعابون بتسويده ، وعليكم بالوفاء ، فان به يعيش الناس ، وباعطاء من تريدون اعطاءه قبل المسألة ، ومنع من تريدون منعه قبل الالحاح ، واجارة الجار على الدهر ، وتنفيس المنازل عن بيوت الأيامى ، وخلط الضيف بالعيال . وانهاكم عن الرهان ، فان به ثكلت مالكا أخي ، والبغي فانه صرع زهيرا أبي وحملا ، والسرف في الدماء فان قتل أهل « الهباءة » أورثني العار ، ولا تعطوا في الفضول فتعجزوا عن الحقوق ، ومنع الحرم الا من الأكفاء ، فان لم تصيبوا لها الأكفاء فخير منازلها القبور ، واعلموا اني كنت ظالماً ومظلوما ظلمني بنو بدر بقتلهم مالكا ، وظلمتهم بأن قتلت من لا ذنب له (١) » وهذه العبارات تعد وثيقة صريحة تدين النظام الاجتماعي في الجاهلية ، وتبرز الوجه الانساني الرائع للاسلام .

---

(١) الشريف المرتضى - الأمالي ١ / ٢٠٨ وابن ابي الحديد - شرح نهج البلاغة ٤ / ١٥١ .

وقيل في نهايته ، أنه خرج من قوم النمر بن قاسط واتجه نحو عمان ، وأقام فيها متبتلا مترهبا يرتدي المسوح ، ويرافقه صاحب له من بني أسد يقال له « رافع بن المعتصم » ، وقيل أنهما خرجا مرة يسيحان في الأرض يتقوتان مما تنبت . الى أن دفعا في ليلة برد الى أقبية اشتد بهما الجوع فسعيا نحو رائحة شواء فلما قارباها أدركت قيسا شهامة النفس ، فقال لصاحبه « دونك وماتريد » فان لي لبثا على هذه الأجارع ، أترقب داهية القرون الماضية . فمضى صاحبه ، وعندما رجع في الصباح ، وجده قد لجأ الى شجرة في اسفل الوادي ، فنال من ورقها شيئا ، ثم مات فقال الحطيئة (١) :

ان قيسا كان ميتتُهُ ... أنفا والحرُّ منطلقُ
شامَ نارا بالِلوَى اقتَدَحَتْ ... وشجاعُ البطنِ يَختَفِقُ (٢)
في دريسٍ لا يُغيِّبُهُ ... ربَّ حرٍ ثوبُهُ خلِقُ

---

(١) الخالديان ـ الاشباه والنظائر ١/١٢٩ وسرح العيون ص: ١٤٠ .
ولعل هذه النهاية هي التي حدت بالأب لويس شيخو اليسوعي أن يلحق قيس بن زهير بشعراء النصرانية ، على رأي من تنصر في أخريات أيامه ولم يسلم ، إن كان ادرك الاسلام .

(٢) الشجاع الافعوان ، والمعنى أن افعوان الجوع يختفق في بطنه ، وهذا من أوابد العرب حيث يعتقدون أن الانسان اذا اشتد به الجوع تحرك الافعوان في بطنه .

وقيل بل مات مقتولا على يد « حوج بن مالك العبدي » الذى لقيه مترهبا فعرفه فقتله وقال : « لارحمني الله ان رحمتك » (١)

وتنتهي حياة هذا الرجل الفذ ، وقد حدد له صاحب كتاب الأعلام تاريخ وفاته في سنة ٦٣١ ميلادية = ١٠ هجرية (٢) :

شعره :

الصفة الغالبة في شعر قيس بن زهير ، انه شعر مقطعات أما القصائد فقليلة ، وحتى هـذه ، فان اطولهن يبلغ عدد أبياتها واحدا وعشرين بيتا (٣) ، وله قصيدة أخرى من أحـــد عشر بيتا (٤) وثالثة في تسعة (٥) أبيات ، ورابعة مثلها (٦) ، وخامسة

---

(١) ابن الاثير ـ الكامل ١ / ٣٥٥

(٢) الزركلي ـ مادة « قيس » .

(٣) المفضل الضبي ـ امثال العـــرب ص ٣٢ والعيني شرح الشواهد الكبرى ١ / ٢٣٠ .

(٤) ابو حاتم السجستاني ـ كتاب المعمرين ص : ١٤٥

(٥) المفضل الضبي ص ٣٦ وأبو عبيدة ـ النقائض ١ / ٩٦ والاغاني ١٧ / ١٣٨ .

(٦) المفضل الضبي ص ٣٨ وابو عبيدة ١ / ١٠٠

من ثمانية أبيات (١) وسادسة من سبعة أبيات (٢) ، ومقطعات يتراوح عدد أبياتها بين الستة الابيات والبيتين وهي لا تتعدى عشر مقطعات (٣) :

ولا يعني هـذا أنه ليس لقيس شعر غيره ، لأن الـذي أحصيناه يتعلق بهـذه الحرب فقـط . ولقيس شعر غيره في مناسبات أخرى ، بعضها حربية لا تمس حربنا ، والبعض الآخر يتعلق بشؤون الحياة العامة . وجميع هـذا الشعر لم يدخل في احصائية هذه الحرب . والواقع ، أن شعر قيس بن زهير جدير بالجمع والتحقيق والدراسة ، ففيه مادة وفيه خبر ، كما أن له صفـة متميزة يلاحظها المتصدي لدراسة الشعر الجاهلي عامة والحرب بصفة خاصة ، كما ستظهر لنا خلال هذه الدراسة : والذى أحصيناه ليس كل شعره ، بل المتعلق منه بحربنا ، ولم نتطرق في الدراسة الى غيره . لكن هذه الحرب استأثرت بثلثى شعر قيس تقريباً .

---

(١) المفضل الضبي ص ٤٠ وابو عبيدة ١ / ١٠٢

(٢) المفضل الضبي ص ٣٩ وابو عبيدة ١ / ١٠٢ .

(٣) المفضل ص ٣٢ وابو عبيدة ١ / ٩٢ - ٢ / ٦٧٠ والمفضل بن سلمة - الفاخر ص ٢٢٢ وابو تمام - ديوان الحماسة (المرزوقي) ١ / ٢٠٣ و ٤٦٩ (والتبريزي) ٣ / ٢٤ والخالديان - الاشباه والنظائر ٢ / ٢٦٨ - وابن الاثير - الكامل ١ /٣٤٨ و ٣٥٣/٣٠ .

ان الناظر في شعر قيس بن زهير يرى أن طابع الحماسة والفخر غالب عليه : وهو أمر ليس بغريب عنه ، فالرجل خاض غمار حرب طويلة ، أخذت أربعين عاما من عمره ، عاش لها وكان أحد فرسانها المجلين ، يكتب مع اخوان له في السلاح سطورها ، ويفكر ويدبر ، وكلما خرج من بلاء وجد ان الدهر أعد له بلاء جديدا : فما أحرى بشاعر مثل قيس ، أن يكتب شعرا يصور فيه هذه الحرب ، ومن يدري لعله فعل فكتب القصائد الطوال التي تحكي جوانب حروبه وأيامه ، ولكن الزمن عفى عليها . : لا سيما وانه لم يبق لنا منه سوى هذه الشذرات ، نحاول أن نصنع منها شيئا يصل بنا الى حقيقة ، أو الى شيء نستطيع أن نطمئن اليه :

والمادة التي يتألف منها الفخر في شعره مستمدة من أحداث الحرب اليومية ، يدعمه واقع الحال ، فلا يجيء بما يوحي أنه ادعاء ، أو قريب منه ، بل هي شواهد قائمة ، لها ما يؤيدها : ففي رثائه لأخيه القتيل ، يستهل القطعة بأبيات في الفخر ، فيعطى كل المناسبات التي يفتخر بها الأقران ، وكانت ذبيان قتلت أخاه مالكا فقتل بـه اخـاهم عوفاً . ولذلك فهو يجري الموازنة بين الأخوين ، أخيه وأخيهم ، ويخرج بالنتيجة التى مهدت لها مقدماته ، وهي أن قتله اخاهم وخير سعد معه ، هو البديل الوحيد ليبوء دم مالك أخيه فقال (١) :

---

(١) المفضل الضبي - أمثال العرب ص : ٣٩

أخي واللهِ خيرٌ من أخيكم اذا مالم يجد بطلٌ مقاما
أخي واللهِ خيرٌ من أخيكم اذا مالم يجد راعٍ مساما
أخي والله خير من أخيكم اذا الخفرات أُبدين الخداما(١)
قتلتُ به أخاك وخيرَ سعدٍ فانْ حرباً حذيفُ وان سلاما

ومع أن المناسبة تتطلب الرثاء والدموع ، لكن قيسا كما ترى بعد قليل لا يبكي قتلى قومه ، بل ان رثاءه فخر لهم . وهذه صفة المحارب من شعراء الجاهلية .

واقتران الفخر بالحماسة ظاهرة عامة مألوفة في الشعر الجاهلي : وهي تتجلى في شعر قيس بن زهير بصورة واضحة . ولكنه قد يفخر بقومه وبنفسه ، ثم يعرج فيعرض بعدوه ويمدح قوماً آخرين ، يتم هذا كله في آن واحد ، وفي قصيدة واحدة : وهو شيء كثير الورود في شعر الحرب ، غير أن التنقل بين الأغراض المختلفة ، في القصيدة الواحدة ، دون سابق ارتباط ، يكون أحيانا مفاجئا ، مما يوحي وكأن أبياتا في القصيدة لم يذكرها الرواة ، أو سقطت فأحدثت هذه الثغرات أو الفجوات ، وكان من حقها أن تُذكر بين الأغراض المختلفة ، لكي يكون التنقل منطقيا .

(١) الخفرات النساء فى الخدر . وابدين الخداما أي رفعن عن ساقهن ايذانا بخطر وهي عادة المرأة فى حرب او غارة والخدام والخلخال ، وقد تسمى الساق حملا عليه . وهنا كناية عن الحرب أو عن الفضيلة .

فليس معقولا أن يكون الانتقال بمثل هذه السرعة لا سيما ونحن نلاحظ أن أغلب القصائد الجاهلية للطوال بل حتى القصار منها تمهد للغرض قبل أن تنتقل اليه . ومع ذلك فان الحالة في شعر الحرب مختلفة جدا ، لأن طبيعة هذا الشعر تفترض الايجاز ، وان التماس الغرض مباشرة ، غالبا ما يكون في قصائد الحرب ، لكي يؤدي الشعر مهمته بمثل ما تكون الحرب سرعة ومضيا ؛ فالشاعر المحارب غير للشاعر الفنان ، فذاك يقول الشعر ليخدم به المعركة ويصل الى الفوز الذي هو بغيته قبل أي شيء آخر ، وهذا يقوله لأجل الشعر نفسه . الأول يتخذه سلاحا والثاني يتخذه صنعة وفنا ، فلا غرو اذا ما قصر باع الأول وبرز الثاني.

وتعليل آخر نراه أكثر شمولا لهذه الظاهرة ، ظاهرة الانتقال السريع بين الأغراض المتنوعة خلال القصيدة الواحدة ، مرده ان الرواة لم يذكروا القصيدة كاملة أو هكذا وصلت اليهم ، فانها أحيانا تصل اليهم وقد خرج منها أبيات ، فالذي ينظر الى دالية قيس بن زهير يخرج منها بعدة ملاحظات :

على الرغم من أن القصيدة قيلت في أيام متأخرة من حرب داحس والغبراء ، فان قيس بن زهير بدأها في ذكر المشاحنة على الدرع مع ابن عمه للربيع بن زياد العبسي ، فقد أخذها منه الربيع أو غلبه عليها ، فاستاق قيس بدلها من ابل الربيع أربعمائة ، وباعها لعبد الله بن جدعان القرشي ، واشترى بأثمانها أفراسا

وسلاحا :

أَلَم يَبلُغكَ والأنبــاءُ تُنمِي   بما لاقتْ لَبُونُ بني زيادِ (١)

وَمَحبِسُها على القُرشيّ تُشرَى   بأدراعٍ وأسيافٍ حِــدادِ

ثم يفجؤك بأول الرهـان ، وبـدء الحرب مما يدل على أن قضية « الدرع » كانت عنده أعظم بكثير من قضية « لطم الفرس » ورده عن الغــاية ، لا سيما وأن الأمر لم يصل حتى اللحظـة الى سفك دمـاء ، وانما قيـام بني بدر بالتفاخر عليه وردهم لفرسه ولجوئهم الى الخديعة . بينما كان الأمر بالنسبة لقضية الدرع قد بلغ حد استياق اربعمائة من ابل الربيع ، وقتل رعائها (٢) ، لذلك فهو بالنسبة لبني بدر لم يفعل أكثر من امتنـاعه عليهم ، ودفعه للخسف بالسيوف ، ثم يبــدأ بالتوعد مقتصـدا في كلامه على عادة الفرسان :

كما لاقيتُ من حَمَلِ بنِ بدرٍ   واخوتِهِ على ذاتِ الاصادِ

همُو فَخروا عليَّ بغيرِ فَخرٍ   وذادوا دَون غايتِه جــوادي

وقالوا قـد قمرناهُ خِداعــاً   وأينَ الخَدعُ من مائةِ الجيادِ

كرهنا أن يُقَرَّ الخَسفُ فينا   دَفَعنَا بالمُهنَّدةِ الحِــدادِ

فهلا يا حـذيفَةُ عن بنــاتي   فانَّ القولَ مقتَصدٌ وعـادي

ومن خلال توعده ينتقل الى الفخر ، وليس في انتقاله الى

---

(١) المفضل الضبي ـ أمثال العرب ص ٣٢ وابو عبيدة ـ النقائض ١ / ٩٦

(٢) العيني - شرح الشواهد الكبرى ١ / ٢٣٠

الآن ما يشعر بسقوط أبيات من القصيدة :

وكنتُ اذا مُنيتُ بخصمِ سوءٍ   دَلَفْتُ له بداهيةٍ نآدِ
بداهيةٍ تدقُّ الصلبَ منه   فتقصِمُ أو تجوبُ عن الفؤادِ
وقد دلفوا اليَّ بفعلِ سوءٍ   فألفوني لهم صعبَ القيادِ
وكنتُ اذا أتاني الدهرُ ربقٌ   بداهيةٍ سَدَدْتُ لها بجادي
ألم يعلمْ بنو الميقابِ (١) انّي   كريمٌ غيرُ معتلثِ الزنادِ

أما الأبيات التي ختم بها القصيدة ، فيبدو أنها نظمت في زمن متأخر عن الأبيات السابقة ، بل ان بين الأبيات السابقة والتي سوف تليها ما يقرب من ثلاثين عاما أو يزيد ، لأن الخصومة بسبب الدرع كانت قبل الحرب . وعندما جرى الرهان كان الربيع مشاحنا لقيس ، كما وضح في الشعر ، وقصةِ الحرب . وبدء القتال ، ومرت أعوام طوال ، كان بعدها يوم « جبلة » ، ومعارك أخرى ، التجأ بعدها قيس والربيع الى ربيعة بن قرط ، وكان يسمى « ربيعة الخير » وكان ذلك كله بعد حرب « جبلة » ، باتفاق جميع المصادر :

قال أبو عبيدة (٢) : « وكان قيس جاور ربيعة بن قرط بعد وقعة « جبلة » وربيعة هذا هو الذي عقد حِلف بني عبس مع بني بكر بن ابي كلاب . واذا فتاريخ الأبيات التى ختمت

(١) الميقاب : التي تلد الحمقى

(٢) النقائض ١ / ٤٠٨ والتبريزي - شرح ديوان الحماسة ٣ / ٢٧

بهـا القصيدة ، وسنذكرها بعد هذه السطور ، يبتعد كثيرا عن تاريخ الأبيات التي ذكرناها .

وعلى هذا يرجح الرأي عندنا أنها قيلت فيما بعد . ويتأيد لدينا أن بعض القصائد الطوال ـ مثل معلقة عنترة ـ يظل أصحابها يضيفون اليها مع مر الزمن ، الأمر الذي يفسر تباعد الاحداث في بعض أبياتها . وهذه القصيدة التي نحن بصددها توضح ذلك ، فاذا انبرى قائل يقول : وما يمنع أن تكون القصيدة كلها قيلت بعد يوم « جبلة » ، أو بعد مجاورة ربيعة بن قرط ، قلنا أن طبيعة الاشياء ووقائعها تأبى هذا . ذلك أن حرب داحس بعد مجاورة قيس لربيعة بن قرط قربت من نهايتها . فأية جدوى من ذكر حـادثة تافهـة مثل حادثة الدرع وتقديمها على حرب عظيمة في غطفان والقبـائل المجاورة ؟ ثم ما الذي يدفع قيسا أن يعود الى هذه الحادثة ، وقـد اصطلح مع الربيع بن زياد ، وهما الآن يد واحدة على عدوهم ؟ فالراجح أن القسم الأول ، ويضم أبياتا في حـادثة الدرع ، قيل قبل أول أيام الرهان ، وقيس ما يزال مشاحنا للربيع .

أما الأبيات الأخيرة فانها قيلت بعد مجاورة ربيعة ، وقـد مضى على الحرب نحو من ثلاثين عاما . ثم اضيفت الى القصيدة فيما بعد ، وفيها مدح لربيعة ، ووصف لحال قيس ، وقد طوف في البلاد ، خلال سنوات الحرب وتألب القبـائل عليـه وخوفه

من كل شيء يحيطه أو أرض يهبطها . لكنه ما ان استجار بربيعة وشعر أن خيوله وفرسانه تطوف حوله كالجوارح ، أحس بالأمن والاستقرار فأناخ راحلته وكأنه يعقلها الى جبل :

أطَوِّفُ مـا أطوِّفُ ثم آوي الى جارٍ كجارِ أبي دُوادِ (١)
المِلكَ ربيعةَ الخيرِ بن قُـرطٍ وَهُوبا للطريفِ وللتِـلادِ (٢)
كفانى ما أخـافُ أبو هلالٍ ربيعةُ فانتهتْ عنى الأعـادى
تظلُّ جيادُه يَجمُزنَ حولى بذاتِ الرمثِ كالحدأ الغوادى(٣)
كأنى اذ أنختُ الى ابنِ قُرطٍ أنختُ الى يلملمَ أو نَضادِ (٤)

وقد فطنت بعض المصادر الى هذا الخلط ، وحاولت أن تعطى حكماً غير مباشر فيه ، بأن فصلوا أبيات الهجاء في الربيع وحمل بن بدر عن أبيات المديح في ربيعة بن قرط . فذكروا

(١) جار أبي دواد اختلفت الروايات في تسميته ففي النقائض المصدر السابق انه هـلال بن كعب بن مالك وفى الشعر والشعراء ٣ / ٢٣٨ قال ابن قتيبة « وكان ابو عبيدة يذكر ان جار أبي دواد كعب بن مامة » وفي شرح ديوان الحماسة قال التبريزي ٣ / ٢٧ « ان جار أبي دواد الحارث بن همام » .
(٢) ويروى البيت منيع وسط عكرمة بن قيس ـ نقائض ١ / ٤٠٨ .
(٣) ذات الرمث موضع والحدأ جمع حدأة وهى طائر جارح .
(٤) ابن قرط هو ابو هلال ربيعة الخير المذكور في البيت الأسبق . ويلملم ونضاد جبلان .

الأولى اول ايام الحرب ، وذكروا الثانية في موضعها من القصة عند لجوء قيس الى ربيعة . وبذلك يتجنبون اختلافها ولعلها هي الرواية الصحيحة (١) : غير أننا لا نستبعد كونها قصيدتين اتفقتا وزنا ورويا ، غفل عنها الرواة او اخطأ بها الناسخون عن جهل : ونستبعد أن يقع في هـذا الغلط او السهو عالم مثـل أبي عبيدة وغيره ، وهو الذي كان في بيته ديوان العرب .

وقيس عندما يفتخر ، لا ينسى أنه لم يبلغ ما بلغه الا بقبيلته وقومه ، ولولاهم لكان نسياً منسيا : وقـد علمته حادثة الدرع مع أبناء عمه درسا لن ينساه : ولذلك كله يحرص على وحدة قومه بعدئذ ، فلم يفرط بأحـد : وقــد انعكست هذه العصبية وآثارها على نفسه بشكل جعله يلتزم بها حتى النهاية : ولا غرابة فالشاعر الجاهلي يعبر بصدق عن مفاخر قومه ونفسه ، وبالأخص

---

(١) المفضل بن سلمة .. الفاخر ص ٢٢٠ والميداني مجمع الأمثال ٢ / ٥٨ وذكرها العيني في شرح الشواهد الكبرى ١ / ٢٣٠ كلها في الربيع بن زياد حول حادثة الدرع ولم يذكر أبيات المدح في ربيعة بن قرط وزاد عليها الأبيات التالية :

جزيتُكَ يا ربيعُ جزاءَ سوءٍ وقــد تُجزى المقارضُ بالأيادي

وما كانت بفعلةِ مثـل قيسٍ وان تكُ قــد غدرتَ ولم تغادِ

أخذتَ الدرعَ من رجلٍ أبيٍّ ولم تخشَ العقوبةَ في المعـادِ

ولولا صهرُ معـنىً لكانتْ به العثراتُ في سوءِ المقـادِ

اذا كان رئيسا لقبيلة ، فان اشادته بكل أمجادها وفخره بتاريخها فرض عليه قبل سواه . اذ أن كل قول يقوله يسير في القبائل ويتنقل بين مجتمع شبه الجزيرة ، ويؤخذ عنه اكثر مما يؤخذ عن شاعر آخر ، او فرد من افراد القبيلة نفسها . فالظلم الذي أصابه من ذبيان ابت عبس كلها أن تغمض عينها عنه ، وان جاء الاحتجاج على لسان قيس :

كَرِهْنَا أن يُقرَّ الخَسفُ فينا دفَعْنا بالمُهنَّدةِ الحِدادِ

ومن هنا نستخلص تعليل الظاهرة البارزة في قصة الحرب وهي أن قيس بن زهير يسجل أحداث الحرب ووقائعها أولا بأول ، مراعيا جميع الاعتبارات المذكورة في الرئاسة والفخر والحماسة . وهو حتى في الهجاء يعبر بلغة الجمع عما في النفوس (١) :

تعَرَّفْنَ من ذبيانَ مَنْ لو لقيتُهُ
بيومِ حفاظٍ طارَ في اللَّهواتِ
ولو أنَّ سافِي الريحِ يَجعلُكم قَذًى
لأعيننا ما كنتمُ بِقَذَاتِ (٢)

---

(١) الخالديان ـ الاشباه والنظائر ٢ / ١٩٨ والحماسة البصرية ـ « باب الهجاء » وابن نباته ـ السرح ص ١٢١

(٢) سافي الريح : الريح التي تسفي التراب . والبيتان تصغير لشأن ذبيان .

ولعل شعر الرثاء عند قيس متميز بخصائص ، لم نجدها عند غيره من الشعراء . ورثاءه الذي جمعناه يدخل في دائرة الفخر والحماسة بلا نزاع ، بل يكاد يكون فخرا وحماسة ، يرفع من شأن القتيل ويفضله على من سواه من اعدائه . ثم يعد بأخذ ثأره متهددا ، ثم يتطرق لذكر الأمجاد ، كأنه بذلك يذكر خصومه بما أنزله فيهم من العذاب . أما التوجع والدموع فليس لها في شعره أثر ، وقد تقدم ذكر الأبيات التي قالها في أخيه مالك وهي تصور هذه الخصائص :

أخي واللهِ خيرٌ من أخيكم   اذا مالم يجد بطلٌ مقاما

ويتكرر الأمر نفسه في رثائه لقرواش بن هني عندما ظفرت به فزارة وقتلته فقال قيس يرثيه (١) :

مالي أرى ابلي تحنُ كأنها   نَوْحٌ تَجاوبُ موهنا أعشارا (٢)

هذا الآلم الدفين ، وهذا الحزن الموجع ، أبت أنفة صاحبه أن يفصح عنه ، فنقله الى ابله التي يقتلها الحنين والشوق الى أرض الوطن في جنوب «مويسل» وغيرها . ولكن ما وقع يمنع ذلك ، وقد أصاب منهم قوماً كثيرين . وكأنه بذلك يرد عليهم فخرهم بقتل قرواش . ثم يعود الى حديث الثأر والتهديد ، فوعد

---

(١) المفضل الضبي .. أمثال العرب ص ٣٩

(٢) نوح نساء ينحن والاعشار جمع عشر وهو ان يرد الماء في اليوم التاسع . والموهن بعد صدر من الليل

بالغارة والتزاور فوق ظهور الخيل :

لن تهبطي ابداً جنوبَ مويسلٍ
وقَنا قُراقرتين والأمـوارا

أجهلتِ من قومٍ هرقْتُ دماءهم
بيدي ولم أدهم بجنبِ تعارا (١)

ان الهوادةَ لا هوادةَ بيننا
الا التجاهدُ فاجهدنَّ فزارا

الا التزاورُ فوقَ كلِ مقلصٍ
يهدي الجيادَ اذا الخميسُ أغارا

فلأهبطنَّ الخيلَ حرَّ بلادكم
لَحُقَ الأياطلِ تنبذُ الأمهارا (٢)

حتى تزورَ بلادكم وترى بها
منكم ملاحمُ تخشعُ الابصارا (٣)

وفي رثاء قيس تبرز ظاهرة « الانصاف » واضحة ، فلقد وقف بعد معركة « جفر الهباءة » وقد أفزعه مشهد الدماء تجري سيولا في أرض غطفان ، وعز عليه القتيل برغم عداوته

---

(١) ادهم ادفع ديتهم

(٢) لحق الاباطل اللاحقة الظافرة وهي الخيل اذا ضمرت

(٣) الملحمة الحرب ذات القتل الشديد ، الحرب العظيمة .

فجعل يرثيه . وهو اول شاعر يرثي مقتوله (١) :

تعلّم أن خيرَ الناس ميْتٌ على جَفْر الهباءة ما يريمُ
ولولا ظلمُه ما زلتُ أبكي عليه الدهرَ ما طَلع النجومُ

وفي هذه القصيدة مصداق قولنا الذى بسطناه في شعر الرثاء عند قيس بن زهير . ذلك أنه أبت عليه انفته أن يجلس ليذرف دمعة على قتيل . ولكنه يريد أن يبكي ، الا أن البكاء يمتنع عليه لأن المقتول كان ظالما ، ولولا ظلمه لبكاه للدهر ما دامت النجوم طالعة ، وقد جاء استعماله الأداة « لولا » مناسبا ، ومع ذلك فان قيسا كان سيبكيه فعلا ، لأن المقتول ليس من قومه ، فلايدخل ضمن خطة قيس في رثاء قتلاه ، لأن ابن القبيلة بطل لا يستحق من قيس دمعة فانية ، بل خلودا باقيا وثاراً شافيا .

وفي هذه القصيدة تظهر عيوب الرواة وجنايتهم على الشعر الجاهلي ، فالأبيات متنافرة ، يأبى أن يأخذ بعضها برقاب بعض كما يقولون ، وفجوات الانتقال بين الأغراض واسعة ، ففي البيتين اللذين يليان المطلع غير المصرع ، ما يزال الشاعر في صدد رثائه لحذيفة بن بدر ، وان كان قد انتقل فجأة لهجاء أخي

---

(١) المفضل الضبي .. أمثال العرب ص ٣٥ ابو تمام - ديوان الحماسة (المرزوقي) ١ / ٤٢٨ والاغاني ١٧ / ٢٢١ وغيرها وفي بعض المصادر « لا يريم بدلا من ما يريم » والمذكور في أعلاه هو الاصح لان لا للدعاء وليس هذا موضعها

حذيفة ، وهو انتقال له ما يسوغه . وبعض شارحي الأبيات ظنوا أن المرثي والمهجو واحد (١) ، هو حمل بن بدر . ولكن الصحيح عند من ذهب الى أن الرثاء في حذيفة ، والهجاء في أخيه حمل ابن بدر ، وان كان الشاعر قد عاد ووصف حذيفة بالظلم :

ولولا ظلمُهُ ما زلتُ أبكي عليه الدهرَ ما طلَعَ النجومُ
ولكنّ الفتى حَمَلَ بنَ بدرٍ بغى والبغيُ مرتعهُ وخيمُ

فالظالم هو حذيفة بن بدر ، حيث امتنع عن دفع السبق ، والباغي هو اخوه حمل بن بدر . ثم ينتقل الى الحكمة فيسوق الواحدة تلو الأخرى :

أظنُّ الحِلْمَ دلَّ عليَّ قومي وقد يُستجهَلُ الرجلُ الحليمُ

ويصف حاله مع الذين أنكروا عليه سبقه :

ألاقي من رجالٍ مُنكراتٍ فأنكرُها وما أنا بالظلومِ

وفي البيت اقواء ملحوظ (٢) :

وخروج قيس من الرثاء الى الحكمة له ما يبرره ، لأنهما غرضان قريبان من بعضهما ، فرب ما بين الموت وحكمته من صلة قديمة . فلطالما كانت حكمة الموت وما تزال شغل الفلاسفة والمفكرين ، وان أحدنا في مشهد الموت ليصبح أكثر تأملا

(١) المصادر السابقة

(٢) في البيتين اللذين يليان هذا البيت اقواء أيضاً حيث تتبدل حركة الروى الى الكسر .

في الحياة : : :

وعلى الرغم من هذا الرثاء البليغ ، فان الشاعر لم ينسى الظلم الذي صبه القتيل على قوم الشاعر ، والبغي الذي كان محور حياة أخيه حمل بن بدر : وكان حذيفه يؤيد أخاه في كل ما يذهب اليه : لقد اجتمعت هذه المميزات وهذه المعاني كلها في مرثيته

وتظل ذكرى دماء قتلى « الهباءة » عالقة في ذهن شاعرنا ، حتى يعترف بذنب لم يسبقه الى الاعتراف بمثله أحد : وكأنه بذلك يتمم رسالته الانسانية في اعطاء قبائل العرب المتقاتلة درسا بليغا : لقد ظلت نفسه الحاقدة التي أعماها طلب الثأر على حقدها وعماها . فلم يشفه الا ادراك الثأر فأدركه ، وشفى ثم ندم فكأنما « ذهبت السكرة وجاءت الفكرة » : وتكشف هذه الأبيات ندمه حيث يقول (١) :

شفيتُ النفسَ من حَمَلِ بنِ بدرٍ وسيفي من حذيفةَ قد شَفاني

فان أكُ قد بردتُ بهم غليلي فلم اقطع بهم الا بناني

قتلتُ باخوتي ساداتِ قومي وقد كانوا لنا حَلْيَ الزمانِ

وظلت فكرة الندم هذه تطارد قيسا ، فكانت أبياته المؤثرة التي بلغت أحد عشر بيتا ، يصور فيها أعوام الحرب وأحداثها في فكر منظم دل على اتزان وعمق (٢) :

---

(١) ابو تمام ـ ديوان الحماسة (المرزوقي) ١ / ٢٠٣

(٢) السجستاني المعمرين ١٤٥

ولقد أجمعت المصادر المختلفة ، دون استثناء ، أن قيس ابن زهير كان كارها لهذا الرهان في أوله ولم يرغب فيه ؛ وشعره يؤيد ذلك ، ففيه تهويل للحرب ، وتذكير للقوم بوجوب الصلح والعودة الى الأحلام ؛ وكان يسفه رأى سنان بن حارثة المري الذي كان يزين لحذيفة الحرب ؛ وظل يدب في الفساد دبيب النمل الى حجرها ليفسد بين القوم . ثم اطلق قيس على الأقوام لقب جدهم « بغيض بن ريث » لعله يحرك في القوم أنبل عاطفة لها خطرها في نفس البدوي ، ويصف لهم الحرب بأنها وعرة ، مضلة ، وطريق السلم بأنهـا آمنة سهلة ، لكى يستطيع أن يصل بصوته اليهم ، ويستجيبوا الى النداء المخلص حقنا للدماء (١) :

يَوَدُّ سنانٌ لو يحاربُ قومَنا
وفي الحربِ تمزيقُ الجماعةِ والازلُ (٢)
يدبُّ ولا يَخفَى ليفسدَ بيننا
دبيبا كما دبّت الى حجرها النملُ
فيا ابنَى بغيضٍ راجعا السّلم تسلما
ولا تَشمتا الأعداءَ يفترقِ الشّملُ
وان سبيلَ الحربِ وعرٌ مُضلّةٌ
وان سبيل السلم آمنةٌ سَهلُ

---

(١) المفضل بن سلمة ـ الفاخر ص ٢٢٢ الميداني ـ مجمع الأمثال ٢ / ٥٨

(٢) الازل : التشتت والتفرق

ومع الزمن رانت على نفس قيس أحزان عميقة ، تبدو آثارها في نغمته اليائسة في نشدان السلم (١) :

لحا الله قوما أرّثوا الحربَ بيننا   سَقونا بها مرا من الشرب آجِنا
وحرملةَ النّاهيهُم عن قتالِنا   وما دَهره الا يكون مطاعِنا

ويقول (٢) :

ان تلكُ حربٌ فلم أجنِها   جَنَتْها صُبارُتُهم أو هُمو

وعالج قيس أغراضا شعرية أخرى ، فله في المدح مقطعات ولكنه مدح لأشخاص يضارعون قيسا في المكانة . وطابع مدحه يتسم بالصدق تعبيرا ومضمونا ، كمدحه لربيعة بن قرط المار ذكره أول هذا الحديث ، ومدحه للربيع بن زياد يتسم بهذه السمات فيقول (٣) :

لعمُرك ما أضاعَ بنو زيادٍ   ذمارَ أبيهِم فيمَن يُضيعُ
بنو جِنّيةٍ ولَدتْ سيوفا   صوارمَ كلُها ذَكرٌ صنيعُ (٤)
تَشرى ودّي وشُكرى من بعيدٍ   لآخرِ غالبٍ ابدا ربيعُ

والحكمة في شعر قيس مبثوثة خلال أبيات القصائد والمقطعات . مع أن شعر الحرب يكاد يخلو من الحكمة وعمق

---

(١) المفضل الضبي - أمثال العرب ص ٣٩ وابو عبيدة - نقائض ١ / ١٠٠

(٢) المرجع السابق ص ٣٢ وابو عبيدة ١ / ٩٢

(٣) شرح ديوان الحماسة .. التبريزي ٣ / ٢٤

(٤) الذكر من صفات السيف

الفكرة . ولكن قيسا أغنته خبراته ، وطول تأملاته في الحرب والحياة ، ولم تمنعه ضغائن العصبية ، أن يكون حكيما ذا فكر عميق يتدبر أمر هذه القتول الكثيرة التي تذهب بلا ذنب ودون جناية .

أما خلو شعر قيس من الغزل والنسيب ، فيرجع الى أنه رجل سياسة وحرب ، شغلته المعارك بأمورها ، وصرفته السياسة وشئون القبيلة عن التفرغ للغزل . وربما وجدت في مطالع قصائده ابيات في الغزل ، ضاعت مع ضياع القصائد .

ومن خصائص شعره الفنية ، وضوحه وأبانته ، وخلو معناه من التعقيد ، ولغته من وحشى اللفظ ، كأنما كان ذلك منه مقصودا ، يدرك معنى زعامته ، ووجوب ايصال أفكاره الى أبناء قبيلته والقبائل الأخرى ، ونحن نعلم ، أن الشعر كان سلاحا ماضيا يستخدم لكسب المعركة ، وقيس كان رجل قضية ، من أجلها نذر حياته ، ولم تكن تهمه النتائج بمقدار ما يهمه ارتفاع مكانة عبس ، واستتباب الصلح بين قبائل قيس ، والقبائل العربية كما طالعنا بذلك شعره .

شعر قيس بن زهير

قال قيس بن زهير يذكر حادثة الدروع مع بني زياد ، ويتطرق الى مقدمات حربه مع بنى ذبيان :

١ ـ ألمْ يَبْلُغْكَ والأنباءُ تَنمي بما لاقَت لَبُونُ بني زيادِ (١)

٢ ـ ومحبسُها على القُرشي تُشْرَى بأدراعٍ واسيافٍ حدادِ (٢)

٣ ـ جزيتُكَ يا ربيعُ جزاءَ سوءٍ وقد تُجزى المقارضُ بالأيادي (٣)

٤ ـ وما كانت بفعلةِ مثل قيسٍ وان تلكَ قد غدرتَ ولم تُفادِ

٥ ـ أخذتَ الدرعَ من رجلٍ أبيٍّ ولم تخشى العقوبةَ في المعادِ

٦ ـ ولولا صهرُ معنىً لكانت به للعثراتُ في سوءِ المقادِ

٧ ـ كما لاقيتُ من حَمَلِ بنِ بدرٍ واخوتِه على ذاتِ الأصادِ (٤)

٨ ـ هموا فخروا عليَّ بغير فخرٍ وذادوا دونَ غايتِه جوادي (٥)

٩ ـ وقالوا قد قمرناهُ خداعاً وأينَ الخدْعُ من مائةِ الجيادِ

١٠ ـ كرهنا أن يُقرَّ الخسفُ فينا دفعَنا بالمهنَّدةِ الحدادِ

١١ ـ فهلاَّ يا حذيفةُ عن بناني فانَّ القولَ مقتصدٌ وعادي

١٢ ـ وكنتُ اذا مُنيتُ بخصمِ سوءٍ دلفتُ له بداهيةٍ نآدِ

١٣ ـ بداهيةٍ تدقُّ الصلبَ منه فتقصُم أو يجوبُ عن الفوادِ

١٤ ـ وقد دلفوا اليَّ بفعلِ سوءٍ فألفوني لهم صعبَ القيادِ

١٥ ـ وكنتُ اذا أتاني الدهرُ ربقٌ بداهيةٍ سَددتُ لها نجادي (٦)

١٦ ـ ألم يعلم بنو الميقابِ أني كريمٌ غيرُ مغتلثِ الزنادِ (٧)

١٧ ـ أطوفُ ما أطوفُ ثم آتي الى جارٍ كجارِ أبي دوادِ (٨)

١٨ - لليلكَ ربيعةَ الخيرِ بنُ قرطٍ وهوباً للطريفِ وللتِلادِ
١٩ - كفاني ما أخافُ أبو هلالٍ ربيعةُ فانتهت عني الأعادي
٢٠ - تظلُّ جيادُهُ يَجمزنَ حولي بذاتِ الرمثِ كالحدأ الغوادي (٩)
٢١ - كأني إذ أنختُ الى ابنِ قرطٍ عقلتُ الى يلملمَ أو نَضادِ (١٠)

مصادر التخريج

المفضل الضبي - امثال العرب ص ٣٢ وابو عبيدة النقائض ١ / ٩٦ الابيات كلها عدا البيت الثالث والرابع والخامس والرابع عشر) والمفصل بن سلمة بن عاصم - الفاخر ص ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٣١ (الابيات ١ + ٢ + ٧ + ٨ + ١٧ + ١٨ + ١٩ + ٢٠) ابو الفرج الاغاني ١٧ / ١٣١ ، ١٣٢ (الابيات كلها عدا ٣ + ٤ + ٥ + ٦ + ٩ + ١٠ + ١١) الشريف المرتضى - الأمالى ١ / ٢١٠ الابيات (٧ + ٨ + ١٤ + ١٥) الميداني - مجمع الامثال ٢ / ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٤ الابيات (١ + ٢ + ٣ + ٧ + ٨ ١٧ + ١٨ + ١٩ + ٢٠) العيني - شرح الشواهد الكبرى ١ / ٢٣٠ الابيات (٣ + ٤ + ٥ + ٦) ابن عبد ربه العقد الفريد ٣ / ٦٧ ، ٦٨ (بولاق) الابيات ١ + ٢ + ٧ + ٨ + ١٢) شروح سقط الزند ص ١٤٤٩ ، ١٨٢٢ (الأبيات ١ + ٢ + ٣ + ٤ + ٥ + ١٢) معجم البلدان مادة (أصاد) (الاول والسابع) سرح العيون ص ١٥٧ (البيت السابع والثامن والثاني عشر والرابع عشر)

السيوطي - شرح شواهـــد المغنى ص ٣٢٩ (الأول والثاني والثالث)
البغدادي .. خزانة الادب ٣ / ٥٣٥ (الابيات (١ - + ٢ + ٧ + ٨
+ ١٢ + ٣ + ١٧ + ١٨ + ١٩ + ٢٠ + ٢١) نهاية الأرب ١٥ / ٢٥٧
(الابيات السابع والثامن) لويس شيخو - شعراء النصرانية ١ / ٩٢٦
٩٢٧ (الأبيات (١ + ٢ + ٧ + ٨ + ١٢ + ١٣ + ١٥ + ١٦ + ١٧
+ ١٨ + ١٩ + ٢٠ + ٢١ .

١ - الفاخر ، شروح سقط الزند ، وامثال الميداني ، والعقد الفريد وشرح شواهد المغني ، ومعجم البلدان ، والعمدة ٢ / ٢١١ وشرح ابن الانبارى للقصائد السبع الطوال الجاهليات ص ٤٥٩ (ألم يأتيك) بدل (ألم يبلغك) « وهو شاهد مشهور يأتي به النحويون) انظر سيبويه ١ / ١٥ و ٢ / ٥٩ والانصاف ص ١٧ قال « ارادا ألم يأتك ، فأشبع الكسرة فنشأت الياء « ألم يأتيك » . واشباع الحركات حتى تنشأ عنها هذه الحروف كثير في كلامهم » .

٢ - الفاخر ، وامثال الميداني « ومحبسها لدى القرشي » .

٧ - شروح سـقط الزند ، والعقـــد الفريد ، ونهـاية الارب « وما لاقيت . . » .

٨ - الفاخر ، أمالي المرتضى ، أمثال الميداني ، العقـد الفريد ، سرح العيون ، خزانة الادب « وردّوا دون غايته جوادي » .

١٢ - العقد الفريد « دلفتُ له بداهية الفواد » .

١٣ ـ خزانة الادب « بمقصم او تجوب . . »

١٦ ـ ابو عبيدة « ويروى غير معتلث »

١٧ ـ خزانة الادب ٣ / ٥٣٩ « أحاول ما احاول »

١٨ ـ خزانة الادب :

منيعٍ وسط عكرمةِ بن قيسٍ وهوبٍ للطريف والتــلادِ

٢٠ ـ الاغانى وشيخو « يجرين حولي » خزانة الادب « يعسلن حولي »

٢١ ـ خزانة الادب « انخت الى يلملم »

معاني المفردات

(١) يتطرق في الحديث الى درعه التي اخذها منه الربيع ، وامتنع عن ردها ، فاطرد من ابل الربيع ما يقرب من خمسمائة برعائها وباعها ، واشترى بأثمانها خيلاً ، كان داحس من بين هذه الخيول « رواية ابن الاثير » .

(٢) القرشي هو عبد الله بن جدعان ، ومنه اشترى قيس دروعه وسيوفه لحرب هوازن ادراكاً لثأر ابيه .

(٤) (٥) يقول : ان ما اصابني من ظلم بني زياد ، أصابني مثله من قبل بني بدر بذات الاصاد ، عندما انكروا سبقي بردهم جوادي عن غايته وكان فائزاً .

(٦) الربق ما يتقلد به . والنجاد حمائل السيف .

(٧) الميقاب المرأة التي تلد الحمقى والمغتلث الذي لايوري من الزناد . والمعتلث الذي لا خير فيه .

(٨) ابو دواد احد اسياد الجاهلية ، وكان شاعراً ، أجاره الحارث ابن همام من ذهل بن شيبان فخرج صبيان الحي يلعبون في غدير ، فأغرق الصبيان ابن ابي دواد فقتلوه ، فوقف الحارث وقال : لا يبقى صبي في الحـــي الا وغُرّق او يرضى جاري ،

---

(٢)

وقـــال يرثي قتلى « جفر الهباءة » ، وهو أول شـاعر يرثي مقتوله :

١ ـ تعلَّمْ أنَّ خيرَ الناسِ ميتٌ على جفر الهبــاءةِ ما يريمُ

٢ ـ لقد فجعتْ به قيس جميعاً مـــوالي القوم والقومُ الصميمُ

٣ ـ وَعَمَّ بـه لمقتلـهِ بعيـــدٌ وخصَّ بـه لمقتلـــه صميمُ

٤ ـ ولولا ظلمه ما زلت أبكي عليـــه الدهر ما طلـــع النجومُ

٥ ـ ولكن الفتى حَمَلُ بن بدرٍ بَغى والبغيُ مرتعُـــه وخيمُ

٦ ـ أظُنن الحلمَ دلَّ عليَّ قومي وقد يُستجهَل الرجُل الحليمُ (١)

٧ ـ فلا تغشَى المظالمُ أن تراهُ يُمتّع بالغنى الرجُل الظلـــومُ

٨ ـ ولا تَعجَل بأمركَ واستدمْهُ فما صلّى عصاكَ كمستديمِ (٢)

٩ ـ ألاقي من رجـالٍ منكراتٍ فأنكرها ومـا أنا بالغشـــومِ

١٠ ـ ولا يعييكَ عُرقوبٌ للأيِ اذالم يُعطكَ النصَفَ الخصيمُ (٣)

١١ ـ ومارسْتُ الرجالَ ومارسوني فمعـــوجٌ عـــليَّ ومستقيمُ

فأرضوه بديات عدة .

(٩) يجمزن يُسرعن . وذات الرمث موضع .

(١٠) يلملم ونضاد جبلان

تخريج الأبيات :

المفضل الضبي - أمثال العرب - ص ٣٥ وابو عبيدة - النقائض ١ / ٩٦ (الأبيات عدا الثاني والثالث والرابع) المفضل بن سلمة - الفاخر ص ٢٢٧ (الأبيات الاول والرابع والخامس والسادس والتاسع والحادي عشر) ابن هشام - السيرة النبوية ١ / ٢٨٧ (البيت الخامس) البكري - سمط اللآلى ص ٥٨١ (البيت الأول) الاغاني ١٧ / ١٣٨ (الابيات كلها عدا الثاني والثالث) الحماسة بشرح المرزوقي ١ / ٤٢٨ (البيت الاول والرابع والخامس والسادس) أمالي المرتضى ١ / ٢١٤ (الاول والرابع والخامس والسادس والحادي عشر) أمثال الميداني ٢ / ٦١ (الاول والرابع والخامس والسادس والتاسع والحادي عشر) ابن الاثير - الكامل ١/٣٥٣ (الاول والثانى والثالث والرابع والخامس) العقد الفريد ٣/٧٠ (الاول والرابع والخامس والسادس والحادي عشر) المرزباني معجم الشعراء ص ١٩٧ (السادس والحادي عشر) أمالي القالي ١/٢٦١ الاول والرابع والخامس والسادس) الزمخشري - اساس البلاغة ص ٢٨٩ ، ٤٢٤ . ٦٣٦ (الرابع والثامن) ابن نباته - سرح العيون ص ١٤٠ (الاول والرابع والخامس

والسادس والحادي عشر) خزانة الادب ٣ / ٥٣٨ (الاول والرابع والخامس والسادس والتاسع والحادي عشر) نهاية الارب ١٥ / ٣٦١ (الاول والرابع والخامس والسادس والحادي عشر) لويس شيخو - شعراء النصرانية ١ / ٩٢٠ (الأبيات عدا الثاني والثالث) .

(١) النقائض والأغاني والحماسة وأمالي المرتضى وامثال الميداني والكامل (ابن الاثير) وسرح العيون وشعراء النصرانية (لا يريم) الامالي وسمط اللآلي (ألم تر ان خير الناس أضحى) والميداني « خير الناس طراً » . وقد ذكر ابن الاثير البيت في موضعين على الوجه الآتي :

(أ) الم ترَ أنَّ خيرَ الناس أمسى على جفـــرِ الهباءةِ لا يريمُ

(ب) أقام على الهباءةِ خيرُ ميتٍ واكرمُـهُ حذيفــةُ ما يريمُ

(٢) اساس البلاغة « سجيس الدهر ما طلع النجـــوم » أي طوال الدهر سرح العيون « ما بدت النجوم » . (٧) اساس البلاغة (استدمه) بدل (أن تراه) .

(١٠) شعراء النصرانية (لايعتبك عن قربٍ بلاه) .

معاني المفردات

(١) قال المرزباني في تفسير هذا البيت « ليس قوله يستجهل الرجل الحكيم ، بمعنى ينسب الى الجهل . وانما هو بمعنى يستخرج الجهل من الحليم ، يريد أن حلمه جرّأ عليه قومه فتوعدهم بقوله : وقد يستدعى

الجهل من الحليم .

(٢) صلى عصاك كمستديم . أي فما قوم عصاك مثل الأمر الذي تداوم عليه ، وكنى بتصلية العصا عن تسوية الحال واصلاحه . وصلى العصى على النار او بالنار لوّمها وليّنها وقوّمها وفي البيت والذي يليه اقواء ملحوظ . وقال ابو عبيدة في تفسير البيت « يقول عليك بالتأني واياك والعجلة فان العجول لا يبرم أمراً ، كما أن الذي يثقف العود اذا لم يُجد تصليته على النار لم يستقم له » وقال الزمخشري « استدمه تأنّ فيه وفلان يصلي عصا فلان اي يدبر امره » .

(٣) يقول « اذا لم ينصفك خصمك فادخل عليه عرقوباً يفسخ حجته »

---

(٣)

وقال في مجاورة النمر بن قاسط ، بعد اعتزاله الحروب :

١ ـ انّ يومَ الهباةِ أورثني الذلّ فأصبحتُ ظالماً مظلوما (١)

٢ ـ كان ظلمي قتَل سراةِ بني بدرٍ فأصبحتُ بعدهم مرحوما

٣ ـ فخضبتُ السنانَ من ثُغر القومِ وكانوا للناظرين نجوما

٤ ـ كان ثأري لمالك بن زهيرٍ واحداً كان فيهُم معلوما (٢)

٥ ـ فقتلتُ الجميعَ من حذرِ الثكلِ لقد كنتُ في الدماءِ منهوما

٦ ـ كان ظلمي وكان ظلمهُم أمسِ عظيماً ورأيهم موصوما

٧ ـ لطَم القومُ داحساً حَذرَ السبقِ لقد كان داحسٌ مشئوما (٣)

٨ ـ ظلمونا بقتلهم وظلمنا معشراً كان يومُهم محتوما

٩ ـ إن للنمرِ في إجارتها الجارَ وأمنِ الطريد حظاً عظيما (٤)

١٠ ـ يأمَنُ الجـارُ فيهم وتُرى وسْطهم ذا خشولةٍ وعمـوما
١١ ـ يملأُ الدلو قبل دلو أخي النمرِ وما حوضُ جارهم مهدوما

التخريج

ابو حاتم السجستاني ـ كتاب المعمرين ص ١٤٥

معاني المفردات

(١) يوم الهباة هو يوم جفر الهباءة الذي قتل فيه حذيفة بن بدر الفزاري واخوته ، وقد ندم قيس على قتلهم .

(٢) مالك بن زهير العبسي ، اخوه . وهو اول قتيـل في الحرب رثاه عنترة .

(٣) في كتب الامثال « اشأم من داحس » ثم يوردون خبر الحرب .

(٤) يريد النمر بن قاسط ، وكان قيس تزوج في هذه القبيلة بعد اعتزاله الحرب .

---

(٤)

وقال يذم أناساً سعوا في الحرب واشعال نارها :

١ ـ لحا اللهُ قومـاً ارّثوا الحربَ بيننـا
سقونا بهـا مراً من الشربِ آجنـا (١)

٢ ـ وحرملةُ الناهيهُم عن قتالنا
وما دهرهُ إلاّ يكونُ مطاعنا
٣ ـ أُكلّفُ ذا الخصيين ان كان ظالماً
وان كان مظلوماً وان كان شاطنا (٢)
٤ ـ خصاهُ امرؤٌ من اهلِ تيماء طابنٌ
ولا يعدمُ الإنسيُّ والجنُّ طابنا (٣)
٥ ـ فهلّا بني ذبيانَ وَسْطَ بيوتِهم
رهنتَ بمَرِّ الريح إن كنتَ راهنا
٦ ـ وخالستُهم حتى خلالَ بيوتِهم
وانْ كنتُ التقى من رجالِ ضغائنا
٧ ـ اذا قلتُ قد أفلتُّ من شرِّ حنبصٍ
لقيتُ بأُخرى حنبصاً متباطنا
٨ ـ فقد جعلتْ اكبادُنا يحتويهُم
كما تحتوي سُوقُ العضاهِ الكرازنا (٤)
٩ ـ تَدُرونَنا بالمنكَراتِ كأنّما
تَدُرْونَ ولداناً ترمّي الراهادنا (٥)

تخريج أبيات القصيدة

المفضل الضبي ـ امثال العرب ص ٣٩ وابو عبيدة ـ النقائض ١ / ١٠٠ (الأبيات كلها) المفضل بن سلمة بن عاصم ـ الفاخر ص ٢٢٣ (الأول

والثالث والخامس) والميداني - مجمع الأمثال ٢ / ٦٥ (الأول والثالث والخامس) والجاحظ - كتاب الحيوان١/٢٠ ، ٢١ (الثالث والرابع والخامس والسابع والثامن) شعراء النصرانية ١ / ٩٣٢ (عدا الرابع والخامس)

(٣) الجاحظ (وان كنت مظلوماً وان كنت شاطنا) الميداني (وكايد ذا الخصيين) .

(٤) الجاحظ (طائر) بدل (طابن) .

(٥) الحيوان والفاخر - وامثال الميداني « فهلّا بني ذبيان امك هابل » الجاحظ « رهنت بهيف الريح » .

(٧) الجاحظ « أتاني بأخرى شرّه متباطنا »

معاني المفردات

(١) أرثوا اشعلوا . والماء الآجن . المتغير الطعم واللون .

(٢) أراد بذي الخصيين ، الأسير الذي كان يعقب اليهودي في زوجته بعد غيبته ، فلما ضبطه خصاه ، فطالب آسرُه قيسا بديته .

(٣) الطابن الفطن ، يقول : خصاه يهودي من تيماء وكلفوني ديته .

(٤) العضاه ، كل شجر له شوك . الكرازن المعاول . الواحد كرزين وترميّ من الترميّ

(٥) تدروننا تختلوننا . الرهادن جمع رهدن ، وهو شبيه بالعصفور

(٥)

وقال يرثي أخاه مالك بن زهير

١ ـ أخي واللهِ خيرٌ من أخيكم   اذا مالم يَجِدْ بطلٌ مقاما
٢ ـ أخي واللهِ خيرٌ من أخيكم   اذا مالم يَجِدْ راعٍ مساما (١)
٣ ـ أخي والله خير من أخيكم   اذا الخفِرات أبدين الخداما (٢)
٤ ـ قتلْتَ به أخاك وخيرَ سعدٍ   فإنْ حرباً حذيفُ وان سلاما (٣)
٥ ـ تردُّ الحربُ ثعلبَةَ بنَ سعدٍ   بحمدِ اللهِ يرعونَ البهاما
٦ ـ وتُغني مُرّةَ الأثرين عنا   عروجُ الشاءِ تتركُه قياما (٤)
٧ ـ وكيف تقول صبراً بني حجانٍ   اذا عَرِضوا ولم يجدوا مقاما (٥)
٨ ـ ولولا آلُ مُرّةَ قد رأيتم   نواصيهنّ ينضُونَ القَتاما (٦)

التخريج

المفضل الضبي ـ أمثال العرب ص ٣٩ وابو عبيدة ـ النقائض ١ / ١٠٢ (الأبيات كلها) وشعراء النصرانية ١ / ٩٣١ (الابيات عدا السادس)

(٢) ابو عبيدة : مَساما بفتح الميم ويروى مُساما ، بالضم .

معاني المفردات

(١) مَساما (بالفتح) يقال سامت الابل مَساما بالفتح ويقال اسمتها مُساماً بالضم .

(٢) الخفرات ، النساء المحتجبات في خدورهن . الخدام الخلخال

يقول : اخي في الروع عندما يشتد فزع النسوة راكضات وقد كشفن عن أسوقهن ، خير من أخيكم .

(٣) حذيف ، حذيفة بن بدر

(٤) العروج من الشاعر ، العدد الكبير منها

(٥) اذا غرضوا ، اذا ملّوا في هذا الموضع

(٦) نواصيهن ، نواصي الخيل . والقتام الغبار

---

(٦)

وقال :

١ - مالي أرى إبلي تحنُّ كأنّها ... تنوحٌ تجاوُب مُوهِناً أعشارا

٢ - لن تهبطي ابداً جنوب مويهلٍ ... وقنا قراقرتين والأموارا

٣ - اجهلت مَن قوم هرقتُ دماءهم ... بيدي ولم أدهنْ بجنبِ تغارا

٤ - إنّ الهوادةَ لا هوادةَ بيننا ... الا التجاهُد فاجهدنّ فزارا

٥ - إلاّ التزاورُ فوق كل مقلّصٍ ... يهدي الجيادَ إذا الخميسُ أغارا

٦ - فلأُهبطنّ الخيلَ حُرَّ بلادكم ... لُحَق الأياطل تنبُذ الأمهارا

٧ - حتى تزوَر بلادكم وتُرى بها ... منكم ملاحُم تخشعُ الابصارا

التخريج

المفضل الضبي - أمثال العرب ص ٣٩ وابو عبيدة - النقائض ١ / ١٠٢

وشعراء النصرانية ١ / ٩٣١

(٧) شيخو (وتروا بها)

معاني المفردات

(١) نوح ، نساء ينحن . والاعشار جمع عشر وهو أن يرد الماء في اليوم التاسع ، وهذا مثل . والموهن بعد صدر الليل .

(٢) الخطاب للابل . وجنوب مويسل ، وقناقراقرتين والاموار ، كلها مواضع .

(٣) لم ادهم لم ادفع دياتهم ، وتغار موضع :

(٧)

وقال قيس بن زهير في مسيره الى بني بدر بعد ارتحاله عن أهل مكة :

١ ـ أسيرُ الى بنى بـدرٍ بأمـرٍ	هُم فيـه علينا بالخيـارِ (١)
٢ ـ فانْ قبلوا الجوارَ فخيرُ قومٍ	وان كرهوا الجوارَ فغيرُ عارِ
٣ ـ اتينا الحارثَ الخيرَ بنَ كعبٍ	بنجرانٍ وأيُّ لجـأ بجـارِ
٤ ـ فجاورْنا الذينَ اذا أتاهم	غريبٌ حلَّ في سَعَةِ القرارِ
٥ ـ فيأمنُ فيهم ويكون منهم	بمنزلةِ الشعار من الدثار (٢)
٦ ـ وان نفرد بحرب بني ابينا	بلا جـار فان اللهِ جـاري

التخريج

ابن الاثير ـ الكامل ١ / ٣٤٥

معاني المفردات

(١) يقول هم الذين يختارون ، فان قبلوا جوارنا فنعم القوم هم ، وان كرهوا ذلك فليس عاراً علينا لأنهم ابناء عمومتنا ، ومايخزينا يخزيهم

(٢) الشعار ظاهر اللباس والدثار بطانته ، يريد أن جارهم يصبح منهم ويخلطونه بعيالهم .

---

(٨)

وقال يمدح الحارث بن ظالم المري ، وكان الحارث قتل خالد بن جعفر بزهير بن جذيمة :

١ ـ جزاك الله خيراً من خليلٍ
شفى من ذي تبولته الخليلا (١)

٢ ـ أزحت بها جوىً ودخيل نفسٍ
تمخخ اعظمي زمناً طويلا

٣ ـ كسوت الجعفريَّ أبا جزيءٍ
ولم تحفل به سيفاً صقيلا (٢)

٤ ـ أبأت به زهير بني بغيضٍ
وكنت لمثلها ولها حمولا (٣)

٥ ـ كشفت له القناع وكنت ممّن
يجلّي العار والأمر الجليلا

التخريج

الأغاني ١١ / ٩٨

(١) التبولة الذحل والعداوة

(٢) الجعفري خالد بن جعفر العامري ، قتله الحارث بن ظالم المري ثاراً لزهير بن جذيمة العبسي .

(٣) أبأت من باء الدم بالدم اذا أدرك ثاره

---

(٩)

قال قيس بن زهير في الربيع بن زياد :

١ - إن تكُ حربٌ فلم أجنِها ... جنَتها صبارُتهم أو هُمُ (١)

٢ - حذارِ الرَّدى إذ رأوا خيلَنا ... مقدَّمُها سابحٌ أدهَمُ (٢)

٣ - عليه كميٌّ وسِرْ بالُهُ ... مُضاعفةٌ نسْجُها مُحكَمُ

٤ - فان شمرَّتْ لك عن ساقِها ... فويهاً ربيع ولا تسأموا

٥ - نهيُت ربيعاً فلم ينزجر ... كما انزجر الحارث الأضجم (٣)

التخريج

المفضل الضبي - امثال العرب ص ٣٢ وابو عبيدة النقائض ١ / ٩٢ وابو الفرج - الاغاني ١٧ / ١٣٣ وشعراء النصرانية ١ / ٩٢٧ .

(١) الاغاني (خيارهم) بدل (صبارتهم) وشيخو (جناها خيارهم)

(٤) شيخو (ولم يسأموا) .

(٥) شيخو (نهيت ربيع فلم يزدجر) . ابو عبيدة (ويروى الحارث الاحذم) .

معاني المفردات

(١) صبارتهم ، خيارهم

(٢) السابح ، السريع الجري

(٣) الحارث رجل من ضُبيعة بن ربيعة بن نزار ، وهو صاحب المرباع .

---

(١٠)

وقال :

١ - أينجو بنو بدر بمقتلِ مالكٍ ويخذلنا في النائبات ربيُع (١)

٢ - وكان زيادٌ قبله يتقى به من الدهر ان يوم ألمّ فظيع

٣ - فقل لربيعٍ يحتذي فعل شيخه وما الناس الا حافظ ومضيع

٤ - والا فمالي في البلاد إقامة وأمر بني بدرٍ عليّ جميع

التخريج

ابن الاثير - الكامل في التاريخ ١ / ٣٤٨

معاني المفردات

(١) بنو بدر ، حذيفة واخوته ، وربيع هو الربيع بن زياد . والأبيات

حث من قيس المربيع بن زياد أن ينهض مع قومه العبسيين لحرب الذبيانيين .

---

(١١)

وقال :

١ - يود هنـان لو نحارب قومنـا
وفي الحرب تفريق الجماعة والأزلِ (١)

٢ - يـدب ولا يخفى ليفسد بيننـا
دبيباً كما دبت الى حجرهـا النمل

٣ - فيا ابني بغيض راجعا السلم تَسلما
ولا تشمتا الاعداء يفترق الشمل (٢)

٤ - وان سبيل الحرب وعرٌ مضلة
وان سبيـل السلم آمنـةٌ سهـل

التخريج

المفضل بن سلمة - الفاخر ص ٢٢ وامثال الميداني ٢ / ٥٨

معاني المفردات

(١) الازل التشتت والتمزق

(٢) ابنا بغيض عبس وذبيان المتقاتلان

(١٢)

وقال يمدح بني زياد ، وهم الكملة :

١ - لعمرك ما اضاع بنو زيادٍ ذمار ابيهم فيمن يضيع
٢ - بنو جلية ولدت سيوفاً صوارم كلها ذكر صنيع (١)
٣ - وجارتهم حَصانٌ لن تزنّى وطاعمة الشتاء فما تجوع
٤ - شَرى ودي وشكري من بعيد لآخر غالب ابداً ربيعُ (٢)

التخريج

الاغاني ١٦ / ٢٠ (بولاق) (الأبيات ٢ + ٣ + ٤) والحماسة بشرح المرزوقي ١/٤٦٩ وشعراء النصرانية ص ٩٣١ (الأبيات ١ + ٢ + ٤)

(٢) الاغاني قواطع بدل صوارم

(٤) شرى ودي ومكرمتي جميعاً طوال زمانه مني الربيع

معاني المفردات

(١) صنيع اي مصنوعة من أجود انواع المعدن ، اراد مدحهم .

(٢) غالب جدهم وهو من عبس ايضاً ، وتعتبر من العائلات الكبيرة فيها الى جانب « بني بجاد وجروة وجذيمة وغيرهم . .

---

(١٣)

وقال قيس بن زهير حين أخذ منه سلمة بن قشير فداء حاجب ابن زرارة الف بعير ، ثم أخذ منه للزهدميين مائة ناقة :

١ - جزاني الزهدمان جزاء سوءٍ   وكنتُ المرء يُجزى بالكرامة (١)
٢ - لقد دافعتُ وقد عَلِمَتْ مَعَدٌّ   بني قُرطٍ وعمُّهم قُدامة
٣ - أُجاثيهم على الركبات حتى   أثبُّتكمْ بها مائةً ظلامة

التخريج

ابو عبيدة - النقائض ١/٤٢٥ وابو الفرج - الاغاني ١٠/٤١ (بولاق)
(٢) الاغاني (بنو قرط)
(٣) الأغاني :
ركبتُ بهم طريق الحق حتى   اثبتهم بها مائةً ظلامة

معاني المفردات

(١) الزهدمان ، زهدم العبسي واخوه ، طالبا بدية حاجب لدى قتله في معركة (شعب جبلة) وكان زهدم اطلق حاجباً على الثواب والثواب عطاء الأسير لأسره جزاء ابقائه على حياته (انظر تفصيل الحارث في قصة الحرب) .

(٢) اجاثيهم ، أي جلست على ركبتيَّ متحفزاً للخصومة ضدهم حتى أعيد لكما حقاً انكروه عليكما ، وكان جزائي منكما الجحود والنكران

---

(١٤)

وقال قيس بعد صلحه مع الربيع لكي يفرغ لحرب بني بدر واحلافهم :

١ ـ فان تلكُ حربُكم أمستْ عَواناً   فاني لم اكن مِمَّن جناها (١)
٢ ـ ولكن ولْدُ سودةَ أرّثوها   وحَشّوا نارَها لمن اصطلاها (٢)
٣ ـ فاني غيرُ خاذلكم ولكن   ساسعى الآنَ اذ بلغتْ مداها

التخريج

المفضل بن سلمة ـ الفاخر ص ٢٢٤ وأمثال الميداني ٢/٥٩ والعقد الفريد ٣ / ٦٨ منسوبة الى الربيع بن زياد وشعراء النصرانية ١ / ٧٩٩ منسوبة لعنترة ، وهي فى ديوانه ينازعه في نسبتها الربيع .

معاني المفردات

(١) الحرب العوان التي اشتعلت مرة بعد مرة

(٢) ولد سودة ، اراد حمل بن بدر واخوته

---

(١٥)

وقال وقد ندم على اسرافه في القتل :

١ ـ شفيتُ النفس من حمل بن بدرٍ
وسيفي من حذيفة قد شفاني

٢ ـ فان أكُ قد بردت بهم غليلي
فلم اقطع بهم الا بناني

٣ ـ قتلت بأخوتي سادات قومي
وقد كانوا لنا حَلْيَ الزمان

التخريج

الأبيات في عيون الأخبار المجلد الثالث ٧ / ٨٨ والحماسة بشرح المرزوقي ١ / ٢٠٣ (الاول والثاني) والبكري - سمط اللآلىء ص ٥٨٣ (الأول والثاني) وامالي القالي ١ / ٢٦٢ (١ + ٢) والمرزباني - معجم الشعراء ص ١٩٨ (٢ + ٣) وشعراء النصرانية ص ٩٢٤ (١ + ٢) واماي المرتضى ١ / ٢١٤ (الاول والثاني) .

(٣) في معجم الشعراء :

قتلت باخوتي سادات قومي ... وهم كانوا الأمان على الزمان

فان أك قد شفيت بذاك قلبي ... فلم أقطع بهم الا بناني

---

(١٦)

وقال

١ - كم فارس يدعى وليس بفارس ... وعلى الهباءة فارس ذو مصدق

٢ - فابكوا حذيفة لن ترثوا مثله ... حتى تبيد قبائل لم تخلق

التخريج

ابن هشام - السيرة النبوية ١ / ٣٠٦ .

(١٧)

وقال

١ - تعرفن من ذبيان من لو لقيته   بيوم حفاظ طار في اللهوات (١)

٢ - ولو ان سافي الريح يجعلكم قذى   بأعيننـــا ما كنتم بقـــذاة

التخريج

الخالديان - الاشباه والنظائر ٢/١٩٨ والحماسة البصرية « باب الهجاء »

ابن نباتة - سرح العيون ص ١٤١ وشعراء النصرانية ١ / ٩٣١

معاني المفردات

(١) اللهوات لحمة سقف الفم ، وفى البيت تصغير لشأن الذبيانيين وكذلك البيت الذي يليه ، حيث استحقر أمرهم بحيث لا يكونون حتى بمقدار قذاة في عيون العبسيين .

---

(١٨)

وقال :

١ - اذا أنت أقررت الظُلامة لامرئ

رمـــاك بأخرى شعبها متفـــاقم (١)

٢ - فلا تبد للاعـــداء الا خشـــونة

فما لك منهـــم ان تمكن راحـــم

ابن نباتة - سرح العيون ص ١٤٢ شيخو - شعراء النصرانية ١ / ٩٣٢

(١) أي أمرها اشد خطراً من سابقتها .

(١٩)

وقال يخاطب مالكاً أخاه :

١ ـ أمالك لا تأمن فزارةَ واخشها
فانك ان تأمن فزارة هالك

٢ ـ أما لك أن تحسب مقامك فيهم
صواباً فقد اخطأت في الراى مالك

التخريج

شرح التبريزي على الحماسة ٣ / ٢٤

---

(٢٠)

وقال في الحارث بن ظالم المري :

١ ـ وما قصرت من حاضن ستر بيتها
ابَرّ وأوفى منك جارِ بن ظالمِ

٢ ـ اعزّ وأحمى عند جارِ وذمةِ
واضربَ في كابِ من النقع قاتمِ (٢)

التخريج

الاغاني ١١ / ١١٩ والعقد الفريد ٥ / ١٥٠

(١) الكابي العظيم . اراد الغبار القاتم العظيم .

(٢١)

وقال يرد على عروة بن الورد :

١ ـ لا تشتمني يا ابنَ وردٍ فانني   تعودُ على مالي الحقوق العوائد
٢ ـ أتهزأ مني أن سمنْتُ وقد ترى   بجسمي َ مسَّ الحقِ والحق جاهد

التخريج

ابو عبيدة البكري ـ التنبيه ص ١١٢

(١) كان عروة يعير قيساً بأنه اكون مبطان ، ويعرض به في أشعاره

(٢) هذا البيت يروى في وجوه مختلفة منسوباً الى عروة نفسه ، والحق ما اثبته ابو عبيدة .

---

(٢٢)

وله يقول قيس بن زهير أيضاً :

١ ـ أذنبٌ علينا شتمُ عروةَ خالَهُ   بِقَرةَ أحساءٍ ويوماً ببدبدِ
٢ ـ هَلُمَّ الينا نكفِكَ الأمرَ كله   فعالاً وإحساناً وان شئتَ فابْعدِ

التخريج

ابو عبيد البكري ـ التنبيه ص ١١٢

(١) قرة أحساء وبدبد ، مواضع معروفة في شبه الجزيرة .

---

(٢٣)

وقال قيس بن زهير :

١ ـ متى تتحزم بالمناطق ظالماً
لتجري الى شأوٍ بعيدٍ وتسبَحِ
٢ ـ تكن كالُحبارى إن اصيبت فمثلُها
أُصيبَ وان تُفلتْ من الصقرِ تسلحِ

التخريج

الجاحظ ـ كتاب الحيوان ٥ / ٤٤٨

(١) المناطق جمع منطقة وهي ما يشد به الوسط . والشأو الغاية . ويسبح يُسرع في جريه .

(٢) الحبارى ضرب من الطير ، اذا داهمها الصقر تسلح من شدة الفزع

---

(٢٤)

وقال :

فما أمَّ أدراضٍ بأرضٍ مَضِلّةٍ بأغدرَ من عوفٍ اذا الليلُ أظلما

التخريج

في ديوان الطفيل الغنوي (تحقيق محمد عبد القادر) قال ابن بري ذكر ابن السكيت ان هذا البيت لقيس بن زهير . وعن الاخفش انه لشريح بن الأحوص . وقال الصّاغاني ، البيت لعامر ملاعب الأسنة .

موقفه من هذه الحرب :

لا يقاس موقف النابغة في هذه الحرب الى موقف عنترة مثلا ، لندرة شعره وأخباره فيها ، مع أنه أقرب الناس اليها . وقد رأينا في قصة الحرب أن من بين ضحاياها عمه ضمضما المري ، وابن عمه هرم بن ضمضم ، وكان الأول قتل على يد عنترة ، وبلغه تهديد ولديه يتوعدانه فقال في معلقته (١) :

ولقد خشيتُ بأن اموت ولم تكن   للحربِ دائرةٌ على ابنَي ضمضمِ
الشاتمَي عِرضي ولم اشتمهما   والناذرَيْن اذا لقيتهما دمي
ان يفعلا فلقد تركتُ أباهما   جزرَ السباعِ وكلَّ نسرٍ قشعمِ

وسنحاول بما في أيدينا من النصوص الثابتة القليلة ، ان نتلمس لأنفسنا سبيلا يصل بنا الى تعليل هذا الموقف . وقد عزا الدكتور شوقي ضيف سبب اغفال النابغة لأمر هذه الحرب ، وقلة الاشارة اليها في شعره ، الى سفارته لقومه في بلاطي الغساسنة والمناذرة (٢) . وهذا القول له ما يدعمه من الواقع

(١) ابن الأنباري - شرح القصائد السبع الطوال ص : ٢٩٤
(٢) ناريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ص ٢٧٢

والتاريخ ، يؤيد ذلك المجموعة الشعرية التي وصلت الينا من ديوانه ، حيث لا تنطق من شعره القبلي ، الا فيما يتعلق بمشاكل ذبيان مع المناذرة والغساسنة ، وسعى النابغة لرأب الصدع ، هذا الى جانب أن التاريخ يحدثنا عن النابغة ، أنه كان دائم الترحل بعيدا عن قومه ، اما في قصور ملوك الحيرة أو في قصور الشام ، يبعث من هناك الى قومه بتوجيهاته شعرا . فترتب على هذا الاغتراب ، أن تعذر عليه الحصول على معلومات كافية عن هذه الحرب الأهلية التي كانت تخوضها ذبيان ، وما أكثر حروب ذبيان مع قومها (١) :

ونستطيع أن نضيف الى ما تقدم ، أن النابغة كان مطمئن البال بالنسبة لقوة قبيلته في هذه الحروب الداخلية ، لا سيما وأن ذبيان كانت عزيزة منيعة بأحلافها ، الى منعتها بنفسها . فهي اذن في مركز قوة ، وليس سهلا أن تزعزعها عنه عبس : وان خسرانها معركة أو معركتين ، وفقدانها بعض الرجال والمال ، لا يخرجها من أرضها . وقد برهنت الوقائع على صحة هذا الزعم ، حيث نزحت عبس ، وخرجت من أرض غطفان وبقيت ذبيان في مكانها . بل امتد نفوذها الى أرض عبس نفسها ، برغم أنها خسرت بعض معاركها ، وفقدت كثيرا من رجالها . ذلك أن نتيجة الحرب لا تقررها معركة ، ولا سقوط بعض الرجال .

---

(١) المصدر السابق ، ينظر الفصل الأول مبحث حروب عبس وذبيان .

ومع هذا فالنابغة يبدي ألمه الممض ، ويؤنب قومه على ما مارسوه من ضغط شديد على العبسيين جعلهم يتركون أرضهم وينزلون في جوار بني عامر ، فتخسر ذبيان في هجرة العبسيين أخا ونصيرا (١) :

أبلغ بني ذبيانَ ألاّ أخا لهم   بعبسٍ اذا حلّوا الدماخَ فأظلما
بجمعٍ كلونِ الأعبلِ الجونِ لونُه   ترى في نواحيه زهيرا وحذيما
هُم يَرِدُونَ الموتَ عندَ لقائِه   اذا كان وِردَ الموتِ لابدّ اكرما

وليس هـذا من النابغة موقفا قديما ، فموقفه القديم واضح في شعره ، يوم امتلأت أرض ذبيان بالجيوش المغيرة ، وهبت أسد بألفي محارب لنصرتها وردت عامرا وعبسا عن أرض ذبيان ، فبلغ الخبر « نابغتهم » فبعث بأبيات للتهنئة للذبيان (٢) :

ليَهنِئْ بنى ذبيان أن بلادَهُم
خَلَتْ لهُم من كلِ مولى وتابعِ (٣)
سوى أسدٍ يحمونَها كلَّ شارقٍ
بألفْي كميٍّ ذي سلاحٍ ودارعِ (٤)

---

(١) الأعلم ـ مختارات الشعر الجاهلي ص ٢٣٢

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٣

(٣) المولى ابن العم ، والتابع المتبع لهم   يقول : هنيئاً لهم خلو بلادهم من بني عبس ومن حلفائهم والذين كانوا لا يصفون لهم الود .

(٤) يقول لهم لم يبق لديهم سوى أسد بكماتها المسلحين تحميهم =

وفيها يقول :

فَـدعْ عنكَ قوما لا عتـابَ عليهم
هم ألحقُوا عبسا بأرضِ القعـاقعِ (١)

وقـد عَسرت من دونهم بأ كتفهـم
بنو عامر عسَر المخاضِ الموانعِ (٢)

بل ان موقفه ليتحدد تماما ، يوم أراد عيينة بن حصن أن يخرج بني أسد من حلف ذبيان ، يوم قتلت عبس نضلة الأسدي ، فقتلت به أسد رجلين من عبس . فتأثر عيينة سيد ذبيان لفعلتهم هذه على الرغم من عدائه للعبسيين ، حيث هزته رابطة الـدم والرحم ، فقرر الخروج من حلفهم . فبعث اليهم النابغة شاجباً عمل عيينة ومؤيدا بني أسد ، بل مؤكدا على عـداء عبس في قصيدة طويلة مطلعها (٣) :

غَشيتُ منـازلا بعُريتنات ِ فأعلى الجزعِ للحيِ المبنِ (٤)

= كل صباح وخص الصباح لانه وقت الغارة . وكان الاسديون حلفاء قدماء للذبيانيين ، وظل هذا الحلف الى ما بعد الاسلام ، فتعاونا على حربه ، وبعد الردة انضمت اليهما عبس .

(١) القعاقع من بلاد باهلة مما يلي اليمن .

(٢) عسرت منعة يريد أن بني عامر منعت بني أسد عن عبس فلم تقدر على شيء من ذلك .

(٣) الاعلم - مختارات الشعر الجاهلي ص ٢٤٠

(٤) عريتنات واعلى الجزع : موضع والمبن المقيم بهذه المنازل المرتفعة .

الى أن يقول :

ألِكْنى يا عيينُ اليـــكَ قولا ... سأهديه اليكَ ، اليكَ عنّى (١)

قوافىَ كالسِلام اذا استمرّت ... فليس يردُّ مذهبها التظنى (٢)

بهن يـــدين من يبغى أذاتي ... مــداينةَ المداين فلتدنِى (٣)

أتخــذلُ ناصري وتعز عبسا ... أيربوعَ بنَ غيظ ٍ للمَعنِ (٤)

ويقول :

اذا حاولتَ في أسدٍ فجورا ... فاني لستُ منكَ ولستَ مِنّى

وفي هذه القصيدة يعدد مآثر بني أسد وفضلها على ذبيان ، وكيف أنها آزرت قوم النابغة في حروب كثيرة ، أهمها حربهم مع غسان ، العدو الخارجي الذي يتربص لذبيـان الدوائر ليوقع بها ، بحكم طبيعة أرض ذبيـان وارتفـاعها نحو الشام واختلاطها بأرض الغساسنة ، وتنازع الطرفين على كثير من المواقع : وكان هم النابغة وشغله أن تبقى ذبيان مع أحلافها ، ففيه قوتها وبهم تدفع العدو اللدود « الغساسنة » ولم يكن أمر عبس يشغله كثيرا ، لأن ذبيـــان اذا خسرت مع عبس فانها ستخسر أرواحا وربما أموالا : أما مع الغساسنة فتخسر أرضا وقضية ، وهي خسـارة

---

(١) الكني ابلغني رسالة من الالوك ، وهي الرسالة

(٢) السلام جمع سلمة وهي الحجارة ، شبه قوة القوافي بالحجارة .

(٣) يدين يجرى . والاذاة الضرر

(٤) المعن : الذي يتعرض لما لا يعنيه . ويربوع بن غيظ رهط النابغة .

تمس السيادة .

لقد ذكرنا أن النابغة لم يكن ليتخذ هذا الموقف الجديد من عبس ، فيؤنب قومه على خروج العبسيين من بلاد غطفان الى بلاد عامر ، لولا أنه شعر بعظم المصاب ومقدار الخسارة . وقلنا أن مواقفه القديمة كانت واضحة العداء ضد العبسيين في القصيدتين المذكورتين : ونضيف الى ما تقدم المقطوعات الثلاث التي وردت في ديوانه ، والمقطوعة ذات البيتين التي لم تذكر في ديوانه ، ولا في شرح الأعلم ، وذكرها المفضل الضبي (١) ونثبتها بعد قليل : كل هذه النصوص وضحت الموقف جيدا ، وأظهرت لنا النابغة مناوئا كبيرا لعبس ، ومدافعا يذب بسلاح الشعر عن قومه : فعندما قتلت فزارة قرواش بن هنى العبسي من بني أسيد ، لأنه قتل حذيفة سيد ذبيان وكان لابد أن ينال عقابه ، قال النابغة (٢) :

صبرا بغيضَ بن ريثٍ انها رَحِمٌ ... حِبتمْ بها فأناختكم بَجعجاعِ

فما أساءت عَدِيُّ ان همو قتلوا ... بَنى اسيدٍ ومروانَ بن زنباعِ (٣)

لقد جزتكم بنو ذبيان ضاحيةً ... بما فعلتم ككيلِ الصاعِ بالصاع

---

(١) أمثال العرب ص ٣٩

(٢) ديوانه ص ٢١٦

(٣) ورد فى متن الأبيات « بني اسيد بقتلى آل زنباع » وما اثبتناه في أعلاه ورد في شرح الأبيات برواية أبي عبيدة وهي قريبة من الواقع لأن بني أسيد وبني زنباع من عبس وبني عدى من فزارة .

جزا بجَزِ وتعقيراً بعقيرِ كُـــم   مهلا حميضَن فلا يسَعى بنا الساعى

ويوم تحالفت عبس مع بنى شكل بن كعب بن الحريش ، بعث النابغة بأبيـــات أفسدت هـذا الحلف وجعلت عبسا تترك عامرا ، لأنه وفق في تصوير معاناة العبسيين من العامريين فقال (١) :

جزى الله عبسـا في المواطنِ كلِها
جزاءَ الكلابِ العاوياتِ وقد فَعَلْ
فأصبحتـــُم والله يفعـــُل ذلكـــم
يعزكم مـــولى مواليــكم حَجَـــْل

وأقذع في الهجاء حتى أن قيس بن زهير عندما سمع بالأبيات قال «ماله قاتله الله أفسد علينا حلفنا» (٢) :

وعندما بلغ النابغة أن قيس بن زهير يتشكى بشعره من الأذى والعذاب الذي لحقه ولحق قومه فقال (٣) :

لحا الله قوما أرّثُوا الحربَ بيننا   سقونا بها مرا من الشرب آجنا

رد عليه النابغة مؤنبا ومذكرا فقال (٤) :

ابلِك بكاءَ النســاءِ انّك لن   تَهبِطَ أرضـا تُحبها أبـــدا

(١) الديوان ص ٢١٤ وانظر بقية الابيات فيه .

(٢) المفضل بن سلمة - الفاخر ص ٢٣٠ والميداني مجمع الامثال ٢ / ٦٣

(٢) المفضل الضبي - أمثال العرب ص ٣٩

(٤) المصدر السابق ، ص : ٣٨ وأبو عبيدة - النقائض ١ / ١٠٠
وليست في ديوانه ولا في مختارات الاعلم لمجموع الشعر الجاهلي .

نحن وهنــاكَ للحريشِ وقــد جاوزتَ في الحيّ جعفرا عددا

فالمقطوعات الثلاث ، والبيتان الأخيران ، وقصيدته لعيينة وقصيدة التهنئة لذبيان بخروج عبس وعامر . كلها توضح موقف النابغة القديم من حرب داحس . أما مقطوعته الأخيرة التي بدأنا حديثنا بها والتي أولها :

ابلغْ بني ذبيانَ ألا أخا لهم بعبسٍ اذا حِلّوا الدماخ فأظلما

فهي أعطت موقفا جديدا للنابغة تجاه الحرب ، وهذا الموقف نابع من طبيعة النابغة بما عرف عنه من حب لقبيلته يرعى لها مصالحها . وأغلب الظن أن هذه الأبيات قيلت بعد أن ساءت علاقة العبسيين بالعامريين ، او ربما قالها قبل الصلح بقليل ، او قبل وفاته بقليل . ذلك لأننا لم نجد في شعره ما يشير الى صلح عبس وذبيان . ولو كان النابغة ساعة الصلح حيا لما ترك هذه المناسبة العظيمة تمردون أن تثير شاعريته .

* * *

الحرب والسلام

في شعر عنترة وزهير

- ١ -

اذا قلت أن موضوع هذه الحرب يتكشف فيدخل تحت هذا العنوان ، فما أظنني ابتعد عن واقع الحال كثيراً . فحرب داحس والغبراء بدأت والدماء تجري منها سيولا ، والرجال يذهبون ولا يرجعون ، ثم انتهت سلاماً وصلحا . وصارت الديات تسيل بين القوم انهارا ، فكان كل حي من أحياء غطفان ، تمر به ، تلتئم بمرها الجروح ، وتصفو القلوب فتبرأ من غيظها وتنطفىء نيران الأحقاد والثأر :

وبمقدار ما اقترن اسم عنترة مع هذه الحرب ، فسار ذكره في البلاد واشتهر ، حتى نسجت حوله الأساطير . كذلك اقترن اسم زهير باليوم الذي وضعت فيه الحرب أوزارها ، وسعى في السلم ، واصلاح ذات البين ، المريان هرم والحارث وآخرون لا يقلون عنهما سعيا . فانطلقت الموهبة الشعرية الفذة تسجل أياما مشهودات للقبيلتين ، وتكتب الخلود لهذين الرجلين العظيمين من غطفان ، اللذين نذرا نفسهما وما لهما لكي يعيدا الحياة الطبيعية في

أرض الآباء والأجداد ، مما سبق بيانه في موضعه من القصة :

وقبل الكلام عن جانب الحرب من شعر عنترة ، نود أن نشير الى سجايا هـذا الفارس الشاعر ، لما لها من وشيج الصلة بشعره ومعاني هذا الشعر ، لكي لايتوهم أحد فيحسب أن عنترة شاعر حرب ، بما توحيه هذه للعبارة من عنف ، يزيد في عنفها اشارتنا الى زهير وأنه شاعر سلام ، ان عنترة شاعر قبيلة ، وهو فارسها أيضا ، ولم يقدم الا لاحترام قبيلته ، ولكي لا يتهم بالخور والخوف والجبن ، فضلا عن عقيـدته المؤمنة بوجوب النصر ، ولأن ذبيان ظلمت عبسا ، فقتلت مالك بن زهير ، صديق عنترة وصاحب نجواه ، كما مر في فصلى الـدراسة الفنيـة والموضوعية واثناء القصة : وفي شعر عنترة ما يوضح شمائله ، وأنه كان محاربا عفا متفهما طبيعة الحروب ، وطبيعة هذه الحرب بين بني بغيض التي جرت اليها الجاني والبرىء حيث قال (١) :

هلا سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالكٍ ان كنتِ جاهلةً بما لم تعلمِي
يُخبركَ من شهد الوقيعةَ انني أغشى الوغى واعفُ عند المغنمِ (٢)

. . . .

انى عـدانى ان ازورك فاعلمـى
ما قـد علمتِ وبعضَ مالم تعلمى

---

(١) الاعلم - مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٢٩

(٢) المصدر السابق

حالتْ رمـاحُ ابْنَى بغيضٍ دونكم

وزَوتْ جوانى الحربِ مَنْ لم يجرمِ (١)

وهذا الفارس المحارب الذي يحمل سيفه ، ويركب فرسه ، ويعدو على الرجـال بضربة تفصل الرأس عن الجسد ، لم يكن ذلك الكائن البعيد عن العاطفة الانسانية ونحن رأيناه في أبيـاته السابقة وهو يخاطب حبيبته . ويراه كل قارئ لديوان شعره ، فتطالعه الأبيـات الطافحة بعاطفة الحب الغزيرة . بل ان هـذا المقاتل العنيد ليحمل بين حنايا ضلوعه الصلبة السود ، قلبا رقيقا ، بلغت العـاطفة بصاحبه درجة ، أنـه ذرف الدموع الغزار حتى بلل محمل السيف في ذكرى الديار والأحباب ، وهو على فرسه الى الحرب ، في أرض الغربة (٢) :

أَفمِنْ بكـاءِ حمـامةٍ في أيكـةٍ

ذرفتْ دموُعك فوقَ ظهرِ المَحِملِ

كالدّرِ أو فَضضِ الجُمانِ تقطّعتْ

منـه عقـائدُ سِلكه لم يوَصلِ (٣)

وهو الى جانب هـذا كله كريم عف ، تأبى نفسه الدنايا ،

---

(١) زوت منعت وقبضت (وجواني الحرب) جناتها يقول : منعني من زيارتك حرب داحس والغبراء التي جرت اليها المجرم والبرىء .

(٢) الاعلم ـ مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٤٦

(٣) فضض : متفرق والجمان حبات الفضة كالآلىء .

ولا يرضى أن يخون انسانا في عرض أو مال : وقد وردت هذه المعاني كلها في شعره (١) :

فاذا شربتُ فانني مستهلكٌ مالي وعرضي وافرٌ لم يُكلمِ
واذا صحوتُ فما اقصر عن ندى وكما عَلمتِ شمائلي وتكرّمي

: : : .

ولقد ابيتُ على الطوى وأظلُّهُ حتى أنالَ به كريمَ المأكلِ

وقوله (٢) :

وأغضُ طرفي ما بَدتْ لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها
اني امرؤ سمحُ الخليقةِ ماجدٌ لا أُتبِعُ النفسَ اللجوجَ هواها

واذا كانت هذه صفات عنترة ، كما يذكرها هو في شعره ، فمصداقها في كتب الاقدمين والثقات ، حيث يثبتون الحقيقة في هذا الرجل عندما يذكرونه بكل صفات الشجاعة ، والكرم ، وعفة النفس ، والنبل ، واكتمال الشاعرية (٣) : وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم « ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه الا عنترة » (٤) :

والدارس لشعر عنترة يلاحظ رقة اللفظ ، وجمال الأسلوب ،

---

(١) الاعلم : مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٣٤

(٢) المصدر السابق ص ٣٤٧

(٣) الاغاني ٨ / ٢٣٩ دار الكتب والبغدادي خزانة الادب ١ / ٦٢

(٤) الاغاني ٨ / ٢٣٩

ووضوح المعنى ، وهي صفات في شعره تضاف الى سجاياه الخلقية ، فتجعل منه المثال الكامل للرجل الحقيقي في عصره ، على الرغم من كون هذا العصر يزخر بتناقضات الصحراء وقانون البداوة الصارم :

واقد تضافرت عوامل عديدة ، لكى تخلق من عنترة شاعر حرب ورجل قبيلة . وهي عوامل نوجزها في النقاط الآتية :

أولا : نسبه الذى كان وبالا عليه منذ صغره ، وقد جاءته عقدة النسب من أمه الحبشية ، ثم صارت دافعا قويا الى المجد الشعري والحربي على حد سواء : وفي قصائده اشارات كثيرة الى هـذه العقدة ، يراها الباحث واضحة عند مراجعة الديوان : ويدخل مع هـذا العامل لون بشرته الذي كان تأثيره في نفسه عميقا دامغا :

ثانيا : الظروف العامة المحيطة بقبيلته ، لا سيما حربها مع ذبيان ، وتألب القبائل المجاورة الحليفة لذبيان عليها ، وبعبارة أخرى ان الظروف المحيطة به وبقومه خلقت منه هـذا الشاعر الفارس . ويدخل مع هذا للعامل ، حياة البداوة واعتماد الغارة والحرب أساساً لعيشها :

ثالثا : حبه لابنة عمه ، حيث رفضت عائلتها زواجها منه أول أمره ، فاندفع يشتهر بالشجاعة والشعر معوضاً مانقص من نسبه ولون بشرته ، ليفوز بقلب حبيبته وقد كان له ذلك :

رابعاً : ونستطيع أن نضيف الى النقاط الثلاث ، عاملا رابعـا يتعلق بعنترة نفسه ، حيث كـان يمتلك قوة جسدية ، وعقلا مخططا ومدبرا ، حقق لجميع العوامل ازدهارها ، وذكاءً فطريا وموهبة ، وجدت متنفسها في قصائد الشعر التي كانت تنطلق بها حنجرته . وقد استعان بهذا الذكاء وقوة الجسد في تنفيـذ خطط النجاح والنصر في شق مناحي الحياة .

خامساً : على أن أهم ما يميز عنترة ، وهو الذي أدخله في عداد الاسطورة ، هو خلقه الذي تتركز فيه المثل الجاهلية والعادات الصحراوية ، وكان الفرد العربي يجد تطلعاته وطموحاته في الصفات الخلقيـة التي يمتلكها عنترة . وعامة شعر عنترة في هـذه الحرب يمكن حصره في نقاط ثلاث هي حصيلة جهد الشاعر ، ممثلة الحيـاة الجاهلية أروع تمثيل :

أولا : وصف الجيش والمعارك الحربيـة ، ولا يخلو شعره من بعض التفصيلات الدقيقة التي تتحدث عن كيفية اللقاء واقتتال الزعماء والحديث عن السلاح والخيل .

ثانياً : الفخر والحماسة ، وهو نوعان ، فخر ذو طابع قبلي ، وآخر ذو طابع فردي ، الأول يدخل ضمن شعره في القبيلة ، ويدخل الثاني في شعره الذاتي .

ثالثاً : الأغراض الأخرى المتعلقة بهذه الحرب من رثاء وهجاء وحتى الغزل ، فانه يتشح برداء الحرب . وفي شعره بعض اشعاعات بسيطة تقترب من شعر الحكمة ، وهي حكمة تفرضها طبيعة الحياة التي يحياها المحارب مغتربا في بلاد بعيدة ، ومرتخصاً كل غال من أجل القضية التى يحارب بسببها :

والواقع ان المتتبع ، يستطيع أن يخرج بصورة للحرب في العصر الجاهلي من شعر عنترة ، بالنظر لوفرة الحديث في شعره عنها : ولا غرابة وهو فارسها ، واحد صناديدها والمجلى في ساحاتها :

ونفصل الآن في النقاط الثلاث من مادة الحرب ، لنستوفى جوانب هذا الموضوع ، حتى نخرج منه الى مادة السلم في شعر زهير ، باعتبارهما مادتين متقابلتين .

أما حديثه عن الجيش ، فأكثر وصفه له بوفرة العدد والسلاح ، مع عدم الضعف ، فهو يقبل في كتائب ، فوق كل كتيبة لواء ، يرفرف كظل الطائر المتقلب في الفضاء (١) :

فجئنا على عمياءِ ما جمعوا لنا بأرعنَ لا خلٍ ولا متكشفِ (٢)

فان يكُ عزٌ في قضاعةَ ثابتٌ فان لنا برحرحان واسقفِ

(١) الأعلم : مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٤٣

(٢) العمياء الامر المبهم . والأرعن الجيش الكثير العدد ، والخل الضعيف والمتكشف الذي لا سلاح معه .

كتائبَ شهبا فوقَ كلِ كتيبةٍ لواءٌ كظلِ الطائرِ المتصرّفِ

وتتكرر صورة هذا اللواء في موضع آخر (١) :

كتائبُ تُزجى فوقَ كلِ كتيبةٍ لواءٌ كظلِ الطائرِ المتقلّبِ (٢)

هذا اذا كانت كتائب الجيش عظيمة ، لكن عنترة يصف الجيوش الصغيرة منها أيضا ، ويسميها السرايا ، ويشبهها بعصائب الطير ، تقصد مواضع معينة لشرب الماء فيقول (٣) :

كأن السّرايا بين قَوٍ وقارةٍ عصائبُ طيرٍ ينتحينَ لمشربِ (٤)

ثم يبدأ حديث القتال ، فيصف كتيبة العدو ، وهي تتقدم فتلتقي بكتيبته التي يصفها بالشهبة ، فهي بيضاء من لمعان السيوف . وصارت لشدة جلبتها خرساء لا يتبين منها صوت ، تضم الكماة ابناء الكماة ، في ايديهم الرماح تلمع ، كأنها شهب تبهر الظلام ، وهم يمتطون أفراسا واهلاً نجيبة ، تعدو بهم ، ويلبسون الدروع ثابتين ، ساعة تشتد الحرب ، فيشتد الفزع والخوف . ثم يبعثون ربيئة يستطلع لهم قوة العدو وضعفه ، فينطلق عنترة وهو قائدهم في الظلام ، قبل انبلاج الصبح ، والكتيبة معه حتى يلتقي بهم :

---

(١) الاعلم : مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٥٨

(٢) تزجى : تساق

(٣) الاعلم : مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٥٧

(٤) السرايا جمع سرية ، وهي الجيش الصغير ، وعصائب جماعات وينتحين يقصدن . وقو وقارة موضعان .

فاذا ارتفع الضحى ، حمل عنترة على فارس الكتيبة : وما يزال الطعن محتدما حتى تستعر الهجيرة ، وتحل الظهيرة ، فيحمل الفرسان على العدو ، ويكون النصر محققا ، وتطأ الخيل جثث صرعاهم ، ويعود عنترة وجنده برأس عظيم القوم . وأما القتلى الآخرون فانهم متروكون على أرض المعركة .

وكتيبةٍ لبّستُها بكتيبةٍ ... شهباءَ باسلةٍ يُخافُ رداها (١)

خرساءَ ظاهرةِ الاداةِ كأنّها ... نارٌ يشبُّ وقودُها بلظاها (٢)

فيها الكماةُ بنو الكماةِ كأنّهم ... والخيلُ تعثرُ في الوغى بقناها

شهبٌ بأيدي القابسين اذا بدتْ ... بأكفهم بهرَ الظلامَ سناها

صُبُرٌ أعدّوا كلَّ أجردَ سابحٍ ... ونجيبةٍ ذَبُلتْ وخفَّ حشاها

يَعْدُونَ بالمستلئمين عوابسا ... قودا تشكّى أينها ووَجاها (٣)

يحملنَ فتيانا مداعسَ بالقنا ... وُقراً اذا ما الحرب خفّ لواها (٤)

من كلِّ أروعَ ماجدٍ ذي صولةٍ ... مَرِنٍ اذا لحقتْ خُصى بكلاها (٥)

---

(١) لبستها : غشيتها . شهباء بيضاء للمعان السيوف والدروع

(٢) خرساء لا يسمع فيها صوت والاداة السلاح

(٣) المستلئمين لابسي اللامات وهي الدروع . قودا جمع أقود وهو الذليل المنقاد أينها كلالها وجاها تعبها .

(٤) مداعس جمع مدعس وهو الطاعن وقرا جمع وقور .

(٥) أروع أي منظره معجب ، ولحقت خصى بكلالها كناية عن الرعب في المعركة .

وصحابةٍ شمّ الأنوفِ بعثتُهم ليلا وقد مالَ الكرى بطُلاها (١)
وسريتُ في وعثِ الظلامِ أقودُهم حتى رأيت الشمس زال ضحاها (٢)
ولقيتُ في قِبَلِ الهجيرِ كتيبةً فطعنتُ أولَ فارسٍ أولاها
وضربتُ قرنَيْ كبشِها فتجدّلا وحملتُ مُهري وسْطَها فمضاها
حتى رأيتُ الخيلَ بعد سوادِها حمرَ الوجوهِ خُضبنَ من جَرحاها
يعثُرنَ في نقعِ النجيعِ جوافلا ويطأنَ من حَمْىِ الوَغى صرعاها (٣)
فرَجعتُ محمودا برأسِ عظيمها وتركتُها جَزرا لِمَن ناواها

لكن عنترة المحارب ، ثابت دائما ، حتى اذا أحجمت الكتيبة من شدة القتال ، فهو لا يحجم ، بل يبقى يدافع حتى يفرق جمع العدو ، ويعيد الى نفوس قومه الثقة ، لأنه لا يهرب مع الرعيل الأول الهارب من الحرب (٤) :

واذا الكتيبةُ أحجَمتْ وتلاحَظتْ
ألفيتُ خيرا من معمٍّ مخولِ (٥)
والخيلُ تعلمُ والفوارسُ انني
فرقتُ جمعَهم بطعنةِ فيصلِ

---

(١) طلاها : أعناقها
(٢) وعث الظلام : شدته
(٣) النجيع الدم
(٤) الاعلم : مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٤٨
(٥) تلاحظت نظر الابطال الى البطل الحامى الذمار .

اذ لا أبادرُ في المضيقِ فوارسي
ولا أوكّل بالرعيلِ الأولِ (١)

وشعر عنترة كله وصف للمعارك الحربية ، ولقاء الابطال ، ومبارزة القادة ، واقدام الخيل ولمعان السيوف . ويبلغ حب عنتره للحرب أنه يهش لذكرها مرتاحا فرحا (٢) ، والعجز والتعب الباديان على جسمه المرهق ، ليس سببهما الحرب ، وانما تقادم الزمن ومر الايام :

فما أوهى مراسُ الحربِ ركني ولكن ما تقادمَ من زماني
وقد علمتْ بنو عبس بأني أهشُّ اذا دُعيت الى الطعانِ

وليست هذه من عنترة قسوة كما بينا ، لكنها الشجاعة التي تطلبها حياة البادية والدفاع عن القبيلة :

أما تصويره للحرب فانه لا ينفك ينعتها بما يناسبها من الصفات فيقول مثلا (٣) :

واسألْ حذيفةَ حين أرثَ بيننا حربا ذوائبُها بموتٍ تخفقُ
فلتعلمنَّ اذا التقت فرسانُنا بلوى النُجيزةِ ان ظنكَ أحمقُ

ويصفها « بالعوان » اذا شبت مرة بعد مرة ، وهي أشد

---

(١) أي أنني لا أسبق الفرسان عند الحرب وانما أحمي ظهرهم وعورتهم . والرعيل : الجماعة من الخيل والناس وغيرهم .

(٢) الاعلم : مختارات الشعر الجاهلي ص : ٣٦٤

(٣) الاعلم : مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٦٢

الحروب ، ويريد حرب داحس والغبراء (١) . ويسميها « الكريهة » (٢) و « الهياج » (٣) و « المشعلة » (٤) و « الهيجاء » (٥) : ومن أقواله فيها (٦) :

أعاذلَ كم من يومِ حربٍ شهدتُه له منظرٌ بادي النواجِذ كالحُ

وينتقل خلال قصائده الى الحديث عن السلاح والخيل ، وقد وردت في شعره كثيرا ، وأخذت صورا متعددة : أما الأبل فذكرها بالنسبة للخيل قليل ، لكنها أخذت نصيبا طيبا من شعره ، لأنهـا توصله الى حبيبته غالبا . وفي معلقته حديث متتابع عن فرسه وناقته :

تُمسي و تُصبحُ فوقَ ظهرِ حشيّةٍ وأبيتُ فوقَ سراةِ أدهم ملجمِ
وحَشيّتي سرج على عبلِ الشوى نهدٍ مراكلُه نبيلِ المحزمِ (٨)

---

(١) المصدر السابق ص ٣٦٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٢٩

(٣) المصدر السابق ص ٣٥٢

(٤) المصدر السابق ص ٣٥١

(٥) المصدر السابق ص ٢٧١

(٦) المصدر السابق ص ٣٦٥

(٧) المصدر نفسه ص ٣٣٢

(٨) عبل الشوى : صخم غليظ

هـل تبلغنى دارَهـا شدنيّـةٌ
لُعِنَتْ بمحرومِ الشرابِ مصرمِ (١)
خطّـارةٌ غِـبَّ السُرى زيّـافةٌ
تَطِسُ الأكامَ بكلِ خفٍ ميثمِ (٢)

ويظل يتتبع صفاتها في الأبيات التى تلى هذه الأبيات ، من دقـة العنق وصغر الرأس ، ثم يرجع الى فرسه بالوصف الدقيق أيضاً . وتكاد لا تخلو قصيدة من قصائده الطويلة او القصيرة من حديث الفرس والناقة :

وقد اشتهر عن عنترة كلفه بهما ، وخاصة الخيول ، حتى أنه كان يسقيها من ألبان ابله . وله مقطوعة يرد بها على امرأة لامته على فعلته هذه ، والقصيدة في مجموعته الشعرية مع خبرها هذا : وقد لقيت أسلحة الحرب من عنترة مثل الذي لقيته الخيل والابل ، وقـد تفنن في اطلاق الكنى والصفات على السلاح ، فكان يسميها اللوامع ، والماذي ، وقد ذكر السيوف ، والرماح

---

(١) شدنية ناقة منسوبة الى شـدن وهي ارض او قبيلة في اليمن . والمعنى أن هـذه الناقة دعى عليها ألا تنجب وترضع ، وهـذا أقوى لها .

(٢) خطارة تشيل بذنبها وتحركه . زيافة تتبختر . تطس تكسر الأكام جمع اكمة كل مرتفع فى الأرض . ميثم كثير الدق والكسر والمعنى انها في سيرها نشيطة مرحة .

والدروع ، والتروس ، والأقواس ، والسهام ، وعـــدد أسماءها المختلفـة وصفاتها التى تنسب اليها ، فالسيوف مثــلا ، المهندة والمشرفية واليمانية والصفائح :

وقال في صفة السيف أيضاً الصارم ، والحسام ، والمنصل ، والعقيقة ، والذكر : ومثل السيف في الكثرة عنده ذكر الرماح واوردها بأسمائها وصفاتها ، كالعوالي ، والردينية ، والسمهرية والخرصان ، والأسل ، والأسنة .

واطلق على الرمح أيضاً القنـــا ، والمقصد ، وتحدث عن الرمح وجاء بصفته ، وهي اللامة ، وعن الترس وصفته المجن وعن السهم ، وشبهه بسير الحميري في استوائه ، والقوس المصوتة وسماها الهتوف . وقصدنا من هذا ، أن نبين الجانب الحربي في شعره ، ولسنا نبغي أن نستقصي ، فليس هذا موضع استقصاء

واذا كان وصف الحرب والمعركة ، وذكر الخيل والابل والسلاح استغرق من شعر عنترة جانباً عظيما . فالجانب الآخر ذهب به شعر الفخر والحماسة . وهو ينقسم عنده الى قسمين : الأول منه ، يختص بالقبيلة وأمجادها وانتصاراتها ، والثاني يختص بحياته وانتصاراته وشجاعته وكرمه . وفي كليهما يخرج عنترة شاعرا مجيـــدا ، حيث يأتي بالصور الشعرية الرائعة التي يسجل بواسطتها لقومه ولنفسه آيات الفخر ، ويكتب لهم معاني الخلود . وقد وردت في الفصول المتقدمة استشهادات كثيرة منها :

وتدور معانيه في الفخر حول البلاء في الحرب ، ولن تجد له في الأنساب فخرا وذلك لأنه كان يعتقد أن غمرات الوغى وضربات السيوف تحمى النسب ، اذا كان مطعونا ، هل ان الشجاع ليكون أعلى قدرا من شريف القوم الذي يجبن ساعة القتال (١) ، وربما غض القوم عن النسب المهموز ، اذا أبلى في الحرب ، ورد عن القبيلة وعرضها خطراً اكيداً :

انى امرؤ من خيرِ عبسٍ منصبا شطرى وأحمى سائرى بالمنصلِ
واذاالكتيبةُأحجَمت وتلاحَظت الفيتُ خيرا من مُعمٍ مخولِ

يقول : فاذا أردتم أن تنسبوه ، فنصفه الذي من أبيه ، ينتمي الى أشرف بيوتات عبس ، ونصفه الآخر الذي يشوبه سواد أمه وسواد أهابه هو ، محمي بشجاعته :

وليس في شعر الفخر والحماسة عند عنترة ، سواء أكان في قومه ، أو نفسه ، من المعاني غير ما يخص الحرب ، ولا يفخر بشيء سواها (٢) :

ونعمَ فوارسُ الهيجاءِ قومي اذا علقوا الاعنةَ بالبنانِ
هموا قتلوا لقيطا وابنَ حجر وأردوا حاجبا وابنَى ابانِ

وهو على عادة شعراء الحرب ، تتداخل الأغراض المختلفة في قصائده : فبينما يفخر بقومه ، اذا هو ينتقل فجأة ليصف

(١) الأعلم : مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ٢٦٤

كيف أجهز على فارس شجاع . ثم يمضي مفتخرا بنفسه حتى يصل به فخره الى تذكر حبيبته ، وعاذليه ، وأعدائه ، فيبدأ الهجاء ثم الوعيد . ويظل هذا ديدنه حتى تنتهي القصيدة : وتبرز هذه الحالة في معلقته بروزا واضحا ، مما يجعلنا نحكم انها نظمت في فترات متباعدة ، وليس مرة واحدة :

ومن هنا نستطيع أن نجد تفسير انعدام ظاهرة الصنعة الفنية في شعره ، فلم تتوفر له فترات الاستقرار ، ليعيد النظر في قصائده يزيد عليها أو يهذبها ، واذا زاد في بعض قصائده ، كما حصل في المعلقة ، فانه متأت من عفو الخاطر ، ولم يعمد الى ذلك عمداً .

والغزل في شعره نوعان ، نوع منـــه في مقدمات القصائد ومطالعها ، وهو على الغالب تقليدي . أما الذى في متون القصائد فبعضه أو أكثره حقيقي في ابنة عمه «عبلة» ، وهو غزل حرب أيضا (١) :

هلاّ سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالكٍ ... ان كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي
اذ لا أزال على رحالةِ سابحٍ ... نهدٍ تعاوَرَه الكماةُ مكلَّمِ
طورا يُعرَّضُ للطعان وتارةً ... يأوي الى حَصِدِ القِسِيِّ عرمرمِ (٢)

(١) المصدر نفسه ٣٧١

(٢) الطور المرة . وحصد محكم . وعرمرم كثير . يقول مرة احمل عليه على الأعداء ومرة انضم به الى قوم احكمت قسيهم وكثر عددهم .

يخبرك من شهـد الوقيعة انني   أغشى الوغى واعفّ عند المغنمِ

أو قوله (١) :

اثني عليّ بمـا علمتِ فانـي   سمحٌ مخـالقتي اذا لم أظلـمِ
فاذا ظُلمتُ فان ظلمي باسلٌ   مرٌّ مذاقتُه كطعمِ الحنظـلِ

وكذلك رثاؤه (٢) :

وكان فتى الهيجاء يحمي ذمارَنا   ويضربُ عند الكرب كلَّ بنانِ

قاله وهو يرثي مالك بن زهير :

وقال في رثاء قرواش بن هني العبسي (٣) :

واطعنُ في الهيجا اذا الخيلُ صدَّها   غداةَ الصباحِ السمهريُّ المقصَّدُ

فهو رثاء حرب ومعانيه معاني البطولة .

وحتى في هجائه ، فانه يعير مهجوه بما يعير به الفارس في الحرب (٤) :

ستعلمُ أيُّنا للمـوتِ أدنـى   اذا دانيتَ بي الأسلَ الحِرارا (٥)
ومنجـوبٍ له منهـنَّ صرعٌ   يميلُ اذا عدلت به الشِوارا (٦)

---

(١) الأعلم : مختارات الشعر الجاهلي ص : ٣٣٢

(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٤ وما بعدها

(٣) المصدر نفسه ص ٣٧١

(٤) المصدر نفسه ص ٣٤٤

(٥) الاسل الرماح   الحرار العطاش

(٦) منجوب الاناء الواسع الجوف . الشوار المتاع

آقل عليك ضَرّا من قَرِيحٍ   اذا أصحابُه ذَمَروهُ سارا (١)

وخلال قصائده الطوال ، تظهر أبيات في الحكمة ، يذكرها عنترة في مناسباته الحربية : وأكثر هذه المناسبات تتمثل في حمل النفس على قبول الموت ، وردها عند الشعور بالرهبة منه ، وتذكيرها بالمصير الذي سوف يلحق بها ، اذا رضيت بالعار ، والموت قادم اليوم أو غدا ولذا فانها يجب أن تقبل به الآن ، مع عز ومجد ، فهو أجدى لها من قبوله غدا : وهي مكرهة ، وربما رافقه ذل وهوان (٢) . وعلى العموم فهي حكمة أوحتها معاني الحرب والقتال والشجاعة :

فقلت لمن قد أحضر الموت نفسه
الا من لأمر حازم قد بدا ليا
تعالوا الى ما تعلمون فانني
أرى الدهر لا ينجي من الموت ناجيا

وقوله (٣) :

وعرفتُ أن منيّتي ان تأتِني   لا ينجني منها الفِرار الأسرَعُ
فصبرتُ عارفةً لذلك حرةً   ترسو اذا نفسُ الجبانِ تطلّعُ

---

(١) قريح مقروح ، وهو الذي في فمه جروح فيتهدل مشفره . ذمروه زجروه .

(٢) الاعلم : مختارات الشعر الجاهلي ص ٣٤١

(٣) المصدر نفسه ص ٣٥٠

وقوله (١) :

ولقـــد غدوتُ أمام رايةِ غالب
يومَ الهياجِ وما غدوتُ بأعزلِ
بكرتْ تخوفني الحتوفُ كأنني
أصبحتُ عن غرضِ الحتوفِ بمعزلِ
فأجبتهـــا أن المنيـــة منهـــل
لابـد أن أسقى بكأس المنهلِ
فاقنى حياءك لا أبا لك واعلمى
اني امرؤٌ سأموت ان لم اقتلِ (٢)
ان المنيـــة لو تمثـــلُ مُثلت
مثلى اذا نزلوا بضنك المـــنزلِ

* * *

وعلى الجانب الثاني من هذا العالم الزاخر بوصف المعارك ، والسلاح ، والخيل ، والضرب ، والطعن ، والموت ، مجلس شاعر آخر ، بلغ ذروة العبقرية الشعرية ، وأمسك بزمام فنه طوع يديه ، يقوم ما احتاج منه الى تقويم ، فيخرج على الناس كل عام بغرر قصـائده التي وضعت مفهوم البطولة في مجتمع البـداوة موضعه من الاعتبار والتقدير :

(١) المصدر نفسه ص ٣٤٨

(٢) الزمى الحياء وارجعى عن لومى

فالشجاعة مقرونة بالصفح والكرم وشرف المحتد ، كلها سجايا تتوفر في ممدوح زهير . وكما تهيأت لعنتره عوامل متعددة كونت شخصيته الادبية والحربية ، كذلك زهير ، فقد مهدت عوامل البيئة من جهة ، وحالته الفردية بما فيها النفسية من جهة أخرى ، فخلقت من زهير شاعرا من طراز آخر ، ليس ذلك الذي ألفناه في عنترة .

وقد حدثتنا ترجمة حياته أنه ينتسب لأب من مزينة (١) ، ترك قومه اثر ظلمهم له مرتين ، مرة في غنيمة حرب حرموه منها ، وكان له نصيب فيها ، وأخرى عندما غزا معهم قوما آخرين . فلما اسهلوا راجعين تطايروا وتركوه وحده ، فارتحل عنهم وسكن ديار بني عبد الله بن غطفان . فنشأ زهير ابنه في أكناف اخواله من بني مرة . وظل يدين بالحب لغطفان ، وبنى مرة بن ذبيـــان ، فتزوج زهير فيهما ، كما فعل أبوه من قبل . وشعره في القبيلتين كثير (٢) .

وقد كان لهاتين الحادثتين المذكورتين آنفا أثرهما البالغ في حياة الأب والابناء ، بدليل أنهم تركوا أرضهم وقومهم ونزلوا أرضا وقوما آخرين . وبسبب من هذه الغربة ، ولأن زهيرا ينحدر

---

(١) احدى قبائل مضر

(٢) شرح ديوان زهير ص : ٩

من بيت شعر (١) ، فقد تكاملت حوله ظروف العيش في اطار فريد من ضروب الحيـاة ، فلم يكن لديه ما يبرر نهوضه مع غطفان ، في هـذا الهيـاج العظيم الـذي نجم يوم حرب داحس والغبراء ، لأنه غريب :

وكانت حيـاة الشعر والأدب والثراء قـد أملت عليه نمطا خاصا من السلوك في العيش بدعة واطمئنان ، لا سيما وقد اشتهر عنه حبه للشعر وامعانه في تجويده ، حتى عد من عبيده : وشاعر هـذا دأبه يجب أن يميل الى جـانب الخير والسلام ، فضلا عن الحكمة التي تميزت بها روحه الرائقة الصافية :

لذلك جعل من قصائده اوسمة يعلقها على صدر الممدوحين كأنه يشجعهم على أعمال الخـير التي كانوا يسدونها لقومهم ولغيرهم :

وعلى هذا فان مدحه للساعين في الصلح لم يكن لكسب أو نفـع شخصي ، اكثر من كونه اعجابا بالممدوحين ودعوتهم الاصلاحية : فهو بهذا يبتعد عن طابع المدح في شعر النابغة ، وان كان النابغة في هذا المدح يبقى محتفظاً بلقب شاعرالقبيلة ،

---

(١) ابوه شاعر ، وخاله بشارة بن الغدير الغطفاني كان شاعرا ، واخته سلمى شاعرة ، وكذلك اخته الخنساء ، وابناه كعب وبجير شاعران ، وحفيده عُقبة بن كعب ، المعروف بالمُضرَّب شاعرا ، والعوام بن عقبة .

والحقيقة فان زهيرا ينفرد بانسانيته ، حيث يتعقب احداث الحرب ، ويهدون ما جنح منها الى السلم ، وحقن دماء القوم ، وقد تجلى هذا الأمر في مدحه لهرم والحارث المريين ، ومدح زهير عبسا يوم أعانت النعمان بن المنذر ، عندما غضب عليه كسرى ، فعرض نفسه على بعض قبائل العرب فلم تنجده

وكانت تلك مقدمات العداء بين العرب والفرس وممهدات حرب « ذى قار » المشهورة . ولو كان زهير متحيزا لطرف او فئة من غطفان في « حروب داحس والغبراء » الطويلة ، لما مدح عبسا وأثنى عليها في أداء واجب النجدة والعون لعربي ، أزمعت عليه الأعاجم .

سوى أن حياً من رواحة اقبلوا وكانوا قديماً يتقّون المخازيا (١)

ومما تقدم يتأيد لنا أن عنترة والنابغة شاعرا قبيلتيهما ، غير أن الأول منهما يذب عنها بسيفه وشعره ويدافع النابغة عن قبيلته بشعره وبكل الوسائل التي تميزت بها شخصيته من سياسة وكياسة وقد نوهنا عن سفارته لقومه في الحديث الخاص عنه ، قبل هذا المبحث . أما زهير فشاعر انساني ذو طابع متميز .

واذا وجد في شعر زهير وصف للحرب والشجاعة فهي من قبيل التمدح بالصفات العظيمة التى كان يتحلى بها الزعماء والسادة في تلك الفترة لا سيما اذا كانت حربا استهدفت الدفاع

---

(١) ديوانه ص ٢٩٠

عن شرف القبيلة ورد الضيم عن القوم ، مثل التي تخوضها اليوم بعض شعوب الأرض وأطلق عليها اسم « الحروب التحريرية » :

والمجموعة الشعرية التي وصلت الينا من شعر زهير يغلب عليها موضوع المدح ، وأكثره في هرم بن سنان والحارث بن عوف : وبعض قصائده في سنان بن أبي حارثة ، وحصن بن حذيفة : وقد استأثر المريون من شعر زهير بنصيب وافر ، لسعيهم في الصلح بين عبس وذبيان من جهة ، ولأنهم أخواله ، وكانوا قد أحسنوا جواره عندما خرج أبوه من مزينة ، وقد تزوج فيهم . فاستحق المريون لأجل ذلك معلقة زهير ، وقصيدتيه الأولى لامية (١) يشير فيها بصريح العبارة الى أمر الصلح ، وقيام الرجلين هرم والحارث بأمر الصلح وتحمل الديات ، والثانية ميمية فيها حديث عام حول الموضوع يقول فيها (٢) :

وَعودَ قومَه هَرِمٌ عليه ومن عاداتِه الخلقُ الكريمُ
كما قد كان عوّدهم أبوه اذا أزَمَتْهُم يوما أزومُ (٣)
كبيرةُ مغنمٍ ان يحملوها تهمّ الناسَ أو أمرٌ عظيمُ
لينجوا من ملامتها وكانوا اذا شهدوا العظائمَ لم يليموا
كذلك خيمهم ولكلِ قومٍ اذا مسّتهم الضراءُ خيمُ (٤)

---

(١) الاعلم - مختارات الشعر الجاهلي ص ٢٠٧ و ٢٦٣

(٢) المصدر السابق ٣٠٩

(٣) ازمتهم أزوم . عضتهم داهية شديدة .

(٤) الخيم الخلق

فهذه القصائد الثلاث : المعلقة واللامية والميمية ، هي التي ضمت حديثا صريحا عن الحرب : وفي المجموعة عدد من القصائد في مدح هرم ، لم يرد فيها كلام مباشر عن هذه الحرب ، ولكنها تحمل نفس الروح والصفات التي يتحلى بها ممدوحو زهير ، وهي اطفاء نيران الحروب بالأموال الطائلة ينفقونها من ملكهم .

ويبلغ عدد أبيات هذه القصائد الثلاث مائة وعشرين بيتا . وفيها عدا المدح والوصف غرضان آخران متميزان ، هما الحكمة والمثل ، ووصفه متصل بحياة البداوة اتصالا وثيقا . وحكمته مستنبطة من ملاحظاته المحددة بأفق حياته ، وربما أوحتها اليه الحادثة أو الموضوع الذي من أجله نظم قصيدته ، وبعض حكمته ذو طابع ديني مبعثه تحنفه وضعف وثنيته :

وحديث زهير في الحرب ، حديث شاعر يعرف كيف يصوغ أطار معانيه ، فيضعه في موضعه من الكلام ، فلن تجد في كلامه تعاضلا ولا تناقضا ، بل يجري جرى الأفراس في أعنتها ، والفارس ممسك بالعنان يوجهه متى شاء : لذلك نراه يتحدث ساعة قيام الصلح حديثا يناسب الحالة ، فلا يرد فيه ما ورد في القصائد الأخرى ، عندما وصف ممدوحيه بالشجاعة والاقدام في الحرب . ذلك لأن زهيرا كما أسلفنا استطاع أن يميز بين حرب داحس والغبراء التي اقتتل فيها الاخوة اقتتالا دمويا ، وبين حروبهم الأخرى التي كانوا يردون بها غارة أو غزوة ،

يشنها أعراب ظالمون ، قصدهم الغنيمة والسلب . ومع ذلك فهو لا يألوا جهدا أن ينصح القوم المعتدين بالتعقل وقبول المساومة للصلح قبل فوات الأوان . فهذه هوازن ، اجمعت أمرها لغزو غطفان ، فيعلم بذلك زهير ، ويبعث بأبياته ينصح للغزاة الا يغتروا بكثرتهم ، وأن يذكروا أواصر الرحم والود ، ويحذروا حرب غطفان التي اذا عضتها الحرب استعر اوارها ، وأن تقبل هوازن بالصلح الذي هي احوج اليه أكثر من سواها ، ثم يمضي في وصف الغطفانيين وبلائهم في الحروب (١) :

رأيتُ بَني آلِ امرئ القيس اصفقُوا
علينا وقالوا اننا نحنُ اكثرُ (٢)
سليمُ بن منصورٍ وافناءُ عامرٍ
وسعدُ بنُ بكرٍ والنصورُ وأعصُرُ
خذوا حظكم يا آلَ عِكرمَ واذكروا
أواصرَنا والرحم بالغيب تذكرُ
خذوا حظكم من ودنا ان قربَنا
اذا ضَرَستْنا الحربُ نارٌ تَستعرُ

(١) الأعلم : مختارات الشعر الجاهلي ص ٢١٤

(٢) اصفقوا : اجتمعوا

وانـــا وايـــاكم الى ما نسومكـــم

لمثلانِ أو أنتمْ الى الصلحِ افقرُ (١)

اذا ما سمعنـــا صارخا معجت بنـــا

الى صوته ورقُ المراكلِ ضُمَّرُ (٢)

هذا موقفـه من حروب غطفان مع غيرها ، وضحته هـذه الأبيات ، انه حديث فيه رغبة وفيه رهبة ، يرغبهم في الصلح ليبعدهم عن الحروب التى تأباها عقيدته ، ويرهبهم بقوة غطفان وقدرتها على رد الغارة :

أمـا موقفـه من حِروب غطفـان نفسهـا ، وبخاصة حرب داحس ، فهو موقف ثابت صريح يتسم بنفوره وكرهه لهـا ، لأنهـا أضرت بهم ضررا كبيرا ، فأهلكتهم وأهلكت أموالهم وذراريهم ، وأحرقت حرثهـم ، وفرقت رجـالهم وانجبت لهم الشؤم وأورثتهم الفقر (٣) :

وما الحربُ الا ما علمتم وذقتمُ   وما هو عنهـا بالحديث المرَّجمِ

متى تبعثوهـا تبعثوها ذميمـــة   وتَضْرَ اذا ضَرّيتموها فتضرمِ

---

(١) نحن وأنتم مثلان في الاحتيـــاج الى الصلح وترك الغـــزو بل أنتم أفقر .

(٢) معجت مرت سريعا . ورق المراكل ضمر اى خيول تحات الشعر من مراكلها لكثرة الركوب . وضمر خفيفة .

(٣) الاعلم مختارات الشعر الجاهلي ص ٢٦٧

فتعرككم عرك الرحى بثفالها   وتلقح كشافا ثم تحمل فتتئم (١)
فتنتج لكم غلمان اشأم كلهم   كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم
فتغلل لكم مالا تغل لأهلها   قرى بالعراق من قفيز ودرهم

وكما قدمنا، فقد تفضل رجلان من القوم، وسعيا في الصلح، وتداركا الأمر، حتى استطاعا أن يحققا سلما واسعا بين القبيلتين؛ وذلك باحتساب الديات، فدفعاها من أموالهما، وتوثقا من صلحهما، ففازا بتقدير العرب عامة. ثم يؤكد زهير في قصيدته على هذا الميثاق، فيطلب من القوم أن يشفعوا صلحهم بنسيان ما في نفوسهم من الحقد، لأنهم ان فعلوا ذلك، وأخفوا شيئا، فان الله يعلم به، ويضعه لهم في كتاب يدخره ليوم الحساب، وربما يعجلهم القدر بما يكرهون :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما
تبزل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله
رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما
على كل حال من سحيل ومبرم (٢)

---

(١) كشافا اى سنتين متتاليتين

(٢) السحيل الخيط المفرد وهو كناية عن الرخاء ، والمبرم المفتول كناية عن الشدة .

تداركتما عبساً وذبيانَ بعدما
تَفانَوا ودَقّوا بينهم عطرَ منشمِ (١)
وقد قلتما ان نُدرك السّلمَ واسعاً
بمالٍ ومعروف من الأمر نسلمِ
فأصبحتُما منها على خيرِ موطنٍ
بَعيدَيْنِ فيها من عقوق ومأثمِ
عظيمينِ في عليا معد وغيرها
ومَنْ يستبح كنزا من المجد يَعْظُمِ
فأصبحَ يجري فيهم من تِلادِكم
مَغانِمَ شتّى من إفالِ المزَنّمِ (٢)

تُعفّى الكلُوم بالمئينِ فأصبحت ينجّيها من ليسَ فيها بمجرمِ
ينجيها قومٌ لقوم غرامةً ولم يُهريقوا بينهم ملءَ محجمِ
فمَنْ مبلغ الأحلافِ عني رسالةً وذبيانَ هل أقسمتُم كلَّ مقسمِ
فلا تكتمنّ اللهَ ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم اللهَ يعلمِ
يؤخّر فيوضَعْ في كتاب فيدّخر ليومِ الحسابِ أو يعجّل فينقمِ

وأمام هذه الجهود العظيمة المبذولة من قبل السيدين العظيمين ، والناس الآخرين ، وأمام رغبة القادة والرجال في الصلح ، حاول

---

(١) منسم امرأة تبيع العطور
(٢) التلاد : المال القديم الموروث . والافال الفصلان . والمزنم : اسم فحل معروف .

فود قتل أبوه وأخوه في هذه الحرب ، أن يفسد ما عزموا عليه وثبتوه ، فخرج يتعقب فلول الرجال ، ويتحين فرص السلم التي جعلت النـاس يأمنون ، ويخرجون بلا خوف أو قلق ، فتربص لرجل من عبس ، وعدا عليـه فقتله . وكادت الحرب تنشب مرة أخرى ، ولكن حكمة السيدين العظيمين ما تزال سارية في القوم ، فلم ييئسا وراحت الأموال مرة أخرى تمحو الجروح ، يدفعها الساعيان ، وكانهما يدفعان غرامة الذنب أو جرم لم يفعلاه :

لَعمري لنعمَ الحيُّ جرَّ عليهـــم
بمـا لا يواتيهمْ حِصينُ بنُ ضَمضَمِ

وكان طــوى كشحا على مُستكنّــةٍ
فلا هو أبــداها ولم يتجمجمِ (١)

وقــال ســأقضى حـاجتى ثم اتقــي
عَــدوّى بألفٍ من ورائى مُلْجَمِ

فشــدَّ ولم تفزعْ بيوتٌ كثيــرة
لدى حيثُ القت رحلَها أمُّ قشعمِ (٢)

لَدى أسدٍ شــاكي السلاح مقــذَّفٍ
لـه لِبَــدٌ أظفــارُه لم تُقلَّــمِ

---

(١) طوى كشحا : اضمره . والمستكنة النية المستترة . ويتجمجم : يتردد

(٢) ام قشعم : المنية او الحرب .

جريءٍ متى يُظلم يُعاقِبْ بظلمه
سريعا والا يبدَ بالظلم يَظلِم

رعوا ما رعوا من ظِمئِهم ثم أوردوا
غمارا تسيل بالرماح وبالدم

فقضوا منايا بينهم ثم اصدروا الى كلأ مستوبل متوخمِ (١)

لعَمرك ما جرّتْ عليهم رماحُهم دمَ ابن نهيكٍ أو قتيلَ المثلمِ

ولا شاركوا في الحرب في دم نوفلٍ ولا وهبٍ منهم ولا ابن المحزمِ

فكلا أراهم أصبحُوا يَعقلونَهمْ عُلالةَ ألفٍ بعدَ الفٍ مصتمِ (٢)

تُساق الى قوم لقوم غرامة صحيحات مال طالعات بمخرمِ (٣)

ويعالج موضوع السلم ، ومفاوضاته ، وما رافقته من أحداث جسام ، ومعوقات حتى كاد ينتكس ، لولا حكمة ودراية رجاله ، ثم يخرج الى مدح العاملين ، ويخلص الى أبيات الحكمة المشهورة التي بها يختم قصيدته الرائعة التي تعد وثيقة تاريخية في احداث العصر آنذاك :

واذا كانت المعلقه لم تقصر في عرضها ومعالجتها لقصة الحرب والسلام ، بين الأطراف المتقاتلة ، فان قصيدته اللامية ، لا تقل شأنا عن المعلقة ، ويبلغ عدد أبياتها واحدا وأربعين بيتا ،

---

(١) المستوبل والمتوخم الذي لا يستمرا

(٢) يعلقونهم يغرمون دياتهم ، والعلالة الشيء بعد الشيء والمصتم التام

(٣) المخرم الثنية في الجبل

فيهـا تصوير منفر للحرب ، وتثمين كبير للعـاملين في الصلـح والسلم (١) :

فرحتُ بما خُبرتْ عن سيديكم وكـانا امرأين كل امرهما يعلو
رأى الله بالاحسـان ما فعلا بكم فأبلاهما خيرَ البلاءِ الـذي يبلو
تدار كتما الأحلافَ قد ثُلّ عرشُهم وذبيانَ قد زَلتْ باقدامِها النعلُ
فأصبحتما منهـا على خيرِ موطن سبيلُكما فيه وانْ احزَنوا سهلُ

وبعد ، فأرجو أن يكون قد أصبح واضحا حديث الحرب والسلام في شعر عنترة العبسي وزهير بن أبي سلمى ، حيث أنشدنا الأول وكان انشاده بلسان قعقعة السيوف ، وشدا الثاني وكان شدوه كسجع الحمام ، وكلتاهما سمة من سمات الحيـاة ، وليس لأمة تريد العيش منهما بد :

(١) الاعلم : مختارات الشعر الجاهلي ص ٢٧٤

الخاتمـــة

خلاصة البحث ونتائجه الأساسية :

(١)

الحرب :

ظهر لنا بعد التقصي والبحث ، أن هذه الحرب التي دارت بين قبيلتين كبيرتين ، تربطهما وحدة النسب والدم والارض ، وشاركت معهما قبائل عظيمة من نجد ، لم يكن باعثها العصبية والثأر فحسب ؛ وانما وقفت وراء الأحداث أسباب سياسية ، أوحتها الزعامة والسلطة ، واجتماعية ، واقتصادية ، زاد في ضراوتها ما يلحق القرابة من تحاسد وتباغض ؛ وما ينجم عن الجوار من تقاتل وتسابق ؛ ولذلك جعلنا الفصل الأول من البحث لدراسة نسب القبيلتين ، وعلاقاتهما الاجتماعية ، والاقتصادية ، ومركزهما بين مجتمع شبه الجزيرة ، لما فيه من عظيم الأثر في سير الحرب . وقد رأينا أن القبائل العربية الكبيرة تأثرت في حرب داحس والغبراء بمؤثرات شخصية ، واجتماعية ، تربطها بالقبيلتين المتقاتلتين ، فشاركت في هـــذه الحرب ؛ ثم درسنا رجالات القبيلتين ،

ووجدناهم يمثلون طبقة ممتازة من رجال الجاهلية . يتسمون بكل صفات الشجاعة ، والزعامة ، فضلا عن ملكة اللغة ، والشعر . وانتقلنا الى حروب القبيلتين في شبه الجزيرة ، فبرزت لنا صفة التماسك والوحدة بينهما قبل هذه الحرب ، عندما كانتا تردان غارة القبائل الأخرى عن أرض غطفان ورأينا أيضا أن ذبيان مع حربها في أيام داحس ، كانت تدير حروبا داخلية بين عشائرها ، في حين كانت عبس متماسكة الأجزاء ، وقد عزونا ذلك الى طبيعة بلادها ، وقوة العائلة الحاكمة من عبس :

وذهبنا في الفصل الثاني الى مناقشة روايات الحرب مناقشة دقيقة ، لم نترك ثغرة أو ثلمة الا سددناها ، بما نملكه من خبر ، أو شعر ، موثقين . واستطعنا بعدها أن نصدر حكما في ضوء ما وصلنا اليه خلال المناقشة . وبسطنا قصة الحرب ، منبهين خلال السطور ، الى اختلاف الرواية ، أو اضطراب الخبر ، مؤكدين على أهم الجوانب ، ملمحين الى أحداث لم يذكرها رواة الاخبار ، وذكرها رواة الأشعار ، واقتصرنا من ذكر الرجال على المحاربين ، والقادة ولم نتطرق الى الآخرين لعدم عثورنا على ما يوضح مكانتهم أو دورهم ، فأهملنا ذكرهم . ففي معلقة زهير مثلا ذكر لرجال كثيرين لو لم يكونوا على جانب من الأهمية كما ذكرهم أمثال : أبن نهيك وقتيل المثلم ونوفل ووهب وابن المخرم ، قال زهير :

لعمرك ما جرّتْ عليهم رماحهم
دمَ ابنِ نهيكٍ أو قتيلَ المثلَّمِ
ولا شاركتْ في الموتِ في دمِ نوفلٍ
ولا وهبٍ منها ولا ابنِ المخرّمِ

ومع ان الحرب جرت اليها جميع رجال القبيلتين ، فهي لم تعدم رجالا يفكرون بحكمة وتعقل ويسعون للصلح ، فكانت خاتمتها مشهودة في تاريخ العرب ، يوم وقف المريون يدفعون من أموالهم ديات القتلى ، وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير ، فالتأمت جروح الأقوام بها ، وعاد السلام الى الربوع :

(٢)

الشعر والشعراء :

ثم اتينا في الفصل الثالث الى شعر الحرب ، واهتدأنا بنقد رواته وتجريحهم ، حتى بلغنا الى ١٠ نرجوه من النتائج ، فاتصل الشعر ببعضه على يد رواة لا يرقى الشك اليهم : ولم نغادر حديث التوثيق قبل أن نتأكد من قضية الانتحال ، فمضينا الى عرضها مسرعين ، وأخذنا نطبق ما يصلح منها على شعر هذه الحرب ، فاعطتنا النتائج المرجوه في توثيق الشعر : وأخذنا بعدئذ نرفع كل مجموعة من هذه الأشعار الى سندها ، لنزيد في

توثيقها، ثم خلصنا الى لون آخر من ألوان البحث، هي الدراسة الفنية، ورحنا نتلمس للشعر ظواهره، وخصائصه، من لغة أو أسلوب، ثم صناعته وأوزانه وقوافيه، فانتظمت في أيدينا مادة عقدنا لها دراسة، صرفنا فيها كل جهدنا لكي تغدو متكاملة، وحاولنا الا يفلت من أيدينا شيء منها.

وجعلنا من الفصل الرابع دراسة تكميلية للشعر، فأخرجنا منه موضوعاته، ورتبناها، في نقاط. والواقع أن بعض موضوعاته انفردت وتميزت عن الشعر الجاهلي عامة، في كثرة ترديدها لأواصر القرابة والرحم، والدعوة الى السلم والتنفير من الحرب، الأمر الذي اعطى نتائجه، وأدى الى حقن الدماء، وايقاف القتال. ثم تفرغنا للشعر نواكبه مع أحداث الحرب، ونطابقه مع الوقائع التأريخية، فخرجنا بنتيجة، هي أن الشعر كان مواكبا للمعركة منذ البدء حتى الختام، ومطابقا للوقائع التأريخية، مع بعض تغيير وتحريف: نبهنا اليه في مواضعه. وانتقلنا بعدها في آخر الفصل، الى الحديث عن ضياع شعر هذه الحرب، واعطينا الأدلة المادية الملموسة على ضياعه.

والحقيقة أننا ركزنا على الشعر. فاستغرق منا حديثه فصلين كاملين، هما الثالث والرابع، وأتممناه في الفصل الخامس، حيث خصصنا الكلام عن أهم الشعراء، وعقدنا لبعضهم

دراسة مستفيضة : ففي بدء الفصل ، حصرنا حديثنا في شعراء هذه الحرب عامة ، وجعلناهم انماطا في مجموعات ثلاث : أول هذه الأنماط الشعراء الذين شاركوا في هذه الحرب ، وسميناهم « الفرسان » : وثاني الانماط الشعراء الذين لم يسهموا في هذه الحرب بسيوفهم ، فهم ليسوا بفرسانها ، لكنهم شاركوا بشعرهم دعاة لحرب أو سلام : وثالث الأنماط شعراء القبيلتين ، والقبائل الأخرى الذين أثر عنهم شعر في حرب داحس ، لم يقولوه في حربها أو سلمها ، وانما قالوه في معرض الهجاء ، أو المديح ، أو الفخر ، معرضين أو مادحين أو مفتخرين ، ليسيئوا الى شخص بعينه ويحسنوا لآخرين ، ولا ينكر ما لهذا الشعر من التأثير المباشر في ادامة الحرب واستمرارها ، وما يثيره من ضغائن واحقاد قديمة . ثم انتخبنا شاعرا فارسا ، واستعرضنا ترجمته ، وشعره ، ولم يسبق أن جمعت ترجمته وشعره فبدت لنا حياته ، فذة ، كبيرة ، وشعره جيدا متينا ، وهو قيس بن زهير العبسي القائد الحازم والشاعر المجيد . وافردنا للنابغة صفحات فسرنا فيها موقفه من هـذه الحرب ، بما أمدتنا به مقطعاته وبعض قصائده ، فألقينا ضوء على أمر كان الباحثون اغفلوه ولم يكتبوا فيه . وقد ظهر لنا أن موقف النابغة من الحرب ، كان موقف شاعر القبيلة المدافع عن كرامتها المهاجم لأعدائها ، ولمسنا له موقفا آخر جديدا ، عندما طال أمد الحرب ،

وكادت عبس تصير الى الزوال ، فدعا قومه الى اغاثة اخوانهم ، والاستعانة بهم على حرب عدوهم الخارجي . وذاك من النابغة تدبير ورأى سديد .

وبعد موقف النابغة انتقلنا الى موضوع جديد ، فاخترنا شخصيتين متميزتين ، الأولى حربية تمثلت في عنترة وشعره ، والثانية سلمية أعطى ابعادها زهير في بعض قصائده ، عندما سعى المريون في انهاء حالة الحرب وتوطيد بنود الصلح ، وانتخبنا لكليهما من شعرهم ما يوضح اتجاه كل منهما ، ودرسنا في هذه المنتخبات كل مظاهر الحرب وأسلحتها ، والسلم ودعوته وحكمته . وقد ظهرت لنا من خلال دراستها ، أن عنترة كان محاربا شريفا ، لم يكن يقصد من وراء حربه غرضا دنيئا .

وهو الى جانب ذلك كان يميل الى الصلح مع ذبيان لنسبهما . وكان زهير معجبا بهرم والحارث لسعيهما في الصلح . ولم تكن قصائد زهير في السلم الا لأنه كان يرغب في استتبابه على أرض غطفان ، من بين الأقوام ذات النسب الواحد ، لكنه لم يكن يحجم عن ذكر الحرب ، ووصف الشجاعة ، عندما تكون من غطفان على اعدائها الخارجيين .

وهكذا اتضح لنا أن عنترة شاعر الحرب وفارسها لا يدخر وسعا في العمل من أجل الصلح ، وان زهيرا داعية السلام والمحبة لا يجد غضاضة من تشجيع غطفان على حرب عدوها

من غير عبس . وهاتان الظاهرتان دلتنا عليهما مجموعتاهما الشعرية .

وبعد ، فهذه هي حرب داحس والغبراء ، وهذا شعرها ، وهؤلاء شعراؤها ، أقدمنا على دراستهم ، وانجزناها بما وفرته لنا المصادر من الحقائق ، وهي دراسة لا أزعم كمالها ، وقد يوفقني الله الى ذلك في المستقبل انه ولي التوفيق .

٧ جمادى الآخرة ١٣٨٩ — عادل جاسم محمد البياتي

٢٠ أغسطس ١٩٦٩

المصادر والمراجع

(١) الابشيهي شهاب الدين أحمد ـ المستطرف في كل فن مستظرف ط مصر / ١٣٠ .

(٢) البغدادي عبد القادر بن عمر ـ خزانة الأدب واب لباب العرب ط بولاق ١٣٤٧ .

(٢) البحتري ديوان الحماسة تحقيق لويس شيخو

(٣) البكري عبد الله بن عبد العزيز ـ التنبيه ، ط دار الكتب المصرية ١٩٢٦ ، وسمط اللآلى . ط لجنة التأليف والترجمة والنشر . تحقيق عبد العزيز الميمني . ومعجم ما استعجم . ط لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٩ تحقيق السقا

(٣) بروكلمان كارل بروكلمان ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ط . بيروت ١٩٦٠ ترجمة أمين نبيه فارس ومنير البعلبكي .

(٤) البلاذري احمد بن يحيى بن جابر أنساب الاشراف . طبع بعناية ايلوار ١٨٨٣ .

(٥) التبريزي ابو زكريا يحيى بن على شرح ديوان الحماسة ط ٣ السعادة ١٣٤٦ ، وشرح القصائد العشر ط الجيزة بالقاهرة ١٣٦٧ . وشرح ديوان أبي تمام تحقيق محمد عبده

طبع القاهرة (دار المعارف) .

(٦) ابو تمام حبيب بن اوس الحماسة الصغرى (الوحشيات) ط . القاهرة ، تحقيق محمد احمد شاكر وعبد العزيز الميمني .

(٧) الثعالبي عبد الملك بن محمد ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ط القاهرة ١٩٠٨ .

(٨) ثعلب ابو العباس احمد بن يحيى . شرح ديوان زهير بن أبي سلمى . ط دار الكتب المصرية ١٩٤٤ .

(٩) ابن الاثير محمد بن الجزري . طبعة حجرية غير مؤرخة . أو كما يذكر في الهامش

(١٠) الجاحظ ابو عثمان بحر بن عمرو . البيان والتبيين . تحقيق عبد السلام هارون والسندوبى . والحيوان . ط ساسى وتحقيق عبد السلام هارون .

(١١) حاجى خليفة كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . ط الاستانة ١٣١١ .

(١٢) جاد المولى وآخرون . أيام العرب في الجاهلية . مصر . طبعة اولى .

(١٣) جواد علي تاريخ العرب قبل الاسلام . ط . المجمع العلمي العراقي .

(١٤) الجوهرى اسماعيل بن حماد (الصحاح) . دار الكتاب العربي ١٩٥٦

(١٥) حتي فيليب حتي . تاريخ العرب (مطول) ط دار النشر

والطباعة ١٩٥٨ .

(١٦) ابن حجر شهاب الدين ابو الفضل العسقلاني . الاصابة في تمييز الصحابة م . السعادة ١٣٢٣ .

(١٧) ابن ابي الحديد . عبد الحميد بن وهبه . شرح نهج البلاغة . ط دار الكتب العربية الكبرى (الحلبي) .

(١٨) ابن حزم علي بن سعيد أنساب العرب . ط بروفنسال (دار المعارف)

(١٩) الحطيئة ابو مليكة جرول بن اوس . ديوانه . ط نعمان امين طه ١٣٧٨ هـ .

(٢٠) الحرفى احمد محمد . توثيق الشعر الجاهلي . محاضرة عامة . أم درمان ١٩٦٧ .

(٢٠) ابن حمدون شرح البسامة تحقيق دوزي .

(٢١) الخالديان (ابو بكر عمر وابو عثمان سعيد) الاشباه والنظائر . ط لجنة التأليف والنشر والترجمة . ١٩٥٨ .

(٢٢) ابن الخطيم قيس بن الخطيم . ديوانه . تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد . ط المدني ، القاهرة ١٩٦٢ .

(٢٣) ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد . المقدمة ط مصر (مصطفى محمد)

(٢٤) خليف يوسف خليف الشعراء الصعاليك ط دار المعارف بمصر ١٩٥٩ .

(٢٥) ابن دريد محمد بن الحسن الازدي . الاشتقاق (او كتاب اشتقاق اسماء القبائل) ط . مصر . خانجي ١٩٥٨ .

(٢٦) ابن رشيق ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ط ٢ . مطر حجازي ١٩٣٤ تحقيق محي الدين عبد الحميد .

(٢٧) الزبيدي محمد بن محمد بن عبد الرزاق . تاج العروس . المطبعة المنيرية ١٣٠٦ .

(٢٨) الزبير بن بكار . جمهرة نسب قريش . مكتبة دار العروبة . القاهرة ١٣٨١ .

(٢٩) الزمخشرى جار الله ، محمود بن عمر . المستقصى في أمثال العرب . ط حيدر أباد . الدكن ١٩٦٢ .

(٣٠) الزركلي (خير الدين) . الاعلام ط مصر ١٩٢٧ .

(٣١) الزركلي ابو عبد الله ، الحسين بن احمد . شرح المعلقات السبع مط التجارية ١٩٣٨

(٣٢) السجستاني . ابو حاتم سهل بن محمد . كتاب المعمرين . ط القاهرة ١٩٦١ .

(٣٣) ابن سعد ابو عبد الله محمد . الطبقات الكبرى . دار صادر بيروت ١٩٥٧ .

(٣٤) ابن سلام محمد بن سلام الجمحى . طبقات فحول الشعراء . ط دار المعارف .

(٣٥) السهيلي ابو القاسم ، عبد الرحمن بن عبد الله . الروض الأنف ط الجمالية ١٩١٤

(٣٦) الشريف المرتضى . علي بن الحسين . الامالي ، تحقيق محمد
ابو الفضل ابراهيم . دار احياء الكتب العربية ١٩٥٤ .
(٣٧) شوقي ضيف تاريخ الادب العربي . العصر الجاهلي . ط دار
المعارف بمصر ١٩٦٠ .
(٣٨) صالح احمد العلي . محاضرات في تاريخ العرب . ط بغداد ١٩٥٩
(٣٩) صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري . الحماسة
البصرية . ط حيدر آباد ١٣٨٣ .
(٤٠) الاصطخري ابو اسحق ابراهيم محمد الفارسي . الممالك والمسالك
ط بريل لندن ١٩٢٧ .
(٤١) الأصفهاني ابو الفرج علي بن الحسين بن محمد الاموي . ط دار
الكتب . او كما يذكر في الهامش .
(٤٢) طه حسين في الادب الجاهلي . ط القاهرة ١٩٣٣ .
(٤٣) ابن عبد ربه احمد بن محمد الاندلسي العقد الفريد ط بولاق
او كما يذكر في الهامش .
(٤٤) عبد العزيز الدوري . مقدمة في تاريخ صدر الاسلام .
ط الكاثوليكية ١٩٦٢ .
(٤٥) عبد الله الطيب المجذوب . المرشد لفهم اشعار العرب . ط مصطفى
الحلبي ١٩٥٥ .
(٤٦) ابو عبيدة معمر بن المثنى « نقائض جرير والفرزدق » ، رواية
السكري ، ط بريل . ليدن ١٩٠٧ . وانساب الخيل .

الهند ١٣٥٨

(٤٧) ابن الاعرابى محمد بن زياد اسماء خيل العرب وفرسانها . تحقيق جرجس لوى دلاويدا .

(٤٨) عروة بن الورد العبسي . « ديوانه » . ط الجزائر ١٩٢٦ . تصحيح الشيخ ابن ابي شنب .

(٤٩) الاعلم يوسف بن سليمان . المعروف بالاعلم الشنتمري . مختارات الشعر الجاهلي . طبعة القاهرة . تحقيق عبد المتعال الصعيدي . او كما يذكر في الهامش .

(٥٠) علي الجندي شعر الحرب فى العصر الجاهلي - مطبعة الرسالة ١٩٥٨

(٥١) عمر رضا كحالة معجم قبائل العرب . ط دمشق ١٩٤٩ .

(٥١) عنترة بن شداد « ديوانه » . تحقيق وشرح عبد المنعم رؤوف شلبي . ط القاهرة .

(٥٢) القالي ابو علي ، اسماعيل بن القاسم الامـالي والنوادر . ط دار الكتب المصرية .

(٥٤) ابن قتيبة ابو محمد عبد الله بن مسلم . الشعر والشعراء . ط دار المعارف بمصر . والمعاني الكبير ط حيدر اباد بالهند وعيون الأخبار ط مصر والمعارف .

(٥٥) القرشي ابو زيد ، محمد بن الخطاب . جمهرة اشعار العرب . ط الرحمانية ١٣٤٥

(٥٦) ابن الكلبي هشام بن محمد بن السائب . انساب الخيل ، ط دار

الكتب المصرية .

(٥٧) الآلوسي محمود شكري ، بلوغ الأرب في معرفة احوال العرب
ط ٢ بعناية بهجت الاثري ١٣٤٢ .

(٥٨) المبرد ابو العباس محمود بن يزيد ، الكامل في اللغة والأدب
ط مصطفى محمد

(٥٩) محمد بن حبيب (الهجر) ط حيدر آباد ١٣٦١ .

(٦٠) محمد زكي العشماوي ، النابغة الذبياني . دار المعارف ١٩٦٨ .

(٦١) المرزباني محمد بن عمران ، معجم الشعراء ط عبد الستار
احمد فراج .

(٦٢) المرزوقي ابو علي ، احمد بن محمد الحسين . شرح ديوان الحماسة
ط لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٣ .

(٦٣) مصطفى صادق الرافعي . تاريخ اداب العرب ١٣٢٩ .

(٦٤) المفضل بن سلمة بن عاصم . الفاخر . ط وزارة الثقافة والارشاد
القومي ، القاهرة ١٩٦٠

(٦٥) المفضل بن محمد الضبي . المفضليات . شرح ابن الأنباري .
ط لايل ١٩٢٠ . ديوان المفضليات . تحقيق عبد السلام هارون
أمثال العرب ، مطبعة الجوائب . سنة ١٣٠٠ هـ قسطنطينة

(٦٦) الميداني ابو الفضل ، احمد بن محمد . مجمع الأمثال .
ط القاهرة ١٩٥٥ .

(٦٧) ابن منظور محمد بن مكرم بن علي بن احمد « لسان العرب » ط بولاق .

(٦٨) النابغة الذبياني زياد بن معاوية (ديوانه) . رواية السكري ، تحقيق وشرح شكري فيصل . بيروت ١٩٦٨ .

(٦٩) ناصر الدين الاسد مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية . ط دار المعارف ١٩٥٦

(٧٠) ابن نباته جمال الدين محمد . سرح العيون . ط مصر ١٣٢١ .

(٧١) ابن الانباري ابو بكر محمد بن القاسم ، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات دار المعارف بمصر ١٩٦٢ .

(٧٢) ابن النديم ابو الفرج بن اسحق بن يعقوب . الفهرست . المكتبة التجارية بمصر ١٣٤٨ .

(٧٣) النويري احمد بن عبد الوهاب . نهاية الأرب في فنون الادب . دار الكتب المصرية .

(٧٤) وهب بن منبه التيجان . ط حيدر آباد ١٣٤٧ .

(٧٥) ابن هشام ابو محمد عبد الملك . ط السقا ورفيقيه ١٩٥٥ .

(٧٦) الهمداني ابو محمد ، الحسن بن احمد بن يعقوب . صفة جزيرة العرب . بريل ١٨٨٤ . الاكليل الجزء الاول تحقيق محمد الاكوع الحوالي ط القاهرة ١٩٦٣ .

(٧٧) ياقوت ابو عبد الله الرومى . ط لايبزك١٨٦٦ والسعادة ١٣٢٤ وارشاد الاديب الى معرفة الاريب (معجم الادباء) ط القاهرة ١٩٣٩

(٧٨) الآمدي ابو القاسم الحسن بن يحيى بن أبي بشر المؤتلف والمختلف تحقيق عبد الستار احمد فراج١٩٦١

The thesis was submitted to Cairo University , Faculty of Arts , Arabic language Department , in September 1969 , for the degree of Master of Arts . It has been undertaken under the supervision of Dr . Muhammad Kamel Ahmad Gomas , Professor of Arabic Literature .

This thesis is a research work for a war that happened in the Pre - islamic days (The Jahiliyah Period) Gduring the forty years that preceded the rise of Islam , and the mission of the Prophet « Muhammad » . It deals with the Poetry of this war in an analytic and documeutary study . The war had taken place in « Najd Plateau » in the Arabian peninsyla , between two great tribes : « Abs » and « Dhubyan » .

The thesis is divided in to five chapters , and a conclusion , which can be summarized as follows :

First Chapter :

It treats the historical side of these two tribes, Which Were descended from « Ghatafan » . They were connected by one traditional ancestor , who is called « Baghid ibn Ghatafan » . So , the two tribes are related to « Qays » .

They were neighbours , and were attached to each other - before war - by traditional friendly relations , which proved their falsehood when tension penetrated between them , and the situation could bear no more hypocrisy . Their prestige

in respect to the Arabian penisula society was taken into consideration . The two tribes enjoyed the respect of all, which was proved by stable historical texts . This discussion led us to talk about their Principal personalities . This chapter was ended by a summary about the days between the two tribes on one hand, and the days with other tribes on the other .

Second Chapter :

It is introduced by the reasons and factors which led to war, some were direct reasons, and others were indirect . The roots of dispute were followed thoroughly We had to cover, precisely, the various sides of tribal society, particularly, the « Asabiyah », the conflict upon pasture land and water resources, and vengeance . All the opinions were criticized owing to the recent scientific studies . It became certain that the day of « Dahis and Al - Ghabra » was not due to one reason, which was the race between two horses belonging to two chieftains of the above - mentioned tribes .

Afterwards, the whole story of the War - with its various days - was related in particulars according to the most accurate hearsays . They were not confined to « Ghatafan » lands, but they were overspread to extensive regions of the peninsula .

This chapter was finished by the peace and its

terms , and the efforts of many leaders(Sayyids) to put an end to the war after prying the atonements on behalf of the tribes Who were unable to pay their duties .

Third Chapter :

It deals with poets and Poetry , and it could be said that it is the principal part of the subject , for which the thesis is undertaken . Before we can give any technical or systematic judgement , we began documentation of this poetry , out of the common knowledge that a great part of the pre - islamic poetry had been put .

Firstly the resources of this poetry had been discussed, and their evolution since olden times till orientalists and Arab literates dealt with in recent ages . Besides , its narrators are criticized . This method is aPplied in war poetry . Secondly , each technical feature was extracted to be , seperately , discussed . Characteristic features in war poetry are taken into consideration . but general features which were similar to the rest of the pre - islamic poetry are not discussed in detail , Thirdly , language , style and artistic creation are given the utmost care , particularly , if theyWere contemporary to the school of rhetoric or not Fourthly , its rhythms and rhymes are , precisely , studied from all respects . Finally , the mixture of this poetry's relationship to his poets is , fully , covered by referring to

the most documented hearsays

Fourth Chapter :

It is devoted to study Poetry systematically. Its Purposes most Popular were : Pride , emphasis upon blood relations, invitation to Peace and hatred of war , threat and vengeance lust . mccompaniment of Roetry war events is taken into consideration .

Fifth Chapter :

It is specialized to the most famous Poets of the war . They were divided into groups according to their situation in the war , and Their participation or remoteness in it . Qays ibn - Zohair was chosen to be studied specifically . His biography and his poetry are given attenion to the utmost limit . Then wee valuated a fundamental question in this research , it was the role ef « Al Nabingha Al - Dhubyani » in the war . New attitudes were known for the first time , that is to say that « Al - nabigha» though he was the ambassador on behalf of his tribe to the court of the « Ghassanids » , he never neglected war affairs but he stood firmly supporting his tribe « Dhubyan » anti « Abs . » Concerning his last situation when he blamed his tribe on leaving « Abs » to immigrate from its location to join « Bani Amer » it was a new one , which suited the current affairs in the region . Really , it proved that

the poet was broad - minded .

Moreover , a special study to « Antarah - or Antar - Ibn - Shaddad Al - Absi » has been fulfilled at the end of this chapter , as his poetry had represented the war side . Although he was a poet and warrior , he did not afford any effort for seeking peace . His poetry was promising in respect of nobility and tenderness of emotions . « Zohair ibn Abi Salma » is enrolled , also , out of representing the peace side . In spite of his call for peace and love , and advising all to be reasonable , he did not miss in admiring championship , and aggression retaliation .

الفهارس العامة

* فهرس الاعلام والقبائل والامم
* فهرس الأماكن والأيام
* جدول بالأغلاط المطبعية

اعتذار :

* حصل خطأ في العنوان الفرعي ص ١٧٢ نرجو تصحيحه وجعله « الرابعة » « بدل السادسة » ، وكذلك ص ٤٠٣ نرجو تصحيحه وجعله « شعر عنترة وزهير » بدل « حرب عنترة وزهير » .
* بعض اسماء الاعلام الواردة في الكتاب لم نثبتها في الفهرس ، لأنها ترد في جميع الصفحات تقريباً ، مثل قيس وعنترة ، وكذلك الأمر بالنسبة للحروب مثل داحس والغبراء ، نرجو الالتفات الى ذلك ، وشكراً .

الأعلام والقبائل والأمم

(غ)

الأماكن والأيام (١)

(١) لقد أشرنا الى الوقعات والأيام بنجوم وضعناها على الكلمات .

تصويبات هامة

برغم ما أبديناه من حرص في أن يخرج الكتاب منزهاً من كل نقص ، الا أن كثيراً من الاغلاط الطباعية قد وقعت خارج ارادتنا . نلتمس من القارىء ان يتفضل وينشط لتصحيحها بقلمه الكريم ، قبل قراءة الكتاب ، لكي تتم الفائدة له ولنا وللجميع ، مع الشكر .

الخطأ	ص	س	الصواب
التصليم	٥	١	التعليم
ويغدوا	٥	١٥	ويغدو
يتلقون	٦	١٣	يلتقون
الرئيسي	١٠	١	الرئيس
قاسم	٤٠	١٣	قيس
فان	٤٧	٥	قاد
تغدير	٥٤	١٥	تعذير
واكن	٥٦	٣	ولكن
عن	٦٧	١٥	عند
الموشح	٧٩	٩	المرشح
المصدر	٩٠	٣	الصدر
« رويد يعلون الجدد »	١٢١	٢	فقال قيس « رويد يعلون الجدد »
فنقول	١٤٣	١٩	منقول

الخطأ	ص	س	الصواب
وتسحنونها	١٤٥	١	وتسمنونها
جباة	١٤٥	١٣	جبلة
أتلحق	١٤٧	١٣	اتحلق
من	١٥٨	٣	بن
ودفنوا	١٥٩	٩	ودقوا
رواية	١٦٧	١٩	راوية
رواية	١٦٨	١	راوية
السادسة	١٧٢	١	الرابعة
عبيدة	١٧٤	٣	عبيد
عبيدة	١٧٧	٢	عبيد
اقمت	١٧٨	١٣	لقيت
روايته	١٨٥	٧	راويته
خبر	١٨٥	١٢	خبراً
الراوية	٢٠٢	١٨	الرواية
والتصريح	٢٠٤	٦	والتصريع
بكف	٢٠٨	١٧	بكفه
جزاء	٢١٦	١٧	جزءاً ونرجو تصحيح رقم الصفحة حيث ورد خطئا انه ٣١٦ والصحيح ٢١٦
موضوحا	٢١٨	١٦	موضوما
بقطعات	٢١٩	٤	بمقطعات
التصريح	٢١٩	٦	التصريع
الأخرون	٢٢٦	٢٠	الآخرون

الخطأ	ص	س	الصواب
خصمناها	٢٢٩	٨	خصصناها
واوعى	٢٤٠	١٢	وأرعى
أمسي	٢٤٨	١	أمس
وسلمت	٢٦٧	١٣	وسلحت
سورة	٢٧٦	٢	سودة
وسوف	٢٨٤	٣	سوف
وصول	٢٨٩	٣	وطول
قتله	٢٩١	١٥	قلّته
عرس	٢٩٧	٩	عرسي
أمسي	٢٩٧	٩	أمس
الرواية	٣٠٥	٨	الراوية
الصفحة	٣٢١	٥	الصفة
١٦١	٣٣٦	١٦	٢٧٨
نعصيه	٣٤٥	٤	نعصه
خلافته	٣٤٥	١٧	خلافة
يحيطه	٣٥٦	١	يحيط به
تغاد	٣٥٧	١٨	تغاد
لم ينسى	٣٦٣	٢	لم ينس
لم تخشى	٣٦٩	٧	لم تخش
يحوب	٣٦٩	١٥	يجوب
أقام	٣٧٥	١٠	أمام
لومها	٣٧٦	٤	لوحتّها

الخطأ	ص	س	الصواب
البترمي	٣٧٩	١٩	الرمي
الشاعر	٣٨١	٤	الشاء
الاحذم	٣٨٥	٢	الاجذم
الأزلِ	٣٨٦	٥	الأزلُ
الحارث	٣٨٨	١٢	الحادث
اكون	٣٩٣	٦	اكول
وامسانا	٣٩٣	١١	وإحساناً
أمساء	٣٩٣	١٥	أحساء
حرب عنترة وزهير	٤٠٣	٢	شعر عنترة وزهير
شق	٤٠٨	٦	شتى
سانح	٤١١	١٠	سابح
بكلالها	٤١١	١٩	بكلاها
الرمح	٤١٦	٩	الدرع
بجلس	٤٢١	١٤	يجلس
فتستشم	٤٢٩	١	فتتشم
ينجيّها	٤٣٠	١١	ينجمها
ينجيّها	٤٣٠	١٢	ينجمها
فود	٤٣١	١	فرد

شيء عن مؤلف الكتاب

- ولد عام ١٩٣٥ ببغداد ، محلة الفضل . وتعلم في مدارسها ونهلت روحه من مأثوراتها الشعبية ، حيث سيرة عنترة والزير سالم ، تروى في مقاهيها القديمة .
- تخرج في كلية التربية من مرتبة الشرف ، وجامعة القاهرة ، « الماجستير » بدرجة جيد جداً ، ويعد الآن الدكتوراه في موضوع « شعر الأيام الجاهلية » ، ويزاول التدريس بجامعة بغداد - كلية الآداب - قسم اللغة العربية .
- أصدر مجموعته الشعرية الأولى « ظل الفارس النحاسي» بمساعدة وزارة الاعلام ، وتصدر له قريباً المجموعة الشعرية الثانية .
- حقق مجموعة من أشعار الجاهليين المقلين والمجيدين . من بينهم قيس بن زهير والحارث بن ظالم المري والربيع ابن زياد ، نشرها مع دراسات مفصلة عنهم ، وهي خطة أعدها لدراسة « شعر غطفان » .



رقم الايداع فى المكتبة الوطنية ببغداد ١٨٨ لسنة ١٩٧١

١١ - ١٠٠٠ ١٩٧٢/٥/٢٥

الثمن دينار واحد

مطبعة الآداب - في النجف الاشرف

POETRY

(In The Day Of Dahis And Ae - Ghabra)

A thesis submitted for the Master's Degree

By

Adel Jassim Al - Bayati

AL . ADAB - PRESS
Najaf 1972